الباب الرابع

الشك فى الشعر الجاهلى

(الوضع والنحل)

الفصل الأول

المشكلة الهومرية

١

الشك فى الأدب القديم ، الذى أنشأته الأمم فى جاهليتها وبداوتها ، ظاهرة لا تقتصر على الشعر العربى وحده ، ولكنها عامة تكاد تشمل الأدب القديم كله عند جميع الأمم التى كان لها أدب معروف مدروس . ولعل خير ما نمهد به بين يدى بحثنا هذا عن النحل والوضع فى الشعر العربى الجاهلى — أن نعرض ، فى إيجاز ، الملامح الأساسية لجهود الدارسين الأوربيين الذين عُنُوا بدراسة الشعر الإغريقى القديم ، وخاصةً هومر وملحمتيه . ولسنا ، فى هذه الدراسة المقارنة ، بِدْعاً بين الدارسين ، فقد لجأ إليها الأوربيون أنفسهم حين تعرضوا لدراسة الشعر الإغريقى وهومر ، وحاولوا أن يتلمسوا فى آداب الأمم الأخرى ما يعينهم على المضىّ فى سبيلهم وينير لهم بعض دياجيها [١] . فنراهم يبحثون فى شعر الأمم البدائية ونشأته وطرق حفظه وروايته ، ويوازنون بين ملحمتى هومر والملحمتين السنسكريتيتين : المهابهارتا والرامايانا من جانب ، والقصائد والأغانى الشعبية فى العصور الوسطى عند الأمم الأوربية نفسها من جانب آخر ، ثم يوازنون آخرَ الأمر بين ملحمتى هومر والملاحم الأوربية التى نُظِمت فى عصور أكثر حضارةً

---

(١) انظر R.G. Jebb, Homer : An Introduction to The Iliad and The Odyssey, P. 131-196.

وانظر أيضاً W.D. Geddes, The Problem of the Homeric Poems, P. 4, f.n. 2, P. 10

وكذلك C.M. Bowra, Tradition and Design in The Iliad, Introduction 7-8.

وأوفر علماً من عصر الإلياذة والأوديسة من مثل إنيادة فرجيل ، والفردوس المفقود لملتون — من جانب ثالث .

ولم يعتسف جلّةُ هؤلاء الدارسين سبيل تلك الموازنات اعتسافاً ، وإنما صدروا عن بيّنة ، وأقدموا على بصيرة ، ومضوا يقظين متنبهين ، مدركين أنهم بهذه الموازنات لا يصحّ أن ينخدعوا بالمشابه الظاهرة والوشائج الواضحة ، بل لا بد لهم من أن يتنبهوا لوجوه الخلاف ومناحي الافتراق . فهم يوضحون ، فيما يوضحون ، الخلافَ بين ملحمتيْ هومر والملحمتين الهنديتين فى الوحدة والاتساق اللذين ينتظمان الأوليَيْن ويُفتقدان فى الأخريَيْن ، والخلاف بين ملحمتى هومر والأغانى الشعبية فى الخطة والنسق والنظام ، والخلاف بينهما وبين الملاحم التالية فى مظاهر العصر وما يتبع هذه المظاهر من مصادر علمية وفنية نهل منها شعراء الملاحم التالية وتأثروا بها ، ولم ينل منها ناظم الإلياذة والأوديسة نصيباً . وهؤلاء الدارسون يرتّبون على هذا الخلاف والافتراق من النتائج ما يعصمهم فى أحيان كثيرة من الانخداع بما للتشابه الظاهرى من بريق مُغْرٍ . ومع هذه الحيطة والحذر البالغين نرى دارساً من ثقات المتخصصين فى دراسة هومر لعهدنا هذا ، هو الأستاذ سيسيل موريس باورا ، يعتذر لنفسه بقوله[1] : « إن المقابلة واستخراج وجوه الشبه بين الأشياء وسيلةٌ موحية ملهمة ولكنها خادعة مضللة ، وأنا مدرك أنها قد تكون خدعتنى وضللتنى » .

وبعد ، فسأعرض فى هذه الصفحات بعض وجوه الشبه بين الشعر العربى الجاهلى والشعر الإغريقى القديم ، وسأخلُص من هذا العرض الموجز إلى الحديث عن ثلاث نقاط تتصل اتصالاً وثيقاً بما قدمتُ وما سأقدم من حديث عن الشعر الجاهلى ومصادره . أولاها : مَنْ نظم الإلياذة والأوديسة وصحةُ نسبتهما إلى هومر ؟ والثانية : وسيلة حفظ الشعر الهومرى ، أكانت الرواية الشفهية أم الكتابة ؟

---

(١) C.M. Bowra, Tradition and Design in the Iliad, preface, 8.

والثالثة : المدارس اللغوية القديمة التى درست شعر هومر ونقدته بعد أن جمعته ودوّنته .

أما التشابه بين الشعر الجاهلى والشعر الإغريقى ، فى ملامحهما العامة وأوائل تطورهما ووسائل تحملهما وتاريخ العناية بهما ودراستهما عند القدماء ، فتشابهٌ قد اتضحت صورته فى نفسى منذ أن اتصلت ، شيئاً ما ، بالشعر الإغريقى وتتبعت قدراً صالحاً مما كتبه الدارسون عنه . وأرانى فى حل من بسط القول بسطاً يستقصى الأمور ويلم أطرافها ويحتاط لمزالقها فى هذا الموضوع ، ما دمت سأعرض للأمر من أصوله العامة وأتجنب الخوض فى فروعه ودقائقه ، وما دمت متخذاً من هذا التشابه مدخلاً لبيان النقاط الثلاث التى ذكرتها دون تحميله من النتائج ما يتجاوز ذلك .

١ — فالشعر الجاهلى وشعر هومر هما أقدم شعر وصل إلينا من العرب والإغريق ، وهما — على ذلك — ليسا أول شعر قالته هاتان الأمتان ؛ بل لقد سبقتهما مراحل تطور فيها الشعر حتى استوى فى هذه الصورة التى وصلت إلينا . غير أن هذا الشعر المبكر عند العرب واليونان معاً قد ضاع ولم يحفظ لنا منه شىء قائم بنفسه منفصل عن غيره . ومع ذلك فإننا نستطيع أن نعرف وجود هذه المراحل السابقة من أمرين ، أولهما : أن هذه الصور الشعرية التى وصلت إلينا صور فنية كاملة ، متسقة ، تامة التكوين ، سويّة البناء ، ثابتة الأسس ، حتى لقد أصبحت ، بعد ، نماذج فنية تحاكَى وتحتذَى ويتخذ منها عمودٌ للشعر يحرص على التزامه شعراء العصور التالية فى البيئات المتعددة التى صارت أزهى حضارة وأرقى ثقافة وأغزر معرفة . وليس يصح فى الأفهام أن تنبت هذه الصورة الكاملة السوية من العدم ، أو تقوم من الفراغ ، أو تولد فجأة يافعة تامة التكوين . وثانيهما : أن فى كلا الشعرين إشارات واضحة حيناً ومبهمة أحياناً — إلى شعراء سابقين لا نكاد نعرف عنهم شيئاً [1] .

---

(١) لعل أوضح مثال على ذلك فى الشعر الجاهلى هو « حذام » فى شعر امرئ القيس على=

٢ ــ والشبه كبير بين الشعرين العربى الجاهلى والهومرى فى الصفات العامة للتعبير الشعرى ، فهما يتسمان بالنضارة والغضارة والبساطة ، وبالفتنة التى نعزوها إلى « طفولة العالم » عند اليونان ، و « سذاجة البداوة » عند العرب . ومع ذلك فما أشبه الشعر الجاهلى العربى بالشعر الهومرى الذى «تعالى على خشونة الشكل ، وتجنَّب الصراع الناشب بين المعنى واللفظ ، وارتفع عن الحوشى المبتذل من أساليب القول ، واستطاع أن يحتفظ بمستواه الرفيع حفظاً متزناً ، وبذلك تجنب هذه الخصائص التى يتصف بها الأدب فى عصره البدائى . وهذه الميزات العامة هى التى يصفها ماثيو أرنولد ــ فى محاضراته الممتازة عن ترجمة هومر ــ حيث يقول : إن لأسلوب هومر أربع مزايا كبرى : فهو منساب متدفق ، سهل ميسور فى فكرته ، واضح فى خياله ، ونبيل سامٍ »[1] .

٣ ــ ولقد اختلف العلماء من دارسى الأدب فى تدوين هذين الشعرين : الجاهلى العربى والهومرى الإغريقى . فذهب فريق منهم إلى أنهما لم يكتبا منذ أن نُظِما ، بل بقيا محفوظين فى صدور الرجال ترويهما الأجيال المتعاقبة وينشدهما الأفراد فى المجالس والمحافل قروناً طوالاً قاربت الثلاثة عند العرب وأربت على ذلك عند الإغريق . وذهب فريق آخر منهم إلى أن هذا الشعر قد كتب منذ أن قاله شعراء العرب فى الجاهلية وهومر عند اليونان . أما تفصيل هذا الأمر عند العرب فقد بسطنا فيه القول فى الفصول المتقدمة وسنعود إليه فى مواطن متفرقة فيما سيلقانا من صفحات . وأما تفصيله عند اليونان فهو ما سنوضحه بعد قليل .

= اختلاف فى قراءته . وأما تفصيل هذا الأمر فى الشعر الهومرى ففى :

1) R.G. Jebb, Homer : An Introduction to The Iliad and The Odyssey P. 1-2.

2) W.D. Geddes, The Problem of the Homeric Poems P. 21.

3) Thomas W. Allen, Homer : The Origins and The Transmission,

ويذكر توماس ألن فى كتابه هذا ص١٢١ أسماء عدة شعراء قبل هومر ، ثم يجمع فى (ص١٣٩ وما بعدها) الأدلة ــ التى يستخرجها من الإلياذة والأوديسة ــ على وجود شعراء سابقين لهومر .

(١) Jebb, Homer P. 12

٤ ــ والشعران الجاهلى العربى والهومرى مصدران تاريخيان من مصادر الحياة الجاهلية عند هاتين الأمتين ؛ بل ربما كانا ــ حتى الآن ــ المصدرين الأساسيين اللذين يعتمد الدارس عليهما فى فهم هذه الحياة ــ فى كثير من جوانبها ــ فهماً متصلاً متسقاً . وجلّ الأخبار التاريخية والأدبية التى نقلها الرواة إنما كانت تدور حول هذا الشعر : تفسره وتشرح ما يتضمنه من حوادث ، وتترجم لمن يشير إليه من أشخاص . وقد لجأ القدامى أنفسهم إلى الشعر العربى الجاهلى يستنطقونه ويستنبطون منه توضيح بعض جوانب الحياة فى الجاهلية ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها ما فعله ابن قتيبه فى كتابه « الميسر والقداح » ، وما فعله أبو طالب المفضل بن سلمة فى كتابه « الملاهى وأسماؤها » . وأما الشعر الهومرى فهو أيضاً أول سجل يعرض صورة واضحة نابضة بالحياة للحضارة الآرية ، ولقد كادت فترة طويلة من الحياة الهيلينية المبكرة تكون لولاه نسياً منسياً ، ولكنها الآن بفضله تبدو متصلة بالعصر الهيلينى التالى فى نسق متدرّج مستمر (١) .

٥ ــ وكان الفضل الأول ، فى جمع الشعرين الجاهلى العربى والهومرى وتدوينهما ونقدهما ، لمدرستين لغويتين أدبيتين ؛ قامت أولاهما فى الإسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، فجمعت ما استطاعت العثور عليه من مخطوطات الإلياذة والأوديسة ، وقابلت بينها ، وأثبتت القراءات المختلفة للنص الشعرى ، وعلقت عليه كثيراً من التعليقات والشروح ، ثم تابعتها بعد ذلك مدينة برجامس. وقامت ثانيتهما فى البصرة والكوفة منذ منتصف القرن الثانى الهجرى ، فصنعت بالشعر الجاهلى صنيع أختها بالشعر الهومرى . وعلى ما أرسته هاتان المدرستان من أسس ، ووضعته من قواعد ، قام البناء الشامخ لدراسة الشعر الهومرى والشعر الجاهلى العربى بعد ذلك .

٦ ــ ولم يقتصر عمل هاتين المدرستين على الجمع والتدوين والشرح والتعليق ،

---

(١) Jebb, Homer P. 1, 38, 84-85

وإنما تعدى ذلك كله إلى النقد الدقيق القائم على الفهم العميق لطبيعة كل من الشعرين واستشفاف روحه ، والتنبه لما تسرب إليه من دخيل منحول وزائف مصنوع . ونبتت فى نقد هاتين المدرستين ويقظتهما الواعية — الجذور الأولى التى أخذت تنمو وتعمق حتى بلغت مداها فى القرن الثامن عشر عند الألمان ، واكتملت صورتها عند وُلْف فى كتابه « المقدمة Prolegomena » ، ونشأ منها ما يعرف فى النقد الحديث « بالمشكلة الهومرية Homeric Question » ؛ وتأثرها — فيما يبدو — دارسو الشعر الجاهلى من المحدثين ، معتمدين على ما تنبه له القدامى من مدرسة البصرة والكوفة ، فقامت عندهم — منذ مطلع القرن العشرين — مشكلة أخرى عُرِفت باسم « نحل الشعر الجاهلى » ، بدأها المستشرق الإنجليزى مرجليوث ، واكتملت صورتها عند الأستاذ الدكتور طه حسين . وسنعود بعد قليل إلى بسط الحديث فى هاتين النقطتين الأخيرتين .

أوَليس إذن من المفيد حقًّا — بعد أن عرضنا هذه الوجوه الكثيرة للتشابه القريب بين الشعرين — أن نستبين جهود الدارسين من العلماء الأوربيين الذين بحثوا فى الشعر الهومرى ؟ وأن نعرف ، على وجه التخصيص ، ما وصلوا إليه من أمر النقاط الثلاث التى قدمنا الإشارة إليها ، وهى : مَنْ نظم الإلياذة والأوديسة وصحة نسبتهما إلى هومر ؛ ووسيلة حفظ الشعر الهومرى : أكانت الرواية الشفهية أم الكتابة ؛ ثم المدارس اللغوية القديمة التى درست شعر هومر ونقدته بعد أن جمعته ودوّنته ؟

٢

أما من الذى نظم الملحمتين الهوميريتين [١] فموضوع لم يصل الدارسون له ،

---

(١) القصيدتان الهوميريتان هما الإلياذة والأوديسة ، والنص على أنهما هوميريتان لا يتضمن فى هذا المجال أن شاعراً مفرداً بعينه هو ناظم القصيدتين أو ناظم إحداهما .

برغم ما بذلوا من جهد خصب ، إلى نتيجة يستقرُّون عندها ، ويبدو أنهم لن يصلوا مهما يبذلوا من جهد ؛ وستبقى الآراء مختلفة متشعبة لا تتوحد ولا تكاد ، وستظل الأدلة التى يقدمها الدارسون افتراضية ترجيحية لا ترقى إلى مرتبة القطع واليقين . وتدور هذه الآراء حول عدة افتراضات ؛ منها :

(١) وحدة التأليف :

فقد ظل الدارسون قروناً طوالاً يعتقدون اعتقاداً لا شك فيه بوجود شاعر اسمه هومر ، وأنه هو الذى نظم الإلياذة والأوديسة لاينازعه فى نسبتهما إليه منازع . ولم يكن اليونان وحدهم فى القرون الخمسة التى سبقت الميلاد — وهى القرون التى وصلتنا منها آثار أدبية مكتوبة — يذهبون مثل هذا المذهب ، بل شاركهم فيه الدارسون بعد الميلاد قروناً طويلة حتى القرن الثامن عشر الميلادى . ومع هذا فقد كانت شخصية هومر عندهم غائمة تغشّيها أساطير متضاربة[١] . وحقاً قد وُجد نفر قليل من الشاكّين غير أن أثرهم كان ضئيلاً محدوداً ولم يتبعهم أحد . وكل ما نعرفه عن هؤلاء الشاكّين إشارات عابرة إلى آرائهم موجودة فى حواشى نسخة البندقية من الإلياذة Codex Venetus ؛ ويستخلص من هذه الإشارات العابرة إلى آرائهم أنهم كانوا يذهبون إلى أن القصيدتين من نظم شعراء مختلفين وفى عهود متعاقبة . ولكن الرأى السابق هو الرأى العرفى التقليدى الذى كان سائداً عاماً ، حتى إن سويداس Suidas فى نحو سنة ١١٠٠ م كان لا يزال يرى أن الإلياذة والأوديسة نظمهما هومر دون نزاع ؛ بل إن بنتلى Bentley فى مطلع القرن الثامن عشر كان يذهب إلى أن شاعراً كان يسمى هومر عاش فى نحو ١٠٥٠ ق . م كتب الإلياذة والأوديسة كلتيهما[٢] .

والحق أن فكرة وجود شاعر واحد تاريخى اسمه هومر نظم الإلياذة قد بقيت

---

(١) انظر Jebb, Homer, P. 88, 103 ، وكذلك : Geddes, The Problem of The Homere Poems, 5

(٢) Jebb, Homer, 103, 105-106 ، وكذلك : Geddes, P. 6

خلال العصور على الرغم من أبحاث الناقدين المتشككين . فنحن نجد عالماً معاصراً فى القرن العشرين من الثقات المختصين بهومر والشعر الإغريقى يذهب هذا المذهب فيقول [١] : « ويبدو من المحتمل أنه كان ثمة شاعر مفرد اسمه هومر صاغ الإلياذة فى صورتها النهائية الأخيرة ووحدتها الفنية، ولكنه كان يعمل وفاقاً لأسلوب موروث متواضع عليه ومادة تتناقل وتتوارث » . ويقول فى موطن آخر من كتابه[٢] : « غير أننا — إذ ندعى أن تقسيم الإلياذة إلى نتاج مؤلفين مختلفين أمر مستحيل — سنتخذ الأدلة التى عثر عليها النقاد لهدف مختلف عن ذلك كل الاختلاف ، هو : تفسير بعض الخصائص الواضحة على أساس افتراضنا أنها جميعها ترجع إلى شاعر فرد يستخدم موضوعات ومواد جاهزة بأسلوب وطريقة يمليهما التراث الموروث الذى أصبح هو وريثه » . ثم يقول بعد صفحات [٣] : « لقد نمت الإلياذة وربما كان نموها وفقاً للخطوط التى بيّنّاها فى هذا الكتاب . وكان من الجائز أن ينتهى مثل هذا التطور والنمو إلى فوضى واضطراب ، كما حدث فى المهابهارتا ، لو تعهدته يد غير صنّاع ، ولكن الملحمة فى زيونيا كانت أسعد حظّاً ، فقد وجدت فى هومر شاعراً له من الموهبة ما جعله يتناول المواد الموروثة ويجعلها ملكه ، فوسعها وطوّرها ، وأضفى عليها تفرداً فى الأسلوب والفكرة ، فحوّل المواد المتضاربة إلى قصيدة واحدة ، وقد بلغ عمله من النجاح مرتبة عالية بحيث انتهت حقّاً الملحمة الإغريقية بها . وقد نظم بعده بمدة طويلة شعراء آخرون ملاحم ، ولكنهم صاغوا على منواله ، وكان هو الذى ثبت أسلوبهم وأرسى قواعده ، فعمله بعيد عن أن يكون جمعاً . لقد استخدم المناهج والقصص المتوارثة ولكنه أخضعها لغايته الفنية ، وفرض شخصيته الخاصة عليها ، وكانت نتيجة ذلك الإلياذة » .

---

(١) G. M. Bowra, Tradition and Design in The Iliad, P. 1.

(٢) المصدر السابق ص : ٢ .

(٣) المصدر السابق ص : ٤٨ .

(ب و ج) ثنائية التأليف وتعدّد التأليف :

وقد آثرنا أن نجمع هذين الافتراضين معاً لتداخلهما وتشابكهما وصعوبة الفصل بينهما كما سيبدو بعد قليل .

لقد ذكرنا آنفاً أنه كانت ثمة نظريتان عن القصيدتين الهوميريتين ، ولكن إحداهما كانت قد اندثرت فى الواقع ، فسادت النظرية التقليدية بلا منازع خلال العصور حتى القرن الثامن عشر الميلادى ، حينما قام فردريك أوغست ولف F. A. Wolf فى ألمانيا ودرس القصيدتين دراسة نقدية دقيقة ، وأخرج سنة ١٧٩٥ كتابه « المقدمة Prolegomena »[١] عرض فيه نظريته الشهيرة[٢] . وبالرغم من منزلة ولف فى عالم الدراسات القديمة « الكلاسيكية » ، وبالرغم من شهرة نظريته وذيوع صيتها ، فقد ذهب العلماء فى فهمها ودرسها مذاهب مختلفة ، بل إن تلامذة ولف حين أخذوا يوسّعون نظريته ويفصلون ما أجمل ، اختلفوا فيما بينهم وسلكوا طريقين متباينين بل طرائق متعددة . فالدكتور ر . س . جب يورد لنا الأسس التى حاكم عليها ولف القصيدتين ، ثم يصف لنا هذه النظرية بقوله[٣] : « ومع ذلك فقد كان وُلْف أبعد ما يكون عن إنكار وجود شخص هومر ، فهو يفرض أن شاعراً ذا موهبة ممتازة ، ويسميه فى أكثر الأحيان هومر ، "بدأ نسج القماش واستمر فيه إلى أمد معلوم" ، بل ذهب إلى أكثر من ذلك حينما قال : " نسج هومر القسم الأكبر " من الأغانى التى جمعت بعدُ فى الإلياذة والأوديسة . هذا ما قاله ولف فى كتابه المقدمة بل لقد قال هذا القول فى صورة أوكد فى مقدمة طبعته للإلياذة التى طبعت فى نحو الوقت نفسه . قال : "لاريب

---

(١) مقدمة ولف التمهيدية Prolegomena كتاب صغير صفحاته ٢٨٠ من قطع الثمن وقد طبع فى Halle سنة ١٧٩٥ .

(٢) وجد قبل ولف علماء درسوا القصيدتين الهوميريتين وكانت لهم آراء جزئية يصح أن تعد إرهاصات لنظرية ولف ، ولم نجد حاجة لعرضها ، وقد ذكرها الدكتور جب فى كتابه عن هومر ص ١٠٥ — ١٠٧ .

(٣) Jebbe, Homr, P. 109 - 110,

أنَّ النسج قد بدئ به فى الإلياذة والأوديسة على السواء ، وقد استُمِر فى ذلك إلى أمد معين ، وقام بذلك الشاعر الذى فكر فى هذا الأمر ابتداءً . وقد يكون من المستحيل أن نبين ، ولو بالفرض الممكن ، الحدود الدقيقة التى تبدأ عندها الخيوط الجديدة والزيادات الدخيلة ؛ ولكن هذا سيثبت على الأقل — إن لم يجانبنى الصواب — أنه لا بد لنا من أن ننسب إلى هومر وحده القسم الأكبر من الأغانى ، وأن ننسب الباقى إلى جماعة الهومريين الذين اقتفوا أثره " » .

بينما نجد الدكتور وليم د . جديس William D. Geddes يصف لنا نظرية ولف وصفاً يُفْهَم منه ما يختلف عن وصف جب ، قال جديس [١] : « أثار ولف أولاً هذا السؤال : أهومرٌ واحدٌ أو حتى هومران اثنان كافيان لخلق القصيدتين الهومريتين ؟ أوَلسنا بحاجة إلى مجموعة من الهومريين ننسب إليهم قصيدتين فى مثل هذا الاتساع فى عصر بدائى؟ ومن هنا قدّم نظريته الشهيرة فى " المقدمة " وهى أن هومر لم يكن شاعراً واحداً ، كما يرى العرفيون أو التقليديون ، ولم يكن كذلك شاعرين اثنين ، ولكنه كان اسماً تاريخيًّا يطلق للدلالة على الجهد أو النشاط الشعرى فى العصر الملحمى المبكر ، ويشمل مجموعة من الشعراء لا شاعراً فرداً » .

ومن هنا نستطيع أن نستبين صدق وصف جب لنظرية ولف بالمرونة فى قوله [٢] : « إن الأثر الدائم لعمل وُلْف لا يعود إلى القوة التى صيغت بها نظريته حسب ، بل أيضاً إلى مهارته فى الهروب من جعلها دقيقة محكمة . إن إحساسه الأدبى الذى أدرك المزايا الداخلية التى جعلت كل ملحمة وحدة عامة ، خفف من حدة استخدامه للأدلة والمناقشات الخارجية . فهو لم يحاول أن يحدد تحديداً دقيقاً القدر الذى نظمه الشاعر الأصلى ، وأين يبدأ عمل الشعراء

---

(١) The Problem of The Homeric Poems, P. 7-8.

(٢) Jebb, Homer, P. 117 f.

الآخرين، وكيف يختلفون . ومن هنا كانت لفظة « الولفية » مرنة مطاطة تشتمل على ظلال آراء مختلفة متعددة . لقد طُبِّقت أحياناً فى أضيق الآماد ، وأحياناً أخرى فى أوسعها وأرحبها . إن النظرية الولفية الخاصة المميَّزة لا تعدو أن تكون ما يأتى : إن القصائد الهومرية جمعت ، فى بداية العصر الأدبى عند الإغريق ، من أغانٍ وأناشيد قصيرة غير مكتوبة تحدرت من عهد بدائى . أمَّا كم من هذه الأغانى القصيرة نحسّ أنها من نظم شاعر واحد فأمرٌ ثانوى فرعى . إن رأى ولف ، كما رأينا ، هو أن الشاعر الذى بدأ مجموعة الأغانى قد نظم أكثرها أيضاً ، وأن الشعراء التالين له واصلوا السير فى حدود الخطوط العامة لعمله » . ثم يقول جب : « لقد اتجهت التطورات الأصيلة لنظرية ولف فى اتجاهين عامين : أحدهما إظهار أثر الشاعر الأول من مجموعة الشعراء أقل مما صوره ولف — ويمثل هذا الاتجاه لاخمان Lachmann . وأما الثانى فإظهار أثره أقوى وأشد — ويمثل هذا الاتجاه هرمان Hermann » .

أما لاخمان فقد « قسم الإلياذة إلى ثمانى عشرة أغنية منفصلة . ويشيع فى نفوسنا الشك ، ويوحى إلينا أنها تعزّى إلى ثمانية عشر ناظماً . وأيًّا كان الأمر فهو يرى أن كل واحدة من هذه الأغانى كانت فى أصلها مستقلة استقلالا ما عن الأخريات . وميزانه الرئيسى هو تناقض التفصيلات والجزئيات . . . ثم يؤكد أيضاً أن كثيراً من الأغانى تختلف اختلافاً كاملاً فى روحها العامة » .

وأما هرمان فقد طوَّر نظرية ولف بما يتفق مع روح ولف . ويدرك هرمان صعوبة واحدة تركها ولف غير مفسرة ، فقد قال ولف : « إن نسج القماش الهومرى قد بدأه الشاعر الأول الرئيسى الذى واصله إلى حد معلوم ، ثم أتمه آخرون » . ولكن لماذا لم يواصلوه إلا فى هذه الحدود الضيقة ؟ ولماذا حصروا أنفسهم فى نطاق أيام معدودات من حصار طروادة ؟ ولماذا لم يغنُّوا لعودة بطل آخر غير أوديسوس ؟ يجيب هرمان عن ذلك بقوله : لأن الشاعر البدائى العظيم « هومر » لم يكتف بأن يواصل نسج الخيط إلى حد معلوم ، بل رسم التخطيط العام

لإلياذتنا والتخطيط العام لأوديستنا ، مستخدماً المواد الأولى أوسع استخدام . ولم يكن عمل التالين أن يواصلوا نسج خيط فى النسيج ، بل أن يتموا التخطيط داخل نطاق ثابت معلوم .

فنحن نرى إذن أن الفكرة الأساسية التى شاعت عند ولف والولفيين الحقيقيين مثل لاخمان وهرمان هى أن هومر كان شاعراً بدائيًّا نظم أغانى قصيرة غير مكتوبة ذات وحدة مترابطة ، ولكنها لم تبلغ منزلة الملحمة الكاملة ، حتى جاء بعده من أتمها وأوصلها إلى منزلة الملحمة . وقد كان لهذه النظرية رد فعل ، فقام من العلماء الدارسين من ذهب مذهباً يختلف فى جوهره عن مذهب ولف وتلاميذه ، وهو يعتمد فى أساسه على أن هومر ليس مغنياً بدائيًّا وإنما هو ذلك الفنان الشاعر العظيم الذى جاء بعد عهد الأغانى القصيرة فصاغ ملحمة ذات آماد واسعة ، فهو بذلك منشئ ما يسمَّى بـ Epopee . وسنشير إلى ثلاثة ممن ذهبوا هذا المذهب فى جوهره وإن اختلفوا فى بعض أجزائه . أولهم[1] : نيتش G.W. Nitzsch . وهو يرى أن قصائد Cyclic Epics التى انحدرت إلينا من القرنين السابع والثامن قبل الميلاد توحى بأن الإلياذة والأوديسة بمعالمهما الحاضرة وصورتهما قد سبقتا هذه القصائد ، وأن هذه القصائد قصد منها أن تكون ملاحق أو مقدمات تمهيدية للقصيدتين الهومريتين . ويقول نيتش عن هومر : « إننى أعنى بهومر ذلك الرجل الذى ارتقى بتلك الأغانى القصيرة المتعددة التى نظمها الشعراء المغنون القدامى عن الحرب الطروادية ، وصاغ الإلياذة — التى كانت فى أصلها تتحدث عن "مجلس زيوس" حسبُ — فجعلها الإلياذة التى نعرفها والتى تقص قصة "غضب أخيل" » . وهكذا يرى نيتش أن هومر شاعر قديم جداً ، وهو جدير بأن تؤرخ به بداية عصر . وأنه وجد عدداً من الأغانى القصيرة عن طروادة ، فأتم عملاً ذا صبغة جديدة ، وذلك بأن أقام — مستعيناً بهذه الأغانى — ملحمة كبيرة تقص غضب أخيل . وقد حدثت بعد ذلك تغييرات ومنحولات

---

(١) جب ، هومر : ١٢١ — ١٢٥ .

فرعية ، غير أن الإلياذة التى نعرفها فى أغلبها نظمُ شاعر واحد ، والأوديسة التى نعرفها ربما نظمها الشاعر نفسه ؛ وأن هاتين القصيدتين قد استقرت صورتهما الحاضرة — فى جوهرها — قبل سنة ٨٠٠ ق . م بزمن غير قصير .

وثانيهم : جروت Grote وهو متفق مع نيتشى فى جوهر رأيه القائم على أن هومر ينتمى إلى الطور الثانى من أطوار الشعر البطولى لا إلى الطور الأول ، أى أنه ناظم ملحمة كبيرة لا قصائد بدائية ذات أغان قصيرة . غير أنه يرى أن الإلياذة التى بين أيدينا خرجت عن نطاق القصيدة الكبيرة كما نُظمت فى الأصل وزادت عليه . لقد كانت تلك القصيدة الأولى عن غضب أخيل ، ولذلك فقد كانت أخيلية An Achilleid ، ثم عمد شاعر آخر أو شعراء إلى تحويلها إلى قصيدة تقصّ قصة الحرب الطروادية عامة ، فصارت الإلياذة . لقد أضيفت إليها قصائد غنائية كاملة لا علاقة لها بالأخيلية الصرفة ولكنها تعترضها أو تطيلها .

والثالث : جديس William D. Geddes . وقد ألف كتاباً[1] «يشتمل على بحث واسع شامل فى قصيدتى هومر العظيمتين ، والهدف منه أن نوضح ، من الأدلة والبراهين الداخلية وحدها ، علاقة كل من القصيدتين بالأخرى وترابطهما — إن استطعنا» . ثم يقول جديس : « وقد انتهى بى البحث — بطريق الأدلة وحدها غير متحيز لآراء سابقة — إلى أن أقبل رأى جروت Grote فى بناء الإلياذة المركب (الثنائى) ، فهو الرأى العلمى الوحيد الذى ينال قبولاً . فى تلك القصيدة تأليف مزدوج (ثنائى) ، والأخيلية Achilleid فى الإلياذة هى النواة ، وقد نظمها شاعر آخر غير الشاعر الذى نظم القشور التى تحيط بها ، وأعتقد أن الحقائق تشير إلى هذا الرأى فى وضوح وبيان . وإنى أبيح لنفسى أن أزعم أنى قد قدمت أدلة جديدة تثبت صحة رأى جروت ونفاذ بصيرته فى النقد . وقد تتبعت هذا الموضوع بعد المرحلة الابتدائية التى خلفه فيها جروت ، ووجدت اتصالاً

---

(١) اسم كتابه : The Problem of The Homeric Poems ، وقد طبع فى مطبعة مكملان فى لندن سنة ١٨٧٨ وانظر ص ٣ إلى ٤ من المقدمة .

وثيقاً بين الأوديسة والأجزاء غير الأخيلية من الإلياذة ، ووجدت أن الأدلة تتجه اتجاهاً ملحوظاً إلى ربطهما كليهما بهومر الواحد الشخصى الذى تذكره الروايات».

وربما كان خير ما نعقب به على هذه الآراء المتباينة والنظريات المتضاربة ما أورده جديس نفسه فى كتابه بعد أن عرض وجوه الرأى المختلفة قال[1] : « يبدو لنا من هذا العرض العام للميدان أن معركة النقد كانت سجالاً ، وما زالت الجيوش فى المعسكرات عاجزة عن استدراج خصومهم من خنادقهم . فنحن نرى ، من جانب ، صفًّا من النقاد يدّعون وحدة التأليف ، ويرون أن الاختلافات والفروق إنما هى شكلية خارجية عارضة يسهل تفسيرها وإرجاعها إلى وسيلة النقل والرواية ، وهى لذلك ليست جوهرية . ونرى ، من جانب آخر ، صفًّا معادياً من النقاد مساوين لخصومهم فى العلم والحذق ، وأكثرهم فى ألمانيا ، يتجهون إلى تعدد التأليف ، فكل قصيدة — كما يرون — مجموعة ملفقة ليس فيها ترابط أصيل ، فالفروق والاختلافات إذن جوهرية لا يمكن اجتنابها . وفى مكان سُوّى بين هذين ، وتحت وابل رصاصهما كليهما ، يقف صف مشرد ضالّ شيئاً ما ، هو صف الانفصاليين الذين يرون أن كل قصيدة مفردة ذاتُ وحدة ولها ناظم غير ناظم الأخرى . والداعون إلى الوحدة فى الأصل والتأليف يعارضون الولفيين الداعين إلى تعدد الأصل والتأليف ، بينما يتلقى الداعون إلى ازدواج الأصل والتأليف (الثنائية) الهجوم منهما كليهما . . » وكلما مضى المرء فى تتبع دراسات العلماء عن القصيدتين الهوميريتين ، وأمعن فى الغوص فى أعماق أجزاء الدراسة وتفصيلاتها ، لم يسعه إلا أن يتذكر رأى سنيكا Seneca الذى أعلنه منذ عشرين قرناً حين رأى النقاد يتدارسون هاتين القصيدتين ويبحثون أصلهما وتأليفهما ؛ فقد كان يرى أن هذه الدراسة أمر يتطلب حذقاً ومهارة ولكنه حذق غير منتج ومهارة غير مُجدية[2] .

---

(١) المصدر السابق : ١٠

(٢) جب ، هومر : ١٠٣ — ١٠٤

٣

وسيلة حفظ الشعر الهومرى : الرواية الشفهية أم الكتابة ؟

وقد اختلف الدارسون فى هذا الموضوع كما اختلفوا فى سابقه ، وإن كانت شقة الخلاف هنا بطبيعتها أضيق . فقد ذهب بعضهم إلى أن القصيدتين الهوميريتين لم تدوَّنا إلا بعد نظمهما بقرون طويلة ، بينما ذهب فريق آخر إلى أنهما دُونتا منذ أن نُظمتا . فمن الفريق الأول : يوسيفوس Josephus — فى القرن الأول الميلادى — وهو أقدم من نعرف ممن ذهب هذا المذهب فقد قال[1] : « لا يمكن أن يكون الإغريق قد عرفوا فى حرب طروادة هذا الاستعمال الحديث للكتابة الهجائية . ولم يكن للإغريق أدب قبل هومر ، وهومر عاش بعد الحرب . ويقولون إنه حتى هومر نفسه لم يدون شعره كتابة ، ولكن هذا الشعر كان ينتقل بالرواية الشفهية ، ثم جُمع جمعاً من الأغانى المبعثرة ؛ ومن هنا نشأت هذه الفروق التى تبدو لنا » .

ومن هذا الفريق أيضاً روبرت وود Robert Wood[2] — فى القرن الثامن عشر — وله كتاب : Essay On The Original Genius Of Homer . وقد بحث فى أحد فصول كتابه هذا معرفة هومر للكتابة . وقد خلص من بحثه إلى أنه لم يكن يعرفها . ووود هو أول من بحث هذا الموضوع بحثاً نقدياً . وقد قرأ ولف فى عهد طلبه العلم فى جوتنجن مقالَ وود ، وهو يشير إليه فى مقدمته التمهيدية Prolegomena مثنياً عليه . وكان لهذا المقال أكبر الأثر فى ولف ، بل لقد صار رأى وود فى الكتابة مفتاح نظرية ولف .

---

(١) جب ، هومر : ١٠٥ .

(٢) المرجع السابق : ١٠٧ . .

وثالث هذا الفريق هو رأس النقاد : ولف F.A. Wolf. (المولود سنة ١٧٥٩)[١] فقد ذهب فى كتابه « المقدمة » إلى أن القصيدتين الهومريتين قد نُظمتا من غير معونة الكتابة ، إذ أن اليونانيين كانوا حتى عام ٩٥٠ ق . م يجهلون الكتابة جهلاً تامًّا ، أو أنهم لم يستخدموها لتقييد الأعمال الأدبية. وهو يرى أن القصيدتين قد نُقلتا فى خلال قرون طويلة بالرواية الشفهية ، فتعاورتهما تغييرات كثيرة عمد إلى بعضها الرواة عمداً وجاء بعضها مصادفة ، وأنهما لم تدونا إلا فى نحو سنة ٥٥٠ ق . م .

أما الفريق الثانى الذى ذهب إلى ترجيح تدوين القصيدتين منذ عهد قديم وربما منذ نَظْمِهما ، فأقدم رجاله : ديودور الصقلى فى القرن الأول قبل الميلاد . فهو يرى أن الشعراء الذين سبقوا هومر قد عرفوا الكتابة واستخدموها فى كتابة أشعارهم[٢] ؛ ويقول إن الشاعر لينوس Linus — وهو الذى اكتشف الأوزان الموسيقية والنغمات — كان أول من أدخل الحروف الهجائية الفينيقية إلى اليونان ، وأن هذا الشاعر كتب بهذه الحروف أعمال ديونيس والأساطير الأخرى ، وبهذه الحروف نفسها كتب أورفيوس وبرونابيدس وهو أستاذ هومر . . .

ومن هذا الفريق أيضاً نيتش G.W. Nitzach[٣]، وهو يمثل أول رد فعل ذى أثر ضد النظرية الولفية ، فقد أظهر أن استخدام الإغريق للكتابة كان أقدم مما ادعى ولف ، وأنها قد تكون استخدمت لتعين الحافظة قبل أن يكون هناك جمهور قارئ بوقت طويل .

وثالث هذه الطائفة : كرايست W. Christ[٤] الذى يذهب إلى أن الإلياذة قد كتبت قبل عهد بيزيزتراتوس ولكنها لم تدون مجموعةً كاملة ، بل كتبت فى

---

(١) جب ، هومر : ١٠٨ .

(٢) Thomas W. Allen, Homer : The Origins and The Transmission, P. 133.

(٣) جب — هومر : ١٢١ .

(٤) المرجع السابق : ١٢٨ .

صورة هذه الأغانى المنفصلة ، وبعناوين وأسماء منفصلة مختلفة ، وبيزيزتراتوس هو أول من جعل هذه المجموعة تدون فى صورة كلٍّ موحد منظم .

وممن يصح أن يكون من هذا الفريق عالمان حديثان لا يقطعان قطع اليقين فى هذا الموضوع ولكنهما يعرضانه عرضاً شاملاً لوجوه النظر المختلفة فى حيطة وحذر ، ثم يخلصان إلى ترجيح كتابة القصيدتين منذ أقدم العهود . أولهما الدكتور جب .R,C. Jebb[1] . وسنبسط رأيه بعض البسط إذ أنه يعرض لوجوه من الرأى ذات قيمة كبيرة فى بحثنا الأصلى عن الشعر الجاهلى . يرى جب أن الفرض الأساسى فى نظرية ولف هو إنكار أن الكتابة الأدبية كانت محتملة الوجود عند الإغريق فى نحو سنة ٩٥٠ ق . م . ثم يقول : ومهما يكن من أمر فإن هذا الفرض ليس ثابتاً مؤكداً كما اعتقد ولف ، وجدير بالعناية أن نلحظ النقاط التالية :

١ — حقاً إن الشواهد الباقية من النقوش لاترجع إلى أقدم من القرن السابع قبل الميلاد ، غير أنه لا يصح أن نزعم أن استخدام الكتابة على الآثار والنصب سبق استخدامها فى الشئون العادية . بل إن الفرض المضاد أقرب إلى الصواب . وإذا كانت الكتابة الإغريقية على أقدم أنواع الرخام الباقى غير متقنة فإن ذلك لا يدل بالضرورة على أن الإغريق لم يكونوا حينذاك يعرفون فن الكتابة ، بل يدل على أنهم لم يكونوا قد حذقوا نقش الحروف على الحجارة ، وقد يكونون — قبل ذلك بزمن طويل — قد حذقوا الكتابة على مواد ألين وأطرى وأسرع إلى الفناء والضياع : كأوراق الأشجار والرق والخشب والشمع .

٢ — إن التبادل التجارى بين الإغريق والفينيقيين — ومنهم اقتبس الإغريق حروف الهجاء — لا بد أنه كان شائعاً منذ نحو ١١٠٠ قبل الميلاد ، بل قبل ذلك . والفينيقيون — كما يشهد يوسيفوس — قد استخدموا فن الكتابة منذ أقدم الأزمنة لا لتسجيل أعمالهم العامة حسبُ بل أيضاً فى شئون حياتهم اليومية . وإنه

---

(١) المرجع السابق : ١١٠ — ١١٥ .

ليكون عجيباً لو أن شعباً له من سرعة الخاطر ما لليونان — فى تقدمه وسبقه فى جميع ضروب الحضارة — قد تأخر عن اقتباس هذا المثل إلى زمن متأخر نسبيًّا فى تطوره وتقدمه — أى إلى القرن السابع قبل الميلاد .

٣ — ونحن نعلم أيضاً أن قصائد بطولية طويلة — بعضها معروف باسم Cyclic — لم يتح لها من الانتشار ما أتيح لهومر ، قد نُقِلت إلينا من القرن الثامن قبل الميلاد . ومن غير المحتمل أن تكون هذه القصائد المجهولة نسبيًّا قد حُفظت من غير عون الكتابة . ومن هذه القصائد : The Cypria المنسوبة إلى Stasinus و The Aethiopis المنسوبة إلى Arctinus . ومن المؤكد أن الشاعر Archilochus وشعراء القرن السابع ق . م الآخرين قد استخدموا الكتابة . وولف نفسه يعترف حقًّا بأن الشعراء كانوا أحياناً يستخدمون الكتابة منذ زمن مبكر يرجع إلى سنة ٧٧٦ ق . م .

٤ — إن الاحتمالات ترجح الرأى القائل إن « العلامات المؤذية — Baneful Tokens » الواردة فى الإلياذة (٦ : ١٦٨) تشير إلى ضرب من حروف الهجاء أو الكتابة الهجائية . وحتى لو سلمنا بأنه لم ترد أية إشارة إلى الكتابة فى الإلياذة والأوديسة ، فإنه ليس ثمة دليل سليم يصح أن يستنتج من إغفال الشعر البطولى — المقصود للرواية والإنشاد — هذا الأمر إغفالاً قد يكون تقليديًّا متفقاً عليه.

٥ — ويفرض هيرودوتس ، حينما يتحدث عن النقوش الإغريقية التى رآها فى طيبة Thebes أنها ترجع إلى عدة قرون قبل زمنه . ويشبه هذا الاعتقاد بقدم الكتابة عند الإغريق قدماً سحيقاً ما نجده فى الأدب اليونانى فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد .

٦ — إن الأبحاث الحديثة فنَّدت الرأى القائل بأن القصيدتين لا بد أنهما نظمتا منذ زمن طويل يسبق تدوينهما لأنهما تستعملان ، فى أحيان كثيرة ، صوتا هو Digamma لا يُعرَف بأنه كان يصوَّر فى حرف فى أية مخطوطة قديمة لهومر .

٧ ــ إن فكرة « الاستخدام الأدبى للكتابة » تحتاج إلى تعريف وتحديد . فإذا كان المقصود بها « انتشار الكتابة انتشاراً واسعاً فى عدة نسخ لقراءة الجماهير » فمما لا ريب فيه أنه لا يبدو أن شيئاً من هذا القبيل قد وُجد قبل القسم الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد . ولكن لنفرض أن رجلاً نظم عدداً من أبيات الشعر فى مخيلته وخشى أن ينساها ، فإذا كان يستطيع أن يستخدم « العلامات الفينيقية » استخداماً مجدياً ليحفظ حساباته مثلاً أو مذكراته الأخرى ، فلماذا لا يحفظ بها أبيات شعره ؟ ذلك هو حقاً ما قصده ولف حينما أجاز أن بعض الناس استخدم الكتابة لمثل هذه الأغراض منذ سنة ٧٧٦ ق . م . وربما لم يكن أحد يستطيع قراءتها إلا الشاعر نفسه أو أولئك الذين خلقها لهم خاصة . ومع ذلك فإنه يكون قد أفلح فى مأربه ووصل إلى غايته .

والخلاصة أنه لا بد لنا من أن نفرق ــ وفقاً للنظرية الولفية ــ بين ثلاثة أمور تعتمد على احتمالات متفاوتة الدرجة وهى : النظم فى الذاكرة Memorial Composition ، والنشر الشفهى Oral publication ، والنقل عن طريق الرواية الشفهية Oral Transmission .

(ا) أما النظم فى الذاكرة فإنه من التسرع أن ننكر أن رجلاً ذا موهبة خارقة يستطيع أن ينظم الإلياذة والأوديسة من غير عون الكتابة . . .

(ب) أما النشر الشفهى فلا ريب أن القصيدتين الهوميريتين قد عرفهما اليونانيون قروناً طويلة فى الغالب عن طريق إنشاد أجزاء متفرقة منهما .

(حـ) غير أن العقبة الكأداء تنشأ من نظرية الحفظ والنقل الشفهيين حسب . إن هذه العقبة لا تتصل فى أصلها بقدرة الحافظة البشرية ؛ إن الصعوبة الحقة هى أن حفظ هذه الأعمال الضخمة ونقلها ــ حفظاً ونقلاً قريبين من الدقة والضبط ، عن طريق الرواية الشفهية ، خلال القرون من غير عون الكتابة إنما يتطلب تنظيماً وتدبيراً ، لا أثر لهما ولا دليل عليهما عندنا . وأقرب شبيه بذلك يمكن استحضاره للذهن (كما فى الهند) يتضمن أصولاً دينية أو كهنوتية .

وينبغى أن نتصور وجود رجال كهنوت هوميريين أو زملاء تكون حياتهم من جيل إلى جيل موقوفة على هذا العمل . غير أن فكرة كهذه غريبة عن الروح الحرة التى تطورت فيها الحياة والفن عند الإغريق ، ولا يتفق ذلك أيضاً مع ما نعرفه من أمر الرواة والمنشدين المتجولين .

إن النتيجة العامة إذن هى : لا يمكن إثبات أن القصيدتين الهوميريتين لم تُكتبا سواء حينما كانتا فى أصلهما تُنظمان أم عَقِبَ ذلك . ولقد عرفهما العالم الإغريقى مدة قرون فى الغالب عن طريق أفواه الرواة والمنشدين ، ولكن ذلك لا ينفى أن الرواة والمنشدين كانوا يقتنون نسخاً مكتوبة . . .

ذلك هو رأى جب عرضناه عرضاً وافياً لتستبين لنا أطرافه ، وسنختم حديثنا عن كتابة القصيدتين الهوميريتين بعرض رأى باورا فى هذا الموضوع عرضاً لا يقلّ عن عرضنا لسابقه بسطاً وبياناً . بدأ باورا بحثه بسؤاله : هل يدين هومر ، بطريقةما لاستخدام الكتابة ؟ ثم مضى يجيب بقوله[1] : لا ريب أن شعراء الملاحم فى القرون الوسطى قد استخدموا الكتابة ، وهم مدينون لها بمعرفتهم الصور السابقة للقصص التى استخدموها ، وقد حفظوا نتاجهم بتسجيله كتابة . ولكن الأمر ، فى حالة هومر ، غامض والأدلة ضئيلة . لقد وُجدت الكتابة فى بلاد اليونان منذ زمن مبكر ، ولو أننا استثنينا العصر الميسينى Mycenean Age ، فإننا ما نزال متأكدين من أنها استخدمت فى القرن السابع ، وربما الثامن . فالنقوش على Thera ترجع إلى تاريخ مبكر جداً ، ولم يأت القرن السابع حتى شاعت الكتابة على الأوانى . وقوائم إفورس السبارطية The Spartan lists of Ephors ترجع إلى نهاية القرن التاسع . والقوانين التى سنّها الرجال مثل Charondas, Zaleucus تتضمن وجود قوانين مكتوبة فى الشطر الأخير من القرن الثامن . ومع أن الكتابة قد وُجدت على عهد هومر ، فمن الجائز أنها لم تكن شائعة عامة ، أو أنها لم تكن تُستخدم على مدى واسع لتسجيل نتاج طويل مثل الإلياذة . . . وهومر نفسه

(١) Tradition and Design in the Iliad, P. 48-51.

لا يدلنا على شيء ، وفى الموطن الوحيد الذى يشير فيه إلى الكتابة يغلّف إشارته بالغموض . وربما شعرنا حقًّا أن ملحمة طويلة مثل الإلياذة لا بد أنها كتبت لأن حفظها يؤود المرء . وقد اعتمد ولف على هذه الفكرة اعتماداً كبيراً ، وهى تحتل مقاماً كبيراً فى « المقدمة » . ولكن الأبحاث الحديثة فندت رأيه ؛ فإن الرجال الذين لم تتعلم ذاكرتهم الاعتماد على الكتب يستطيعون أن يتذكروا قدراً ضخماً من الشعر ، وقد وُجد بين معاصرى Xenophon من حفظ الإلياذة والأوديسة معاً . ونجد لعهدنا هذا من وصل إلى هذه المرتبة بل من زاد عليها . وبعد أن يضرب باورا على ذلك بضعة أمثلة يمضى فى قوله : والإلياذة يصحّ ، للنظرة الأولى ، أن تكون من الشعر المكتوب ، ويصحّ أن تكون من الشعر المروىّ . ويمكن أن تُدعّم كل من هاتين النظريتين فى أساسها بالأدلة ، ويكاد يكون من المستحيل تغلب إحداهما على الأخرى . ثم يقول : ولا بد ، فى البدء ، من التمييز بين الشعر الذى يكتب لفائدة الشاعر نفسه حسبُ ، والشعر الذى يكتب ليقرأه الناس . وكثير من الشعر الذى قُصد منه أن يُنشد ويُروَى كان يُكتب ، ليكون فى كتابته عون للشاعر المغنّى على الامتداد والطول اللذين لا يحتملان . فمخطوطة « أغنية رولاند » المحفوظة فى أكسفورد ليست إلا نصًّا كان يحمله شاعر مغنّ ويستخدمه لإنعاش ذاكرته . بينما يبدو أن المخطوطة الوحيدة الباقية من « بيوولف » كان يُقصَد منها أن يقرأها العلماء . . . ومن الواضح أن الإلياذة لا تنتمى إلى هذا الضرب الثانى ، فهومر لا يذكر شيئاً عن قراءة الكتب ، وجميع فنّه خاضع لضرورات الإنشاد ؛ ولكن من الجائز أنها تنتمى إلى الضرب الأول ، والحق أنها تبدو كذلك لأسباب مرجّحة . فالقصيدة بناؤها وشكلها كما أرادهما الشاعر ، ومن البعيد أن يستطيع إضفاء هذا الانسجام والوحدة عليها لو أنه نظمها فى ذاكرته وعقله . فترابط المشاهد المختلفة ، وما فى القطع التالية من صدى القطع السابقة ، واتصال الحكايات المنفصلة فى ظاهرها ، كل ذلك يبدو أنه لا يمكن تعليله لو أن الشاعر لم يكن بين يديه كتابه ، ولم يستطع الرجوع إليه كلما احتاج ، أو ليعيد النظر فيما كتب . حقًّا إن ملتون نظم « الفردوس

المفقود » فى عقله وذاكرته واستطاع مع ذلك أن يجعلها رائعة من الروائع ؛ ولكن مع أنه لم يكن يقرأ فإن الكلمات كانت تكتبها بناته ، وكان يستطيع الرجوع إليها كلما أراد . ومع ذلك فإنه من الجائز أن ذاكرةً أحسنَ تمرينها وتدريبها تستطيع أن تستغنى عن المخطوطة ، ومن الجائز كذلك أنه كانت لهومر مثل هذه الذاكرة. وهكذا نجد أن الجدل حول هذا الموضوع — على إغرائه — غيرُ مفضٍ إلى نتيجة . فلم تكن الإلياذة ذات التحام وثيق مثل الكوميديا الإلهية ، ولكن يمكن أن يقال إن سبب ذلك لم يكن لأنها لم تُكتب على الورق . وترجيح أنها قد كتبت يقوّى حين نقارنها بالملاحم التى لم تكتب ولكنها نظمت فى ذاكرة الشاعر ونقلت بالرواية ... غير أن خصائص هذه تختلف عن طبيعة الإلياذة... ثم يمضى باورا فى حديثه إلى أن يقول : ولا قيمة للحجة التى يُدلَى بها ضد تدوين الإلياذة ، وهى : أن النص فى القديم كان ذا قراءات مختلفة . فطرق الحكاية الهومرية تجعل من السهل الخطأ فى الاقتباس . ومع ذلك فأى نص قديم عرضة للفساد والإقحام ، إن لم يكن أيضاً عرضة للتزيد والتوسع . وخطة الإلياذة الحاضرة تنفى فكرة التزيد والتطويل . . . ولكن لا شك أنه كان ثمة إقحام وإضافات ، فالأبيات التى تذكر مدينة أثينا عدها القدماء مقحمة أضافها صولون أو بيزيستراتوس ليسوّغا دعوى الأثينيين فى ميجارا Megara . وثمة رواية فيها أن سيناثيوس Cynaethus الشاعر الجوال تصرف بالنص وأضاف إليه أجزاء من نظمه . ولكن هذه الحقيقة وحدها ، وهى أن هذه الإضافات قد اكتشفت وأشير إليها ، تبين أن النص كان معروفاً ويستطاعُ الرجوع إليه ؛ ولو لم يكن مكتوباً لكان من المستحيل تقريباً معرفة أية زيادة أو إقحام . وما يُسمَّى انسياب النصّ وتدفقه حقيقة واقعة لا شك ، ولكنها لا تدل على أن الإلياذة فى أيامها الأولى كانت قصيدة تُحفظ فى الذاكرة وتوجد فى صور متعددة من نسخ مختلفة جداً ؛ وإنما تدل على أن روايتها المخطوطة المكتوبة كانت — كما هو الشأن فى القصائد المبكرة الأخرى — غير دقيقة وعرضة للتحريف والفساد .

ثم يمضى باورا فى حديثه فيقول : وتمتد جذور الصعوبة إلى موقف هومر

نفسه من الكتابة ، فأبطاله لا يكتبون ولا يقدرون على الكتابة ، وحينما اقترعوا ليقرروا من يحارب هكتور وضع كل منهم علامته على سهمه ورماه فى القلنسوة ، ولكن لم يكن أحد يعرف غير علامته وحدها . وينتج من ذلك أنه لم يكن لديهم نظام مشترك للكتابة . غير أن هومر يميز وجود الكتابة فى قصة Bellerophon ، ففيها ذكر للكتابة ولكن هومر يلفها بألفاظ غامضة مبهمة . . . وليس فى الإلياذة ، سوى ذلك ، ذكر للكتابة . والنتيجة التى يمكن الوصول إليها هى أن الكتابة وُجدت ، غير أن جمهور هومر ومستمعيه لم يهتموا بها وعدوها أمراً شاذاً . أما الشاعر نفسه فربما كانت حاله مختلفة عن ذلك . إذ لعله كان قد تعلم الكتابة من حيث هى سر من أسرار صناعته وكان حريصاً على ألا يكشف السر لجمهوره . وهذا الاحتمال يفسر غموض لغته وإبهامها فى الموطن الوحيد الذى ذكرت فيه الكتابة ، فسواد الناس يجب ألا يعرفوها ، وحينما لا يكون بدٌّ من ذكرها ، فيتجنَّبُ الوصفُ الواضح الدقيق .

ويرى باورا أن هذه الدلالات ، على ضآلتها ، ترجح أن هومر كان يكتب ، ولكنه كان يكتب لفائدته هو ولاستعماله الشخصى لا من أجل أن تُقرأ قصيدته . ففن الإلياذة جميعه يدل على أنه قصد منها أن تُنشد وتُرْوَى ، لا لتحفظ فى المكتبة ؛ وهذه الحقيقة كما سنرى ، توضح لنا بعض ملامحها الكبرى . فلا بد أن تختلف القصيدة المروية فى طبيعتها وخصائصها عن القصيدة التى تُقصد للقراءة . . . وهكذا نجد آخر الأمر أنْ لا قيمة كبرى لسؤالنا : هل كتب هومر أو لم يكتب ؛ وإنما الأمر المهم هو أنه نظم قصيدته للرواية والإنشاد . وسواء أنظمها وهو يكتب على الورق أم نظمها فى ذاكرته وعقله فذلك لا يؤثر فى طبيعة القصيدة كما هى بين أيدينا .

٤

المدارس التى عُنيت بهومر :

ونحن مستطيعون أن نقسم هذه المدارس من حيث الزمن إلى ثلاثة أطوار : أولا : ما قبل العصر الإسكندرى . ثانياً : العصر الإسكندرى . ثالثاً : ما بعد العصر الإسكندرى .

(ا) ما قبل العصر الإسكندرى :

لم تكن العناية بهومر وقصيدته قبل العصر الإسكندرى عناية نقدية علمية ، وإنما كانت على ضروب شتى من التناول اليسير الخفيف ، فهى حيناً إشارة عابرة إلى هومر وشعره الملحمى ، وهى حيناً ثانياً اقتباس لبعض الأبيات أو المقطوعات من ملحمتيه ، وهى حيناً ثالثاً شرح لبعض ما يغمض على السامعين من ألفاظه أو إشاراته القصصية ، وهى حيناً رابعاً تفسير عام لمذهبه فى التحدث عن الآلهة والأبطال . ولذلك رأينا أن نرتب هذه الضروب المتعددة من العناية بهومر قبل العصر الإسكندرى فى طوائف أربع ، هى :

١ — الشعراء أنفسهم : فنحن نجد أن أقدم ذكر لهومر — عثر عليه الباحثون حتى الآن — هو إشارة وردت فى قصيدة ضائعة للشاعر كالينوس Callinus (فى آخر القرن الثامن ومطلع القرن السابع قبل الميلاد) ، ولم يكن الباحثون ليعرفوا ذلك لولا ما أورده الكاتب الجغرافى بوزانياس Pausanias من ذكر لهذه القصيدة ومن قوله إن كالينوس قد أشار فى قصيدته إلى أنه كانت قصائد أخرى غير الإلياذة والأوديسة تُعزى إلى هومر ، مثل المقطوعة البطولية Thebais[1]

(١) جب ، هومر : ٨٥ و ٨٨ .

ثم وجد الباحثون أن أول من اقتبس من هومر — ممن يُعرفون حتى الآن — هو الشاعر سيمونيد السيوسى Simonides of Ceos (الذى ولد فى نحو سنة ٥٥٦ ق.م) فقد اقتبس من الإلياذة ٦ : ١٤٨ .

٢ — الفلاسفة : وقد عُنى الفلاسفة منذ القرن السادس قبل الميلاد بشعر هومر ، وثار بعضهم ، فى مطلع التأمل الفلسفى فى اليونان ، على التصوير الهومرى للآلهة[1] . فقد قال إكزينوفان Xenophanes of Colophon « إن هومر وهسيود قد نسبا إلى الآلهة كل عيب ونقص فى الناس». ومن هنا نشأت المدرسة المجازية فى تفسير هومر . وأقدم هؤلاء المجازيين هو ثياجن الريجيومى Theagenes of Rhegium، الذى وصل بين نوعين من المجاز انفصلا بعد ذلك هما : المجاز الخلقى (العقلى) والمجاز الحسى . وهكذا كانت Hera هى الهواء ، وأفروديت هى الحب . وقد نما التفسير الخلقى فى القرن التالى على يد أناكساجوراس Anaxagoras الذى فسر Zeus بالعقل ، وأثينا بالفن. أما التفسير الحسى فقد تطور على يدى Metrodorus of Lamsacus . وقد كان شعر هومر ووصفه الآلهة سبباً من الأسباب التى دعت أفلاطون إلى أن يبعد الشعراء من جمهوريته .

٣ — المؤرخون : وقد عُنى المؤرخون اليونانيون بهومر — منذ أن بدأ التاريخ عندهم. ومن هؤلاء هيرودوت Herodotus وثوسيديد Thucydides فى القرن الخامس قبل الميلاد . وقيمة هيرودوت فى أنه كان أول من شك — أو على الأقل من بين الأوائل السابقين إلى الشك — فى نسبة بعض القصائد البطولية إلى هومر . فهو يرى — على أسس نقدية — أن المقطوعة البطولية التى تدعى Cypria ليست من نظم هومر ، ولكنه لم يذكر الناظم الحقيقى . ونقدُه هذا يدل على أن السواد لم يكونوا يشكون فى نسبتها إلى هومر ، كما أن هيرودوت نفسه لم يكن يعرف رواية صريحة تنفى نسبة هذه المقطوعة إلى هومر . وقد شك أيضاً فى نسبة قصيدة

---

(١) جب ، هومر : ٨٨ و ٨٩ .

أخرى تدعى Epigoni ولكن حديثه عنها مقتضب غير قاطع[١] . وأما قيمة ثوسيديد فى أنه قدم لنا فى تاريخه أمثلة على نوع من تفسير شعر هومر يحوّل العنصر القصصى إلى حقائق تاريخية واضحة ، وذلك حينما فسر ذهاب اليونانيين إلى طروادة ، فهو يرى أن رؤساء اليونان لم يذهبوا إلى طروادة لأنهم وعدوا والد هيلانة أن ينتقموا لها ، ولكنهم ذهبوا لأن قوة أجا ممنون ساقتهم واضطرتهم إلى ذلك . وقد نمى كالسثين Callisthenes (فى نحوسنة ٣٣٠ ق . م) هذه الطريقة فى التفسير تنمية كاملة ، وخصّ ، فى كتابه تاريخ اليونان ، الحرب الطروادية بكتاب مستقل . ويظهر هذا الاتجاه فى مواطن متعددة من تواريخ المتأخّرين التالين مثل : بوليبيوس Polybius ، وديودور Diodorus ، وسترابو Strabo ، وباوزان Pausanius[٢] .

٤ — الرواة المنشدون : وآخر هذه الطوائف ، وربما أقدمها عهداً ، هم الرواة المنشدون ، الذين كانوا يروون شعر هومر وينشدونه وهم يتنقلون بين البلاد المختلفة . ويصف لنا إفلاطون فى إحدى محاوراته على لسان سقراط (هى : Ion) أحد هؤلاء الرواة المتجولين واسمه إيون — وكان يعيش فى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد . ويذكر إفلاطون أن إيون كان يشرح شعر هومر ويفسره، وأن بعض المنشدين المتنافسين كانوا ينشدون ولاءً : يبدأ أحدهم من حيث انتهى الآخر . ويرى الدكتور جب[٣] أنه لا بد إذن من أن تعقيبات إيون وشروحه كانت تُلقى مفصولة عن إنشاده ، أو أنها كانت متصلة بالقطع التى كان هو يقوم بإنشادها حسبُ . ويتضح من محاورة إفلاطون أن شروح إيون وتعقيباته على هومر كانت تتخذ مظهر المعرض البلاغى الأدبى المتصل ، وكان إيون يفخر بطلاقته وبثروة « آرائه عن هومر » كما يعبر إيون نفسه .

---

(١) جب ، هومر : ٨٥ ؛ وألان ، هومر : ٧٠ .
(٢) جب ، هومر : ٩٠ .
(٣) المرجع السابق : ٨٠ .

(ب) العصر الإسكندرى :

غير أن النقد الهومرى بمعناه الدقيق الخاص لم يظهر إلا فى الإسكندرية منذ مطلع القرن الثالث قبل الميلاد . وقد جُمعت مواده لأول مرة فى المكتبات العظيمة مثل مكتبة الإسكندرية ، ثم مكتبة برجامم ، منذ مطلع القرن الثانى قبل الميلاد . وقد استقى الباحثون معلوماتهم عن هذه المواد من نسخة « الحواشى الهومرية — Homeric Scholia » . ولا يعنينا من أبحاث هؤلاء الدارسين إلا إلمامة عابرة تفى بغرضنا ، ومن أجل ذلك لن نشعّب الحديث ولن نتتبع الباحثين فيما فصلوا فيه القول ، وإنما سنختصر الإشارة اختصاراً يغنى عن الإسهاب والتطويل[1] .

تنقسم نسخ هومر فى مكتبة الإسكندرية إلى قسمين : ١ — النسخ التى تُعرف بأسماء محرريها وناسخيها . وأقدم نسخة من هذا القسم هى التى صنعها الشاعر البطولى أنتيماخ الكلارى Antimachus of Clarus فى إيونيا (نحو سنة ٤١٠ قبل الميلاد) . ٢ — وأما القسم الثانى فهى النسخ التى تعرف بأسماء البلدان حسبُ. وهى نسخ : مساليا Massalia ، وكيوس Chios وأرجوس Argos ، وسينوب Sinope ، وقبرص Cyprus ، ويشار إليها مجموعةً باسم « النسخ البلدانية » . وليس من دليل على أنها كانت النسخ المعتمدة لاستعمال الجمهور ، وأسماء مصححيها ومنقحيها غير معروفة . وبجانب هذين القسمين كانت نسخ توصف بأنها عامة أو شعبية ، وهذه هى نفسها التى توصف بأنها غير دقيقة إذا ما قورنت بالنسخ الدقيقة أو العلمية . وهذه النسخ جميعها التى عرفها الإسكندريون لا بد أنها كانت تعتمد على نص شائع أقدم منها نجهل مصادره . ويبدو لنا هذا من الاختلافات المحدودة والفروق الضيقة بين نصوص هذه النسخ ، فلو لم تكن هناك أسس عامة لرواية منقولة لوجدنا فى نسخ الإسكندرية فروقاً واسعة واختلافاً كبيراً فى ترتيب الأبيات .

---

(١) المعلومات التالية عن علماء مدرسة الإسكندرية ملخصة من كتاب الدكتور جب عن هومر من ص: ٩١ إلى ص : ١٠٢

وأقدم جهد فى النقد الهومرى فى مدرسة الإسكندرية يرجع إلى فترة تتراوح بين ٢٧٠ و١٥٠ قبل الميلاد ، وقد قام به ثلاثة رجال : زينودوت Zenodotus ، وأرستوفان Aristophanes ، وأرستارخ Aristarchus .

أما زينودوت فقد كان قيمًا على مكتبة المتحف الإسكندرى ، ونشر نسخة منقحة لهومر ومعجماً هومرياً ؛ ويبدو زينودوت — فى هذا العصر من فجر العلم الجديد — رجلاً موهوباً ذا هدف نقدى ، ولكنه تعوزه الطريقة النقدية الصالحة . فقد ألح على دراسة هومر ولكنه أخفق فى إرساء هذه الدراسة على أسس سليمة ، وأحد أسباب إخفاقه أنه لم يُعنَ بالتمييز بين الاستعمال الشائع المألوف للألفاظ واستعمال هومر لها استعمالاً خاصًّا ، ولم يميز كذلك تمييزاً كافياً بين اللهجة الإيونية القديمة واللهجة الإيونية المتأخرة ، فأوقعه اعتماده المطلق على إحساسه الشخصى بروح هومر فى تصحيحات وتصويبات قاطعة . ومع ذلك فقد فتح أفقاً جديداً ونال مصنفه شهرة واسعة .

وأما أرستوفان (فى نحو ٢٠٠ ق . م) فقد كان تلميذ زينودوت ، وخلفه — فى غير تعاقب — على منصب أمانة المكتبة . ونشر أيضاً نسخة منقحة من هومر . وكان يُعنَى بدلالات النصوص المخطوطة عناية تفوق عناية زينودوت . وأتاح له اطلاعه الواسع وعلمه الغزير أن يثبت فى حالات كثيرة قراءات جرحها سلفه تجريحاً كان متسرعاً فيه .

وأما أرستارخ فكان تلميذ أرستوفان وخليفته فى أمانة المكتبة ، وظهر نشاطه فى النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد . وينقسم ما قدمه للدراسة الهومرية إلى ثلاثة أقسام : ١ — رسائل عن بعض المشكلات الهومرية ومواطن الاختلاف ٢ — تعقيبات متصلة على النص الهومرى . ٣ — نسخ منقحة للنص الهومرى . وقد استخدم فى النص الهومرى الذى نشره مجموعة من العلامات والرموز النقدية تدل القارئين ، بنظرة واحدة ، على البيت الذى يراه أرستارخ منحولاً زائفاً ، وعلى البيت الذى يرى أنه فى غير موضعه من ترتيب القصيدة ، وعلى البيت الذى

يشتمل على أية إشارة وضحها فى تعليقاته .

ويُعدّ أرستارخ أعظم العلماء الإسكندريين وخير ناقدى هومر من بين الأقدمين ، وذلك لعدة عوامل منها : ١ ــ أنه درس بعناية استعمال الألفاظ فى هومر مدركاً أن نقد المادة يجب أن يعتمد على معرفة دقيقة باللغة. أما النحويون واللغويون الذين سبقوه فقد وجهوا عنايتهم إلى الألفاظ النادرة أو المهجورة خاصة . ثم عمد أرستارخ إلى تحديد المعنى الهومرى للألفاظ الشائعة المألوفة . ٢ ــ وقد كان للمصادر المخطوطة قيمة كبيرة عنده حينما صنع نسخته من النص الهومرى . وحينما كانت الموازنات والمقابلات تسلمه إلى شك فى قراءتين كان يستهدى « باستعمال الشاعر الخاص » . فهو يبدو فى الغاية من الحذر والحيطة ، بعيداً عن التسرع فى تخطئة النصوص أو تصويبها . ولو قارناه بزينودوت لوجدناه يتحرج من القراءات التى تعتمد على الحدس والظن . ٣ ــ علق على مادة هومر ، فوازن بين الأساطير عند هومر والأساطير نفسها عند غيره من الكتاب ، وأظهر العناصر المميزة للحضارة الهومرية .

وكل ما نعرفه عن مصنف أرستاخ وصلنا عن طريق بعض العلماء الذين تلوه مثل : ديدم Didymus وأرستونيخ Aristonichus . أما ديدم فنحوىٌّ إسكندرى كتب ــ بعد وفاة أرستارخ بنحو ١٢٠ سنة ــ رسالة عن النسخة المنقحة التى صنعها أرستارخ ، وكان هدفه أن يقوى القراءات التى اختارها أرستارخ ، وأن يستخلص فكرة واضحة كاملة عن آرائه وتعليلاته من كتاباته الكثيرة عن هومر . وأما أرستونيخ فنحوىٌّ إسكندرى أيضاً معاصر لديدم وإن كان أصغر منه سنّاً . وقد كتب رسالة عن العلامات النقدية التى استخدمها أرستارخ فى الإلياذة والأوديسة ، وسرد ــ فى رسالته هذه ــ آراء أرستارخ عن الأبيات الشعرية التى وُضعت أمامها العلامات المختلفة . وأشهر علماء الإسكندرية ــ بعد هؤلاء ــ هيرودیان Herodian ، ونيكانور Nicanor فى النصف الأول من القرن الثانى للميلاد .

وأما المدرسة الأخرى فقد قامت فى مدينة برجام Pergamum فى ميسيا Mysia حينما أنشأ إيومين الثانى Eumenes 2 فى أوائل القرن الثانى ق . م المكتبة العظيمة التى صارت تنافس مكتبة الإسكندرية . ومن أشهر علماء هذه المدرسة كريتس Crates الذى كان معاصراً لأرستارخ وأميناً لمكتبة برجام .

ومن أشهر نسخ الإلياذة التى وصلت إلى الباحثين الأوربيين هى النسخة التى تُدعى Codex Venetus A ورقمها ٤٥٤ فى مكتبة القديس مارك فى مدينة البندقية. وقد كتبها أحد النساخ فى القرن العاشر الميلادى فجعل نص الإلياذة متناً ثم جعل له حواشىَ عُرفت باسم الحواشى الهومرية Homeric Scholia وأهم ما تحويه هذه الحواشى مصدران ؛ الأول : ما يسمى بالمختصر The Epitome وقد قام بصنعه أحد دارسى الإلياذة (فى نحو سنة ٢٠٠ — ٢٥٠ ميلادية) فاستخلص مقتطفات من أعمال الكتاب الأربعة الإسكندريين : ديدم وأرستونيخ وهيرودیان ونيكانور. وهذا المختصر هو المصدر الرئيسى الذى استقى منه الباحثون معلوماتهم المفصلة عن آراء أرستارخ . وأما الجزء الثانى من الحواشى فيبدو أنه مجموعة كبيرة من التعقيبات مختارة من عدة مصنفين ثم جُمعت معاً فى آخر القرن الثالث الميلادى . وهذا الجزء الثانى — إذا ما قورن بالمختصر — لا يُعنَى مثله بنقد النصوص ، غير أنه يفوقه فى التأويل والتفسير المجازيين ، وفى الأساطير ونقد الأسلوب الشعرى .

(ح) ما بعد العصر الإسكندرى[1] :

وقد واصل العلماء والدارسون جهودهم فى دراسة القصيدتين الهومريتين ، ولكن هذه الدراسات كانت فى مجموعها تدور فى فلك يكاد يكون واحداً لا تعدوه ؛ إلى أن جاء فردريك أغسطس ولف فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وأصدر كتابه المعروف باسم « المقدمة » Prolegomena سنة ١٧٩٥. وتقوم دراسته على أربع نقاط رئيسية : ١ — أن القصيدتين الهومريتين لم تدونا إلا فى نحو

(١) جب ، هومر : ١٠٣ وما بعدها . .

سنة ٥٥٠ ق . م أى بعد نظمهما بقرون كثيرة ، وقد بقيتا خلال هذه القرون تتناقلان بالرواية الشفهية ، فاعتورتهما تغييرات وتبديلات كثيرة عمد إلى بعضها الرواة عمداً وجاء بعضها مصادفة . ٢ — وقد تعاورتهما — حتى بعد أن دونتا — تغييرات أخرى جديدة عمد إليها المصححون والمراجعون عمداً ، أو قام بها النقاد العلماء الذين توخوا صقلهما وجعلهما متسقتين مع صور تعبيرية أو أصول فنية معينة . ٣ — أن للإلياذة وحدة فنية ، وتفوقها فى ذلك أيضاً الأوديسة ، ولكن هذه الوحدة لاترجع فى جُلِّها إلى القصيدتين الأصليتين وإنما إلى ما أضافته إليهما المعالجة المصنوعة فى عهود تالية . ٤ — أن القصائد الأصلية التى ضُمَّت وجُمعت حتى صارت ما نعرفه من ملحمتى الإلياذة والأوديسة لم ينظمها كلها شاعر واحد بعينه .

وجميع أدلة نظرية ولف فى جوهرها خارجية ، فهى مبنية على اعتبارات تاريخية معينة تتصل بالحضارة الإغريقية المبكرة وبتطور الفن الشعرى . وقد وصف لنا — فى مقدمة طبعته للإلياذة — ما أحس به حينما كان ينفلت من عقال نظريته إلى قراءة القصيدتين قراءة جديدة ، فحينما كان يغمر نفسه فى تيار القصة البطولية الذى ينساب انسياب النهر النمير كانت جميع أدلته تتطاير من رأسه ، وكان الاتساق والانسجام الشاملين فى القصيدتين يؤكدان نفسيهما بقوة لا تقاوَم ، وكان ولف يحس بالألم والغضب لأن شكوكه حرمته نعمة الإيمان بهومر واحد . ومع ذلك فقد ذكرنا قبل صفحات أن ولف لم ينكر وجود شخص هومر نسب إليه أنه بدأ نسج القصيدة ومضى فيه إلى غاية محدودة ، بل إنه نسب إليه القسم الأكبر من النسيج . ومن هنا جاءت مرونة نظرية ولف التى أشرنا إليها من قبل ، وجاء اختلاف فهم تلامذته لهذه النظرية وذهابهم مذاهب متفرقة مع أنهم يصدرون عن مصدر واحد . والحق أنه من المجحف بحق ولف ، حينما يقوَّم عمله ، أن يُظهرَ بمظهر الناقد الهادم حسبُ : فإن فضله على الدراسات الهومرية كبير ، ولا يسع هؤلاء الذين يختلفون معه فى نتائجه

الأساسية اختلافاً واسعاً إلا أن يُقرُّوا بأنه كشف القناع عن عدة مظاهر تصلح أساساً لنظرية سليمة ، وأنه أول من بدأ دراسة القصيدتين دراسة علمية[١] . غير أن العنصر التحليلي فى نظريته هو الذى لفت الأنظار لأنه حينما نشرها كانت تبدو فى موقف متميز تميزاً كبيراً من الاعتقاد القديم بأن ناظم القصيدتين شاعر بعينه هو هومر الواحد . ومن هنا جاء الربط بين عمله والاتجاه إلى الهدم الصرف ، وهو اتجاه بعيد عن روحه[٢] .

ومما هو جدير بالذكر أن ولف كتب على « المقدمة » رقم ١ وذكر فى ص٢٤ منها أنها « القسم الأول Pars Prima » ، غير أن الجزء الثانى — وهو الذى كان يجب أن يبحث فى أصول نقد النصوص الهومرية — لم يطبع قط[٣] . وبذلك لم يواصل هذا الناقد العظيم السير فى نظريته حتى يصل بها إلى مرحلة الكمال ، فلم يعرض قط — فى تخطيط عام — نظاماً أو نهجاً للأغانى والأناشيد المجزأة التى تجمَّع منها — وفقاً لنظريته — إطار كل قصيدة من هاتين القصيدتين وهيكلها. وإخفاقه فى هذا العمل ، أو تغاضيه عنه — فى خلال حياة طويلة بعض الطول ، وفى أوج نشاطه بعد طبع « المقدمة » (طبعت المقدمة سنة ١٧٩٥ وتوفى ولف سنة ١٨٢٤) — أمر يجعلنا نشك فى أنه كان يؤمن بإمكان هذا التشريح والتقطيع اللذين تتضمنهما نظريته[٤] .

وقد ساعد على ذلك التأثير الواسع الذى كان لنظرية ولف ، وخاصة فى عقول الشبان الألمان عدةُ دوافع منها[٥] : أن الثورة الفرنسية كانت آنذاك فى إبانها ، وكان الجو مفعماً بالتناقض والبدع . وأهم من ذلك أن هذه النظرية ظهرت فى وقت أثار فيه الاهتمامَ الواسع ، فى بقاع مختلفة من أوربا ، الكشفُ عن قدر

---

(١) W.D. Geddes, The Problem of The Homeric Poems, P. 9

(٢) جب ، هومر ١٥٧

(٣) المرجع السابق : ١٠٧ فى الهامش .

(٤) جديس ، مشكلة القصيدتين الهوميريتين : ١٠

(٥) المرجع السابق : ٩ .

صالح من الشعر الشعبي وفيه دليل على الحيوية الظاهرة فى هذا الشعر حتى حينما يُجهل ناظمه وتكون مميزاته غير واضحة المعالم ، وكان ذلك الشعر أيضاً على غير مثال أدبى سابق ، وإنما كانت وسيلة نقله الرواية الشفهية . فكأنما كان هذا الشعر مثلاً يوضح النظرية الولفية فى افتراضها الأساسى . وأوضح ما يصف لنا ميزات القرن الثامن عشر والفرق بينه وبين القرن التاسع عشر ما ذكره جوته Gothe[1] . فقد كان جوته تحت تأثير السحر الولفى ، وقد وصف ما جاء فى كتابه « المقدمة » بأنه « قطعى وحتمى وذاتى » ، ثم تأرجح رأيه إلى أن استقر أخيراً على الرأى القديم حينما استطاع أن يتثبت من « وجود هومر ثانية » ، وكان ذلك بعد أن انتهت « أعمال القرن الثامن عشر القائمة على التمزيق والتقطيع » ، وابتدأت روح « التنسيق والترتيب » — كما كان يسميها هو نفسه — فى القرن التاسع عشر .

ولم يكن جوته وحده هو الذى تأثر بسحر النظرية الولفية ثم نفض عن نفسه هذا السحر ، بل إن آخرين كانوا مثله ، ومن أهمهم نيتش Nitzsch[2] فقد خلّف لنا اعترافاً ذا قيمة بعد أن اختبر بنفسه أعاصير الخصومة فى المشكلة الهومرية ، فبعد أن ألف كتاباً بذل فيه جهداً ضخماً يدعم تعدد التأليف — مما يوضح ويفسر نظم قصيدتين ملحمتين فى مثل هذا الطول — عاد فرد على نفسه واعترف بوحدة التأليف فى الملحمتين !

ومع ذلك فإن ألمانيا فى القرن التاسع عشر بقيت فى أغلبها ولفية ، وبالرغم من نشوء نظريات مضادة لنظرية ولف ، وردود العلماء عليه فى حياته وبعد وفاته ، فإن جمهرة العلماء فى ألمانيا ما زالوا ولفيين حتى يومنا هذا[3] . وأما فى

---

(١) جديس ، مشكلة القصيدتين الهوميريتين : ١٢ — ١٣ .
(٢) المرجع السابق : ١٤ فى الهامش .
(٣) المرجع السابق : ١٣ .

إنجلترا وفرنسا فلم يكن أثر النظرية الولفية فى الأوساط العلمية فى هذين البلدين قويًّا كما كان فى ألمانيا[١] .

وبعد ؛

فلم نقصد إلى هذا الموضوع لذاته حتى نشعّب الحديث فى أجزائه ونتتبع تفصيلاته ، وإنما اتخذناه معبراً نجتازه إلى الحديث عن الشك فى الشعر العربى الجاهلى . وحسبنا ما قدمنا ففيه غناء إذا ما أردنا أن نستبين وجوه الشبه بين المراحل التى مرت بها الدراسات الأوربية والدراسات العربية القديمة والحديثة للشعرين الهومرى والعربى الجاهلى .

---

(١) المرجع السابق : ١٥ .

الفصل الثانى

وضع الشعر الجاهلى ونحله عند الأقدمين

١

الوضع والنحل والانتحال كلها ظواهر أدبية عامة ، لا تقتصر على أمة دون غيرها من الأمم ، ولا يختص بها جيل من الناس دون غيره من الأجيال . فقد عرفها العرب كما عرفتها الأمم الأخرى التى كان لها نتاج أدبى ؛ وعرفها العصر الجاهلى كما عرفها العصر الأموى والعصر العباسى ، بل كما لا يزال يعرفها عصرنا الحاضر الذى نحيا فيه ، على الرغم من وسائل الحضارة الحديثة التى كانت قمينة أن تبرئ نتاجنا من هذه الظواهر لو كان ثمة سبيل إلى الخلاص منها . فشيوع الكتابة شيوعاً عامًّا ، وانتشار الطباعة بصورها المتعددة وأنماطها الكثيرة ، لم يحولا دون أن يُنسب إلى شاعر شعرٌ لم يقله ولا يدرى من أمره شيئاً ، ولم يستطيعا أن يذودا عن شعر قاله صاحبه بَغْىَ المعتدين وسطوة المدَّعين المنتحلين .

ولم يكن الوضع أو النحل أو الانتحال مقصوراً على الشعر وحده ، بل لقد شمل كل ما يمتُّ إلى الأدب العام بسبب : كالنسب والأخبار — منذ الجاهلية نفسها . ولقد بدأ الكذب والوضع فى الحديث النبوى فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحسبنا من كل ذلك لمحة عابرة ننتقل بعدها إلى تخصيص الحديث فى الشعر وحده . فما يدل على أن الوضع والكذب فى النسب قديم منذ الجاهلية وعصر الرسول — أن النبى عليه السلام كان إذا انتسب لم يجاوز فى نسبه مَعدّ

ابن عدنان بن أدّد ثم يمسك ويقول : كذب النسابون[١] . وكذلك ما ذكره الهيثم بن عديّ فى « كتاب المثالب »[٢] من أن دغفلاً النَّسابة دخل على معاوية فقال له معاوية : من رأيت من عِلْية قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطلب ابن هاشم وأمية بن عبد شمس . فقال : صفهما لى . فلما وصف له عبد المطلب قال : فصف أمية . قال : رأيته شيخاً قصيراً نحيف الجسم ضريراً يقوده عبده ذكوان. فقال : مه ، ذاك ابنه أبو عمرو . فقال : هذا شيء قلتموه بعدُ وأحدثتموه ، وأما الذى عرفتُ فهو الذى أخبرتك به . وقد ذكرنا طرفاً من الكذب فى النسب عند حديثنا عن الرواة الوضاعين ، وسنذكر طرفاً آخر حين نتحدث عن أسباب الوضع ودواعيه .

وأما الوضع والكذب فى الحديث النبوى منذ عهد الرسول نفسه فأمر لا يحتاج إلى بيان ، وليس أدل على ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب علىّ فليتبوأ مقعداً من النار »[٣] . وقد جاءه ذات يوم المنقّع بن الحصين فقال : يا رسول الله إن الناس خاضوا فى كذا وكذا . فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يديه وقال : « اللهمّ لا أحل لهم أن يكذبوا علىّ ». قال المنقع : فلم أحدّث بحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا حديثاً نطق به كتاب أو جرت به سُنّة ، يكذّب عليه فى حياته فكيف بعد موته ! ![٤] . وقد تنبه الصحابة فى الصدر الأول إلى شيوع الكذب والوضع فى الحديث ، حتى إن سعد بن أبى وقاص حينما سئل عن شيء فى الحديث استعجم وقال : إنى أخاف أن أحدثكم واحداً فتزيدوا عليه المائة[٥] . وحتى إن عبد الله بن عمرو بن العاص قال لجماعة من أهل

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ١ : ٢٨ .

(٢) الأغانى ١ : ١٢ .

(٣) ابن سعد ١/٣ : ٧٥ .

(٤) ابن سعد ٧ : ٤٣ – ٤٤ .

(٥) ابن سعد ١/٣ : ١٠٢ .

العراق جاؤوا يسألونه أن يحدثهم[١] : إن من أهل العراق قوماً يكذبون ويُكذَّبون ويسخرون . بل لقد بلغ الأمر أكثر من ذلك :

فقصة عبد الله بن سعد بن أبي سرح مشهورة : كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى ، ثم ارتد ولحق بالمشركين وقال — فى زعمه — : إن محمداً ليكتب بما شئت[٢] . وذكروا أنه كان يكتب « عزيز حكيم » مكان « غفور رحيم »[٣] . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود وقال : لا آمن أن يبدلوا كتابى[٤] ! .

فإذا ما انتقلنا بعد ذلك إلى تخصيص الحديث فى الشعر وحده ، وجدنا أن الشعر الجاهلى كان عرضة ، منذ الجاهلية نفسها وسنوات الإسلام الأولى ، للوضع والنحل والانتحال . والأمثلة التى بين أيدينا قليلة ولكن فيها مقنعاً ، إذ أنها تدل دلالة واضحة على أن هذه الظواهر الأدبية كانت معروفة شائعة منذ أبعد ما نعرف من عصور الشعر العربى .

فقد قال أبو عبيدة[٥] : كان قُراد بن حَنَش من شعراء غَطَفان ، وكان جيد الشعر قليله ، وكان شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدّعيه ، منهم زهير بن أبى سُلمى ادّعى هذه الأبيات :

إن الرَّزِيَّةَ لَا رَزِيَّةَ مِثْلُهَا ... مَا تبْتَغِى غَطفانُ يَوْمَ أَضَلَّتِ
إنَّ الرِّكَابَ لَتَبْتَغِى ذَا مِرَّةٍ ... بِجَنُوبِ نَخْلَ إذا الشُّهُورُ أَحَلَّتِ
وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أَنْتَ لَنا إذا ... نَهِلَتْ مِنَ العَلَقِ الرِّمَاحُ وَعَلَّتِ
يَنْعَوْنَ خَيْرَ النَّاسِ عِنْدَ كَرِيهَةٍ ... عَظُمَتْ مُصِيبتُهُمْ هُنَاكَ وَجَلَّتِ

---

(١) ابن سعد ٢/٤ : ١٣ .
(٢) الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب : ١٣
(٣) ابن قتيبة ، المعارف : ١٤٩ .
(٤) المقريزى ، إمتاع الأسماع : ١٨٧ .
(٥) طبقات ابن سلام : ٥٦٨ — ٥٦٩ .

ويُروَى أن النابغة الجعدىّ دخل على الحسن بن علىّ فودعه ، فقال له الحسن[١] : أنشدنا من بعض شعرك ؛ فأنشد :

الْحَمْدُ للهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مَنْ لَمْ يقُلْهَا فَنَفْسَهُ ظَلَمَا

فقال له : يا أبا ليلى ، ماكنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبى الصلت . قال : يا ابن رسول الله والله إنى لأول الناس قالها ، وإن السروق من سرق أمية شعره.

وكان الأعشى قد مدح قيس بن معديكرب الكندىّ بقصيدة دالية[٢] ، فقال له قيس : إنك تسرق الشعر . فقال له الأعشى : قَيِّدْنى فى بيت حتى أقول لك شعراً . فحبسه وقيده . فقال عند ذلك قصيدته التى أولها :

أَأَزْمَعْتَ مِنْ آلِ لَيْلَى ابتِكارَا وَشَطَّتْ عَلَى ذِى هَوًى أَنْ تُزَارا

وفيها يقول :

وَقَيَّدَنِى الشِّعْرُ فى بَيْتِهِ كَمَا قَيَّدَ الآسِرَاتُ الحِمارا

وسألت عائشة أمّ المؤمنين مَنْ صاحب هذه الأبيات[٣] :

جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ إمَام وَبَارَكَتْ يَدُ اللهِ فى ذَاكَ الأَدِيمِ المُمَزَّقِ
فَمَنْ يسْعَ أَوْ يَرْكَبْ جَنَاحَىْ نَعَامَةٍ لِيُدْرِكَ مَا حَاوَلْتَ بِالأَمْسِ يُسْبَقِ
قَضَيْتَ أُمورًا ثُمَّ غَادرْتَ بَعْدَهَا بَوَائِقَ فى أَكْمَامِهَا لَمْ تَفَتَّقِ
وَمَا كُنْتُ أَخشَى أَنْ تَكُونَ وفَاتُهُ بِكَفَّىْ سَبَنْتَى أَزْرَقِ العَيْنِ مُطْرِقِ

فقالوا: مُزَرِّد بن ضِرَار . قالت عائشة : فلقيت مُزَرِّداً بعد ذلك فحلف بالله ما شهد تلك السنة الموسم .

---

(١) طبقات ابن سلام: ١٠٦ – ١٠٧ ، والأغانى ٥ : ١٠ .

(٢) انظر : ابن قتيبة ، الشعر والشعراء: ٢١٤ – ٢١٥ ، واستدراك صاحب الخزانة عليه فى الخزانة ٣ ٢٧٥ (سلفية) .

(٣) ابن سعد ٣/١ : ٢٤١ ؛ وانظر طبقات ابن سلام: ١١١ حيث نسبها إلى جزء أخى مزرد .

ومن عجب أن يضع المسلمون الأولون شعراً وينحلوه أبا بكر الصديق ، حتى لقد روى الزُّهرىّ عن عروة عن عائشة أنها قالت : كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعر فى الإسلام ! ! .

ولعل من خير ما يدل على هذا الذى نذهب إليه بيتاً قاله مُزَرِّد بن ضرار فى أبيات يصف فيها نفسه وشعره ، قالها يردّ على كعب بن زهير حين نظم كعب أبياته التى يقدّم فيها نفسه والحطيئة . قال مزرد[١] :

وباسْتِكَ إذْ خَلَّفْتَنِى خَلْفَ شَاعِرٍ مِنَ النَّاسِ لَمْ أُكْفِىءْ وَلَمْ أَتَنَحَّلِ

فهو ينفى عن نفسه تنحل الشعر وانتحاله أى ادعاءه إياه لنفسه وهو من كلام غيره .

ومما يدخل فى هذا الباب أيضاً ما وصف به الفرزدقُ علقمةَ الفحل من أن شعره لا يستطيع أحد أن ينحله ، فكأنه يقصد أن على شعره طابعه وميسمه فإذا ما ادعاه غيره عرف الناس أنه ليس لمن ادعاه وإنما هو لصاحبه علقمة ؛ وذلك قول الفرزدق[٢] :

وَالفَحْلُ عَلْقَمَةُ الّذِى كَانَتْ لَهُ حُلَلُ المُلُوكِ كَلاَمُهُ لا يُنْتَحَلُ

٢

ولم يكن أمر الوضع والنحل فى الشعر الجاهلى ليخفَى على الرواة العلماء ، فقد تنبه له كثيرون منهم ، بل قلما نجد راوية عالماً من القرن الثانى والقرن الثالث لا تذكر لنا الأخبار المروية عنه أنه نصّ نصّاً صريحاً على أن بيتاً أو أبياتاً بعينها

---

(١) ابن سلام : ٨٨ .
(٢) النقائض ١ : ٢٠٠ .

موضوعة منحولة ، وسنورد أمثلة وافية مما نص عليه هؤلاء العلماء من رجال الطبقة الأولى والطبقة الثانية .

فقد ذكر أبو عمرو بن العلاء أن ذا الإصبع العَدْوانيّ قال يرثى قومه[١] :

وَلَيْسَ المرْءُ فى شَىءٍ مِنَ الإِبْــرَام والنَّقْضِ
إذا يَفْعَلُ شَيئاً خَــا لَهُ يَقْضِى وَمَا يَقْضِى
جَدِيدُ العَيْشِ مَلْبُــوسٌ وَقَــدْ يُوشِكُ أنْ يُنْضى

ثم نص على أنه لا يصح من أبيات ذى الإصبع الضادية هذه إلا الأبيات التى أنشدها ، وأن سائرها منحول[٢] . بينما نرى أبا الفرج نفسه يورد من هذه القصيدة غير الأبيات المتقدمة نحواً من أربعة وعشرين بيتاً أخرَ[٣] . وذهب أيضاً أبو عمرو إلى أن القصيدة المنسوبة إلى امرئ القيس والتى مطلعها :

لَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ العَامِر ىِّ لَا يدَّعِى القَوْمُ أَنِّى أَفِرّْ

هى لرجل من أولاد النمر بن قاسط ، يقال له ربيعة بن جُشَم ، وأولها عنده[٤] :

أَحَار بنَ عَمْرو كَأَنِّى خَمِرْ وَيَعْدُو عَلَى المَرْءِ مَا يأْتَمِــرْ

وهذا عامر بن عبد الملك وأخوه مِسْمَع بن عبد الملك الملقب كِرْدِين — وهما من طبقة أبى عمرو بن العلاء ، علامتان بالنسب راويتان للشعر ، روى عنهما أبو عبيدة والأصمعى أخباراً وشعراً — ينكران ما أضيف إلى قصيدة الحارث ابن عُبَاد ، ولم يُصححا منها غير الأبيات الثلاثة التالية[٥] :

---

(١) الأغانى ٣ : ١٠٦ .
(٢) المصدر السابق ٣ : ٩٦ .
(٣) المصدر السابق : ٩٢ و ١٠٧ — ١٠٨ .
(٤) البغدادى ، الخزانة ١ : ٢٣٧ — ٢٣٨ .
(٥) الأغانى ٥ : ٤٧ — ٤٨ .

قَــرِّبَا مَرْبطَ النَّعَامَــةِ مِنِّى   لَقِحَتْ حَرْبُ وَائلٍ عن حِيَالِى
لَا بُجيْرٌ أَغْنَى قَتيلاً وَلَا رهْــ   ـطُ كُلَيْبٍ تَزَاجَرُوا عَن ضَلالِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِم اللَّـ   ـهُ وَإِنِّى بِحَرِّهَا اليَوْمَ صَالِ

ومن أمثلة ذلك عند أبى عمرو الشيبانى أنه كان يدفع أن يكون هذا البيت لعنترة وهو :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّم   أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدارَ بعْدَ تَوَهُّمِ

ولم يكن يرويه حتى سمع أبا حِزام العُكْلى يرويه له[١] .

وأما الأخبار المروية فى ذلك عن الأصمعى فكثيرة ، منها ما هو عام مطلق ، ومنها ما هو مخصص يُنصُّ فيه على بيت أو أبيات بعينها . فمن الضرب الأول : ما أوردوه من أن الأصمعى قال[٢] : أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة صحيحة إلا مُصحَّفة أو مصنوعة . وأنه كذلك قال[٣] : ويقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه . وأنه قال أيضاً[٤] : أكثر شعر مُهلهِل محمول عليه .

ومن الضرب الثانى : أنه قال[٥] : أعيانى شعر الأغلب ، ما أروى له إلا اثنتين ونصفاً . فلما سئل : كيف قلت نصفاً ؟ أجاب : أعرف له اثنتين وكنت أروى نصفاً من التى على القاف ، فطوّلوها ، وكان ولده يزيدون فى شعره حتى أفسدوه . وقد قال أيضاً فى القصيدة المنسوبة إلى الأغلب فى سَجاح[٦] : إنه كان يقال إن هذه القصيدة فى الجاهلية لجشم بن الخزرج . وقالِ الأصمعى

---

(١) الأغانى ٩ : ٢٢٢ .
(٢) المزهر ٢ : ٤١٣ — ٤١٤ .
(٣) الموشح : ٣٤ .
(٤) الموشح : ٧٤ .
(٥) المرجع السابق : ٢١٣ .
(٦) طبقات فحول الشعراء : ٥٧٦ .

أيضاً[١] : الناس يروون لأمية بن أبي الصلت القصيدة التي فيها :

مَنْ لَمْ يَمُتْ عَبْطَةً يَمُتْ هَرَماً المَوْتُ كَأْسٌ فالمَرْءُ ذَائِقُهَا

قال : وهذه لرجل من الخوارج .

وكان الأصمعي يرى أن أبياتاً من قصيدة زهير الميمية : « أمِنْ أمِّ أوفى دمنةٌ لَمْ تَكلَّمِ » ليست له وإنما هي لصِرْمَة بن أبي أنس الأنصاري[٢]. وكان كذلك يشك في بيت عنترة : « هل غادر الشعراء . . » ويدفع أن يكون له[٣] ، ويرى أن أول القصيدة :

يَا دَارَ عَبْلَةَ بالْجِوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمِي صَبَاحاً دَارَ عَبْلَةَ واسْلَمِي

وقد أنشد أبو حاتم السجستاني بيتاً في عجزه : « والسيفُ مغمودُ » فقال الأصمعي[٤] : هذا الشعر مصنوع ، وقد رأيت صانعه .

وأما أبو عبيدة فإن أخباره في هذا الباب لتكاد تضارع أخبار الأصمعي كثرةً. من ذلك أنه ذكر خمسة أبيات للحارث بن حِلِّزة في إنكار الطِّيَرة هي قوله[٥] :

يَا أيُّهَـا المُزْمِعُ ثمَّ انْثَنَى لَا يَثْنِكَ الحَازِي وَلَا الشَّاحِجُ

وَلَا قَعِيـدٌ أعْضَبٌ قَرْنُهُ هَاجَ لَهُ مِنْ مَرْبِعٍ هَائِجُ

---

(١) الموشح : ٧٨ .

(٢) المعمرين : ٦٦ .

(٣) الأغاني ٩ : ٢٢٢ .

(٤) مراتب النحويين ورقة : ١١٢ .

(٥) الحيوان ٣ : ٤٤٩ — ٤٥٠ . الحازي : زاجر الطير . الشاحج : الغراب يشحج بصوته . القعيد ، ماجاء من وراء المرء من ظبي أو طائر . الأعضب : المكسور القرن . تاح : قدر . الخالج : الموت يختلج المرء وينتزعه . رقع : أصلح . الكسع : ضرب الماء على الضرع ليرتفع اللبن فتسمن الناقة أو يسمن أولادها في بطنها . الشول : جمع شائلة ، وهي التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخف لبنها . أغبار : جمع غبر (بفتح الغين) : بقية اللبن في الضرع .

بَيْنَا الفَتَى يسْعَى وَيُسْعى لَهُ   تَاحَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ خَالِجُ
يَتْرُكُ مَا رَقَّحَ مِنْ عَيْشِهِ   يَعِيثُ فِيهِ هَمَجٌ هَامِجُ
لَا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بِأَغْبَارِها   إِنَّكَ لَا تَدْرِى مَنِ النَّاتِجُ

ثم قال أبو عبيدة : أنشدنيها أبو عمرو ، وليست إلا هذه الأبيات ، وسائر القصيدة مصنوع مولَّد .

وقد أورد أيضاً أربعة أبيات لعوف بن عطية التيمى أولها[1] :

هَلَّا فَوَارِسَ رحْرَحَانَ هَجَوْتُمُ   عُشَرًا تَنَاوَحُ فى سَرَارة وَادِ

ثم قال : وبقية هذه القصيدة مصنوعة .

واستشهد على أن الأسود كان رئيس الرِّباب يوم النِّسار بقول عوف بن عطية ابن الخرع التيمى[2] :

مَا زَال حَيْنُكُمُ وَنَقْصُ حُلُومِكُمْ   حَتَّى بَلَوْتُمْ كَيْفَ وَقْعُ الأَسْوَدِ
وَقَبَائِلُ الأَحْلَافِ وَسْطَ بُيُوتِكُمْ   يَعْلُونَ هَامَكُمُ بكُلِّ مُهَنَّدِ

ثم قال : قال بنو أسد وغطفان هذه مصنوعة لم يشهد الأسودُ النِّسار .

وفى كتابه « الخيل » نصوص كثيرة فى هذا الباب ، منها أنه أورد أبياتاً مطلعها[3] :

الخَيْر مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَمَا غَرُبَتْ   مُعَلَّقٌ بنَوَاصِى الخَيْلِ مَطْلُوبُ

وبعد أن قال إن هذا الشعر لأحد الأنصار ، وأنه قد يُحمَل على امرئ القيس ، عاد فقطع بأنه « لم يقله امرؤ القيس ولكنه لرجل من الأنصار »[4] .

---

(١) النقائض : ٢٢٨ .
(٢) النقائض : ٢٤٠ .
(٣) كتاب الخيل : ١٦٠ .
(٤) المصدر السابق : ١٤ .

وقد أورد أربعة أبيات ذكر أنها لصعصعة بن معاوية السعدى، مطلعها[1] :

مَا كُنْتُ أَجْعَلُ مَا لِي فرغ دالِيةٍ   فِى رَأْسِ جَذْع تصب الْماء فى الطِّينِ

ثم قال : وقد تروى هذه الأبيات لحارثة بن بدر الغُدانى .

وقد أورد أبياتاً كثيرة أولها :

وَأَرْكَبُ فى الرَّوْعِ خَيْفَانَةً   كَسَا وَجْهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشِرْ

ونسبها إلى امرئ القيس ولكنه قال[2] : «وقد يخلط قوله هذا بقول النمرى » ولما أتم الأبيات قال : « وقد تروى هذه الأبيات لربيعة بن جشم النمرى »[3] .

وأورد كذلك أبياتاً نسبها إلى أبى دواد الإيادى أولها[4] :

وَكلُّ حِصْنٍ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ   يوْماً سَيَدْخُلُهُ النَّكْرَاءُ والْحُوبُ

ثم قال : « وَيُحمَل بعض ما فى هذه الكلمة على يزيد بن عمرو الحنفى ، وقد أعدتُه فى شعره » .

وذكر أبياتاً لعلقمة أولها :

وَقَدْ أَغْتَدِى والطَّيْرُ فى وُكُنَاتِهَا   وَمَاءُ النَّدَى يَجْرِى عَلَى كُلِّ مِذْنَبِ

وقال[5] : « وقد يُخلط قوله بشعر امرئ القيس بن حُجْر . وقد نسبتُ شعر امرئ القيس وأفردته من شعر علقمة » .

وقد أورد فى مواطن عدّة أبياتاً لشعراء مختلفين ، سمّاهم أحياناً واكتفى بأن

---

(١) كتاب الخيل : ١٤ — ١٥ .

(٢) المصدر السابق: ١٣٩ .

(٣) المصدر السابق : ١٤١ .

(٤) المصدر السابق : ١٤٧ — ١٤٨ .

(٥) المصدر السابق : ١٣٦ .

قال : قال الشاعر ، أحياناً أخرى — وكان فى كل موطن يشير إلى أن هذه الأبيات تُحمَل أيضاً على أبى دواد الإيادىّ(١) .

فإذا ما اكتفينا بما قدمنا من أخبار الطبقة الأولى من الرواة والعلماء ، وانتقلنا إلى الحديث عن رواة الطبقة الثانية ، وجدنا عندهم كذلك نثاراً من هذه الإشارات المتفرقة إلى الموضوع والمنحول من الشعر الجاهلى . وسنقصر حديثنا على ثلاثة منهم ؛ هم : أبو حاتم سهل بن محمد السجستانى ، وأبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ ، وابن قتيبة .

أما أبو حاتم فقد ذكر أبياتاً ثلاثة نسبها إلى عمرو بن ثعلبة هى(٢) :

تَهَزَأَتْ عِرْسِىَ واسْتَنْكَرَتْ شَيْبِى فَفِيهَا جَنَفٌ وازْوِرَارُ
لَا تُكْثِرِى هُزءًا وَلَا تَعجبِى فلَيْس بالشَّيْب عَلَى المَرءِ عَارْ
عَمْرَكِ ،هَلْ تَدْرِينَ أن الفَتَى شَبَابُهُ ثَوْبٌ عَلَيْــهِ مُعَارْ

ثم قال أبوحاتم : زعم عطاء بن مصعب الملْطُ أن خلفاً الأحمر وضع هذاالبيت الأخير .

وأورد أبياتاً سبعة نسبها إلى مرداس بن صُبيح آخرها قوله(٣) :

فَلَا يَغْرُرْكُمُ كِبَرِى فَإِنِّى كَرِيمٌ لَيْسَ فى أَمْرِى شَتَاتُ

ثم قال : وأظن البيت الأخير ليس منها .

وقد مر بنا قبل قليل أن أبا حاتم أورد بيت زهير(٤) :

سَئِمْتُ تَكالِيفَ الحَياةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لكَ يَسْأَمِ

---

(١) المصدر السابق : ٥٤ ، ٥٥ ، ٧٠ ، ٨٤ ، ١٤٤ ، ١٧١ .
(٢) كتاب المعمرين من العرب : ٣٣ .
(٣) المعمرين : ٣٤ — ٣٥ .
(٤) المعمرين : ٦٦ .

ثم قال أبو حاتم : وكان الأصمعى يزعم أن القصيدة لأنس بن زُنيم . قال أبو روق : غلط أبو حاتم إنما كان الأصمعى يقول : القصيدة لصرمة بن أبى أنس الأنصارى !

وأما الجاحظ فهو يشير إلى الموضوع والمنحول على ثلاث طرق ، فهو حيناً ينسب الشعر إلى شاعر بعينه ثم يعقب عليه بما يفيد شكه فيه ، وهو حيناً ثانياً يقطع قطعاً جازماً بأن هذا الشعر أو ذاك منحول مصنوع — وكل ذلك من غير دليل أو حجة وإنما يرسل القول إرسالاً ، وهو حيناً ثالثاً يقطع بأن الشعر منحول ثم يورد من الحجج ما يراه كفيلاً بدعم رأيه .

فمن الضرب الأول أنه يقول : قال فلان — ويذكر اسم شاعر بعينه — ، ثم يعقب عليه بقوله : إنْ كان قالها . وقد تكرر منه ذلك فى مواطن متفرقة من كتابه « الحيوان »[1] .

ومن الضرب الثانى قوله[2] : وفى منحول شعر النابغة :

فَأَلْفَيْتُ الأَمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يَخُونُ

وقوله[3] : قال غَيْلان بن سَلمة :

فِى الآلِ يَخْفِضُهَا وَيَرْفَعُهَا رَيْعٌ كَأَنَّ مُتُونَهُ السَّحْلُ
عَقْلًا وَرَقْماً ثُمَّ أَرْدَفَهُ كِلَلٌ عَلَى أَلْوَانِهَا الخَمْلُ
كَدَمِ الرُّعَافِ عَلَى مآزِرِهَا وَكَأَنَّهُنَّ ضَوامِرًا إِجْلُ

---

(١) ج : ٣ ص : ٤٩ ، ٦٨ — ٧٠ ، و ج : ٤ ص : ٢٤٨—٢٤٩ ، و ج : ٦ ص : ٣٣٩ .

(٢) الحيوان ٢ : ٢٤٦ .

(٣) المصدر السابق ٦ : ٣٣٥ . الريع : الطريق المنفرج عن الجبل . متونه : ظهوره . السحل : الثوب الأبيض من ثياب اليمن . العقل : ثوب أحمر يجلل به الهودج . كلل : جمع كلة (بكسر الكاف وتشديد اللام) وهى ما خيط من الستور فصار كالبيت . الخمل : القطيفة . الإجل : القطيع من بقر الوحش .

ثم قال : وهذا الشعر عندنا للمسيَّب بن عَلَس .

ومن الضرب الثالث أنه أورد أبياتاً زعم بعض الرواة أنها جاهلية فيها ذكر لانقضاض الكواكب[١] ، والجاحظ ينكر ذلك ويرى أن انقضاض الكواكب لم يكن فى الجاهلية البعيدة عن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بل حدث أول مرة عند مولده أو قُبيلَه ، فهو بذلك من أعلام ميلاده أو إرهاص له . ثم يعقِّب على هذه الأشعار بقوله[٢] : « وسنقول فى هذه الأشعار التى أنشدتموها ونخبر عن مقاديرها وطبقاتها . فأما قوله :

فَانْقَضَّ كَالدُّرِّيِّ مِنْ مُتَحَدِّرٍ لَمْعَ العَقِيقَةِ جُنْحَ لَيْلٍ مُظْلِمِ[٣]

فخبرنى أبو إسحق أن هذا البيت فى أبيات أخر كان أسامة صاحب روح بن أبى همام هو الذى كان ولَّدها . فإن اتهمت خبر أبى إسحق فسمِّ الشاعر ، وهات القصيدة ؛ فإنه لا يُقبَل فى مثل هذا إلا بيت صحيح ، صحيح الجوهر ، من قصيدة صحيحة ، لشاعر معروف . وإلا فإن كل من يقول الشعر يستطيع أن يقول خمسين بيتاً كل بيت فيها أجود من هذا البيت . . . . وأما ما أنشدتم من قول أوْس بن حَجَر :

فانْقَضَّ كالدُّرِّيِّ يَتْبَعُـهُ نَقْعٌ يَثُورُ تَخَالُـهُ طُنُبَا

فهذا الشعر ليس يرويه لأوس إلا من لا يفصل بين شعر أوْس بن حَجر وشُرَيح ابن أوْس . وقد طعنت الرواة فى هذا الشعر الذى أضَفتموه إلى بشر بن أبى خازم من قوله :

والعَيْرُ يُرْهِقُهَا الحِمَارُ وجَحْشُهَا يَنْقَضُّ خَلْفَهُمَا انْقِضاضَ الكَوْكَبِ

---

(١) الحيوان : ٢٧٢ — ٢٧٦ .

(٢) المصدر السابق ٦ : ٢٧٨ — ٢٨٠ .

(٣) البيت فى صفة ثور وحشى . الدرى : الكوكب الثاقب المضىء . العقيقة : البرق إذا رأيته وسط السحاب كأنه سيف مسلول .

فزعموا أنه ليس من عادتهم أن يصفوا عَدْوَ الحمار بانقضاض الكوكب ، ولا بدن الحمار ببدن الكوكب ، وقالوا : فى شعر بشر مصنوع كثير ، مما قد احتملته كثير من الرواة على أنه من صحيح شعره ، فمن ذلك قصيدته التى يقول فيها :

فَرَجِّى الخَيْرَ وانْتَظِرِى إيَابِى   إذَ مَا القَارِظُ العَنَزِىُّ آبَا[1]

. . . . وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودىّ فلعمرى إنه لجاهلى ، وما وجدنا أحداً من الرواة يشك فى أن القصيدة مصنوعة . وبعد فمن أين علم الأفوه أن الشهب التى يراها إنما هى قذف ورجم ، وهو جاهلى ، ولم يَدَّعِ هذا أحد قطّ إلا المسلمون ؟ فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة » .

وأما ابن قتيبة فقد أشار إلى النحل والوضع فى موطنين من كتابه « الشعر والشعراء » . أورد فى الموطن الأول قول الأعشى[2] :

إنَّ مَحلاًّ وإنَّ مُرْتَحَـلا   وإنَّ فى السَّفْرِ مَا مَضَى مَهَلَا
اسْتَأْثَرَ اللهُ بالْوَفَاءِ وَبالْـ   ـحَمْدِ وَوَلَّى المَلاَمَةَ الرَّجُلَا
والأَرْضُ حَمَّالَةٌ لِمَا حَمَّلَ اللَّـ   ـهُ وَمَا إنْ تَرُدُّ مَا فعَلاَ
يوْماً تَرَاهَا كَشِبْهِ أَرْدِيَةِ الْـ   ـعَصْبِ وَيَوْماً أَدِيمُهَا نَغِـلاَ[3]

ثم عقب عليها بقوله : وهذا الشعر منحول ، ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن إلا قوله :

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المَطِىَّ وَلاَ   يَشْرَبُ كَأْساً بكَفِّ مَنْ بَخِلاَ

وأورد فى الموطن الثانى سبعة أبيات من شعر لبيد آخرها قوله[4] :

وَكُلُّ امْرِىءٍ يَوماً سَيَعْلَمُ سَعْيَهُ   إذَا كُشِفَتْ عِنْدَ الإلٰهِ المَحَاصِلُ

---

(١) القارظ العنزى : رجل من عنزة (بفتح العين والنون) خرج يطلب القرظ فلم يرجع ، فضربت به العرب مثلا .

(٢) الشعر والشعراء ١ : ١٤ .

(٣) العصب : ضرب من برود اليمن . النغل : الفاسد الدباغة .

(٤) الشعر والشعراء ١ : ٢٣٧ .

ثم عقب عليه بقوله : « وهذا البيت الآخر يدل على أنه قيل فى الإسلام ، وهو شبيه بقول الله تبارك وتعالى "وحُصِّلَ ما فى الصدُور" ؛ أو كان لبيد قبل إسلامه يؤمن بالبعث والحساب ؛ ولعل البيت منحول » .

٣

تلك هى إشارات القدماء من الرواة العلماء ، فى القرنين الثانى والثالث ، إلى الوضع والنحل فى الشعر الجاهلى . وقد قصدنا إلى أن نُلمّ بها بعض الشىء ليستبين لنا وجه البحث ، وليكون تعقيبنا عليها — حين نعقب بعد صفحات[1] — وافياً مستوعباً . ومع ذلك فقد أغفلنا الإشارة إلى اثنين من هؤلاء العلماء هما : عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية (المتوفى سنة ٢١٨ هـ) ، ومحمد بن سلاّم (المتوفى سنة ٢٣١ هـ) صاحب كتاب طبقات الشعراء ، وقد ادخرناهما لنختصهما وحدهما بالعرض والتعقيب ، إذ أن إشاراتهما فى كتابيهما أصبحت بعدُ ركيزةً من ركائز الذين يشكّون فى الشعر الجاهلى من المحدثين ، وصار الكتابان مَعْلَمين من معالم هذا البحث .

أما ابن هشام فعمله فى السيرة قائم على ما صنفه محمد بن إسحق (المتوفى سنة ١٥٢ هـ) ، فقد تعقب ما أورده ابن إسحق فاختصر بعضه ، ونقد بعضه ، ثم ذكر روايات أخرى فات ابن إسحق ذكرها ، ويعنينا نحن من ذلك ما وصف به عمله هذا من قوله[2] : « وتارك بعض ما يذكره ابن إسحق فى هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شىء ، وليس سبباً لشىء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت

---

(١) وذلك فى حديثنا عن توثيق الرواة وتضعيفهم فى الفصل الخامس ؛ وكذلك فى حديثنا عن ابن إسحق فى الفصل الرابع من الباب الأخير .

(٢) السيرة النبوية ١ : ٤ .

من الاختصار ، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره . . . »

وهذه الأشعار التى ذكرها ابن إسحق فى سيرته والتى لم يَرَ ابن هشام أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها — قد وقف عندها ابن سلام وقفات طوالاً ؛ فقد قال[1] : « وكان ممن أفسد الشعر وهجَّنه وحمل كل غُثاء منه : محمد بن إسحق ابن يسار ، مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسِّيَر ... . فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر ، أوتى به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذراً . فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ . أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر؟ ومن أدّاه منذ آلاف السنين ؟ والله تبارك وتعالى يقول : ﴿فَقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الذين ظَلَمُوا﴾ أى : لا بقيةَ لهم . وقال أيضاً : ﴿وأَنَّهُ أَهْلَكَ عادا الأُولَى ، وثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ وقال فى عاد : ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ﴾ وقال : ﴿وَقُروناً بَيْنَ ذٰلِكَ كَثِيراً﴾ وقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ . قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلَّا الله﴾ .

وقال ابن سلام كذلك[2] « ولأبى سفيان بن الحارث شعر كان يقوله فى الجاهلية ، فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل . ولسنا نَعدُّ ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأنْ لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم » .

ويقول فى موطن ثالث[3] : « فلو كان الشعر مثل ما وُضع لابن إسحق ، ومثل ما رواه الصحفيون ، ما كانت إليه حاجة ، ولا فيه دليل على علم » .

(١) طبقات فحول الشعراء : ٨ — ٩ .
(٢) المصدر السابق : ٢٠٦ .
(٣) المصدر السابق : ١١ .

فى سيرة ابن إسحق وتعقيب ابن هشام ما يستحق أن يوقف عنده وقفة خاصة به . ولقد تتبعت كل ما أخذه ابن هشام على ابن إسحق ونقده فيه ، فوجدته لا يعدو واحداً من أمور أربعة :

الأول : أنه يورد أبيات الشعر التى أوردها ابن إسحق ، وينسبها إلى من نسبها إليه ابن إسحق ، ثم يضيف أنها قد تنسب كلها أو بعضها إلى غيره . وقد تكرر منه ذلك فى ثمانية وعشرين موضعاً ، سأذكر أرقام صفحاتها على سبيل الحصر[١] ، وأكتفى بذكر بعضها على سبيل المثال . فمن ذلك ما يُرْوَى لأمية ابن أبى الصلت مما يُرْوَى لغيره أيضاً. فقد أورد أبياتاً عن ابن إسحق من شعر أبى قيس بن الأسلت ، ثم عقب عليها بقوله[٢]: « قال ابن هشام : وهذه الأبيات فى قصيدة له ، والقصيدة تُرْوَى لأمية بن أبى الصلت » . وكذلك قال ابن إسحق[٣]: « وقال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى فى شأن الفيل ، ويذكر الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام . قال ابن هشام : تُرْوَى لأمية بن أبى الصلت ابن أبى ربيعة الثقفى » . وقال ابن إسحق[٤]: « قال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى — قال ابن هشام : وتروى لأمية بن أبى الصلت » . وأورد ابن إسحق أبياتاً نسبها إلى زيد بن عمرو بن نفيل . فقال ابن هشام[٥]: « هى لأمية بن أبى الصلت فى قصيدة له ، إلا البيتين الأولين ، والبيت الخامس ، وآخرها بيتاً » .

وأورد كذلك أبياتاً نسبها إلى ورقة بن نوفل بن أسد ، فقال ابن هشام[٦] :

---

(١) السيرة ج ١ : ١٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٧ (مكرر) ، ٦٨ — ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٥ ، ١٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ / ج ٢ : ١٥٩ ، ٢٢٣ ، ٢٥٦ ، ٣١٠ / ج ٣ : ١٦ ، ٢٠ ، ٨٣ ، ١٣٩ ، ٢١٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٨٢ ، ٣٦٢ ، ج ٤ : ٥١ ، ٩٠ ، ١٩٩ .

(٢) المصدر السابق ١ : ٦٠ .

(٣) المصدر السابق ١ : ٦٢ .

(٤) المصدر السابق ١ : ٦٧ .

(٥) المصدر السابق : ٢٤٢ .

(٦) المصدر السابق ١ : ٢٤٧ .

« يُروى لأمية بن أبي الصلت البيتان الأولان منها وآخرها بيتاً فى قصيدة له » .

وقد أورد أبياتاً رواها ابن إسحق ونسبها إلى سيف بن ذى يزن الحميرى ، فعقب عليها ابن هشام بقوله[١] : « وهذه الأبيات فى أبيات له . وأنشدنى خلاد ابن قُرَّة السدوسى آخرها بيتاً لأعشى بنى قيس بن ثعلبة فى قصيدة له ، وغيره من أهل العلم بالشعر ينكرها له » . وأورد ثلاثة أبيات من الرجز نسبها إلى « رجل من العرب » فقال ابن هشام[٢]: « ومن الناس من ينحلها امرأ القيس ابن حجر الكندى » . وذكر ابن إسحق بيتاً نسبه إلى أعشى بنى قيس بن ثعلبة هو قوله[٣] :

بَيْنَ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ وَبَارِقٍ والبَيْتِ ذِى الكَعَبَاتِ مِنْ سِنْدَادِ

فقال ابن هشام : وهذا البيت للأسود بن يعفر النهشلى . . . فى قصيدة له . وأنشدنيه أبو مُحرز خلف الأحمر :

أَهْل الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ وَبارِقٍ والبَيْتِ ذِى الشُّرُفاتِ من سِنْدَادِ

وذكر ابن إسحق أبياتاً نسبها إلى عبد الله بن الزِّبَعْرَى ، فقال ابن هشام[٤] : «وتروى للأعشى بن زُرَارة بن النباش » . وكذلك ذكر أبياتاً لحسان فقال ابن هشام[٥]: « ويقال : بل قالها عبد الله بن الحارث السهمى » .

وأورد أبياتاً لحسان بن ثابت ، فعقب عليها ابن هشام بقوله[٦]: « آخرها بيتاً يروى لأبى خراش الهذلى ، وأنشدنيه له خلف الأحمر . . . وتروى الأبيات أيضاً لمعقل بن خويلد الهذلى » . وذكر أبياتاً نسبها ابن إسحق لحسان بن ثابت ،

---

(١) السيرة النبوية ١ : ٦٦ — ٦٧ .
(٢) المصدر السابق ١ : ٨٨ — ٨٩ .
(٣) المصدر السابق ١ : ٩١ .
(٤) المصدر السابق ٢ : ١٦ .
(٥) المصدر السابق ٢ : ٢٠ .
(٦) المصدر السابق ٢ : ٨٣ .

ثم عقب عليها ابن هشام بقوله[١]: « أنشدنيها أبو زيد الأنصارى لكعب بن مالك » .

والثانى : وأما الضرب الثانى من تعقّبه ابنَ إسحق فهو إيراده الحادثة التاريخية كما وردت فى سيرة ابن إسحق حتى إذا وصل إلى الشعر الذى قيل فى هذه الحادثة أسقطه ولم يثبته لأنه لم يصح عنده . ولعل ذلك قد تكرر منه فى مواطن كثيرة ، لأنه ذكر فى المقدمة أنه ترك أشعاراً ذكرها ابن إسحق ولم ير أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ؛ غير أننى حين تتبعت هذا الضرب من تعقيباته لم أجده نص عليه إلا فى موضعين اثنين ؛ فقد أورد مسير أبى كرب تبان أسعد إلى يثرب وغزوه إياها ، فلما وصل إلى شعر خالد بن الذى فيه[٢] :

حَنَقاً على سِبْطَيْنِ حَلَّا يَثْرِبَا أوْلَى لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

قال ابن هشام: « الشعر الذى فيه هذا البيت مصنوع ، فذلك الذى منعنا من إثباته » .

وكذلك أورد ما ذكره ابن إسحق من نذر عبد المطلب ذبحَ ولده ، وحذف ما جاء فى أثناء هذا الحديث من شعر وقال[٣]: « وبين أضعاف هذا الحديث رجز لم يصح عندنا عن أحد من أهل العلم بالشعر » .

والثالث : وضرب ثالث من تعقيباته يذكر فيه أبياتاً من الشعر الذى أورده ابن إسحق ، ويكتفى بها ، ولا يورد باقيها ثم يقول إن ذلك ما صح له منها ؛ وقد تكرر منه ذلك فى ثمانية مواضع[٤] ؛ منها : أن ابن إسحق أورد أبياتاً لعكرمةَ بن عامر بن هاشم بن عبد مناف ، وقد اجتزأ ابن هشام بثلاثة أبيات منها وقال[٥]: « قال بن هشام : هذا ما صح له منها » .

---

(١) السيرة ٣ : ١٣٨ — ١٣٩ .
(٢) المصدر السابق ١ : ٢٤ .
(٣) المصدر السابق ١ : ١٦٤ .
(٤) هى : ج ١ ص : ٥٣ (مرتين) ، ٦٨ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ٢٩٩ / ج ٣ ص : ١٨٧/ج ٤ ص : ٣٤ .
(٥) المصدر السابق ١ : ٥٣ .

وروى ابن إسحق أبياتاً كثيرة لأبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى ، ومع أن ابن هشام قال إنها تروى لابنه أمية ، فقد قال أيضاً[١] : « هذا ما صح له مما روى ابن إسحق منها إلا آخرها بيتاً قوله :

تِلْكَ المَكَارِمُ لاَ قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاَ

فإنه للنابغة الجعدى . . . فى قصيدة له » .

وروى ابن إسحق أبياتاً للحارث بن ظالم حين هرب من النعمان بن المنذر فلحق بقريش[٢] ، ولكن ابن هشام اكتفى بستة أبيات منها ، ثم قال : « هذا ما أنشدنى أبو عبيدة منها » .

وروى ابن إسحق أيضاً أبياتاً لعمرو بن الحارث ، فاجتزأ ابن هشام بثلاثة أبيات منها ، وقال[٣] : « هذا ما صح له منها ، وحدثنى بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل فى العرب ، وأنها وجدت مكتوبة فى حجر باليمن ولم يسم لى قائلها » ! !

وأورد ابن إسحق قصيدة أبى طالب ، فذكر ابن هشام منها أربعة وتسعين بيتاً ! ثم قال [٤] : « هذا ما صح لى من هذه القصيدة ! ! وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها » .

الرابع : أما فى الضرب الرابع فقد كان ابن هشام يورد الشعر الذى أورده ابن إسحق كاملاً لا يخرم منه بيتاً ، ثم يذكر أنها منحولة ؛ وقد تكرر منه ذلك

---

(١) السيرة ١ : ٦٨ — ٦٩ .

(٢) المصدر السابق ١ : ١٠٣ — ١٠٤ .

(٣) المصدر السابق ١ : ١٢١ — ١٢٢ .

(٤) المصدر السابق ١ : ٢٩٩ .

فى ستة وثلاثين موضعا[١] ويكاد يلتزم ، فى تعبيره عن شكه ، أربعة أنواع من العبارة :

(أ) فهو يورد ما رواه ابن إسحق من شعر لأبى بكر الصديق [٢] ، وعبد الله بن الزبعرى [٣] ، وسعد بن أبى وقاص[٤] ، وحمزة بن عبد المطلب[٥] ، وأبى جهل[٦] ، وهند بنت أثاثة [٧] ، وحسان بن ثابت [٨] ، وميمونة بنت عبد الله [٩] وكعب ابن الأشرف وعلىّ بن أبى طالب [١٠] ، والزبرقان بن بدر [١١] ، والحارث بن هشام [١٢] ، — ويعقب على كل قصيدة يوردها لهؤلاء بقوله « وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها له » .

(ب) ويورد ما رواه ابن إسحق من شعر لمالك بن الدخشم [١٣] ، ومكرز ابن حفص[١٤] ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب[١٥] ، وضرار بن الخطاب [١٦]

---

(١) هى — ج ١ : ١٧٩ / ج ٢ : ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، / ج ٣ : ٨ ، ١١ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦٣ ، ١٧٤ ، (مرتين) ، ١٧٨ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٦ ، ٢٣٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ (مرتين) / ج ٤ : ٣٤ : ٦٢ ، ٩٠ ، ٢٠٩ ، ٢٣١ .

(٢) ٢ : ٢٤٢ .
(٣) ٢ : ٢٤٤ .
(٤) ٢ : ٢٤٥ .
(٥) ٢ : ٢٤٦ ، ٣ : ٨ .
(٦) ٢ : ٢٤٨ .
(٧) ٣ : ٤٤ .
(٨) ٣ : ٥٦ ، ١٦٣ ، ١٩٣ .
(٩) ٣ : ٥٧ .
(١٠) ٣ : ٢٣٦ .
(١١) ٤ : ٢٠٩ .
(١٢) ٣ : ٨ — ١١ .
(١٣) ٢ : ٣٠٤ .
(١٤) ٢ : ٣٠٥ .
(١٥) ٣ : ٢٤ .
(١٦) ٣ : ٢٩ ، ١٤٨ ، ١٧٤ .

والحارث بن هشام[١] ، وهند بنت عُتبة[٢] ، وحسان بن ثابت[٣] ، وعبد الله بن الزبعرى[٣] ، وعمرو بن العاص[٤] ، وخُبيب بن عَدىّ[٥] ، ومسافع بن عبد مناف [٦]، — ويعقب على كل قصيدة يوردها لهؤلاء بقوله « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له » .

(ح) وإذا كان قد ذكر فى العبارات الأولى « أكثر أهل العلم بالشعر » وفى العبارات الثانية « بعض أهل العلم بالشعر » ، فقد ذكر أيضاً فى عبارات ثالثة « أنه لم ير أحداً من أهل العلم بالشعر » يعرف هذه الأبيات . فمن ذلك أن ابن إسحق روى عن محمد بن سعيد بن المسيب خبر وفاة عبد المطلب بن هاشم وبكاء بناته الستّ عليه ، وهنّ : صفية ، وبَرّة ، وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء ، وأميمة ، وأروى — وقد بكت عليه كل واحدة منهن بشعر أورده ابن هشام ، ثم عقب عليه بقوله[٧] — « ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر ، إلا أنه لما رواه عن محمد بن سعيد بن المسيب كتبناه » .

وكذلك روى ابن إسحق قصيدتين ، الأولى : لعلى بن أبى طالب فى يوم بدر ، والثانية : نقيضتها للحارث بن هشام بن المغيرة ، وقد أوردهما ابن هشام ، وقال[٨] : « ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ولا نقيضتها ، وإنما كتبناهما لأنه يقال إن عمرو بن عبد الله بن جُدْعان قُتِل يوم بدر ، ولم يذكره ابن إسحق فى القتلى ، وذكره فى هذا الشعر » .

---

(١) ٣ : ٣٠ .
(٢) ٣ : ٤١ ، ٤٢ ، ١٧٨ .
(٣) ٣ : ١٥١ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٨١ .
(٤) ٣ : ١٥٤ .
(٥) ٣ : ١٨٥ .
(٦) ٣ : ٢٨٠ .
(٧) ٢ : ١٧٩ .
(٨) ٣ : ١١ .

وروى ابن إسحق أبياتاً لعلى بن أبي طالب ، فأوردها ابن هشام وقال[١] : « قالها رجل من المسلمين يوم أُحد غير عليّ ، فيما ذكر لى بعض أهل العلم بالشعر ، ولم أر أحداً منهم يعرفها لعليّ » .

وكذلك روى ابن إسحق قصيدة أخرى لعلى يذكر فيها إجلاء بنى النَّضير ، فأوردها ابن هشام ، وقال[٢] : « قالها رجل من المسلمين غير عليّ بن أبي طالب ، فيما ذكر لى بعض أهل العلم بالشعر ، ولم أر أحداً منهم يعرفها لعليّ » .

(د) وقد نص فى موضع واحد على اسم عالم من علماء اللغة والشعر والأخبار هو أبو عبيدة ؛ وذلك أنه أورد قصيدة من اثنى عشر بيتاً رواها ابن إسحق لعمرو ابن معديكرب . ثم قال إن أبا عبيدة أنشده الأبيات الثلاثة الأولى منها ، وفيها خلاف فى رواية بعض ألفاظها ، وأنه لم يعرف سائرها[٣] .

ويحسن بنا أن نختم حديثنا عن ابن إسحق وابن هشام بذكر طائفة من المآخذ التى استدركها ابن هشام على ابن إسحق ولم ندخلها فى الضروب الأربعة السابقة وهى :

١ — يروى ابن إسحق قصيدة لأمية بن أبي الصلت يبكى زَمعَة بن الأسود وقتلَى بنى أسد ، ويوردها ابن هشام كما رواها ابن إسحق ويعقب عليها بقوله[٤] : « هذه الرواية لهذا الشعر مختلطة ، ليست بصحيحة البناء ، ولكن أنشدنى أبو محرز خلف الأحمر وغيره ، روى بعضٌ ما لم يرو بعض . . » ثم يورد القصيدة بهذه الرواية الأخرى صحيحة البناء مستقيمة الوزن .

٢ — ويروى ابن إسحق قصيدة من ثلاثة عشر بيتاً للعباس بن مرداس ، وقد

---

(١) السيرة ٣ : ١٧٤ .
(٢) المصدر السابق ٣ : ٢٠٦ .
(٣) المصدر السابق ٤ : ٢٣١ .
(٤) المصدر السابق ٣ : ٣٤ .

رواها كلها متتابعة على أنها قصيدة واحدة — إذ أنها ذات وزن واحد ورويّ واحد — وأوردها على ذلك ابن هشام، ثم عقب عليها بقوله[١]: « قال ابن هشام: من قوله " أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها " إلى آخرها ، فى هذا اليوم ، وما قبل ذلك فى غير هذا اليوم، وهما مفصولتان ، ولكن ابن إسحق جعلهما واحدة » .

٣ — ويحذف ابن هشام بيتاً أو أبياتاً من قصيدة رواها ابن إسحق، وليس سبب هذا الحذف أنه يشك فى صحة الشعر أو نسبته ، وإنما لأن الشاعر أقذع فيه[٢] . وكذلك أبدل كلمات من شعر رواه ابن إسحق لأن الشاعر « نال فيها من النبى صلى الله عليه وسلم »[٣] . وترك بيتين من قصيدة لأمية بن أبى الصلت لأنه « نال فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٤] .

٤ — وله أحياناً تعليقات على ما يورد من الشعر من حيث العروض أو من حيث جمال الشعر ، فمن ذلك أنه يذكر كلاماً لرَئِىٍّ من الجن هو « ألم تر إلى الجن وإبلاسها ، وإياسها من دينها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها » . ثم يعقب عليه بقوله[٥] : « قال ابن هشام : هذا الكلام سجع وليس بشعر ! ! » .

وذكر أيضاً ما كان يرتجز به المسلمون وهم يبنون مسجد المدينة ، وذلك قولهم : « لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة » وعقب عليه بقوله[٦] : « هذا كلام وليس برجز » .

ويورد أيضاً أبيات سُبَيعة بنت الأحبّ ، ومطلعها :

أَبُنَىَّ لا تَظْلِمْ بِمَكَّةَ لا الصَّغِيرَ وَلا الكَبِيرْ

---

(١) السيرة ٤ : ٨٤ .

(٢) انظر ١ : ٢/٢٨٧ : ٣/٥٤ : ١٩ ، ٢٠ ، ٨٦ ، ٩٧ ، ١٨٦ ، ٤/١٨٧ ، ٢١٣ .

(٣) المصدر السابق ٣ : ١١ .

(٤) المصدر السابق ٣ : ٣٢ .

(٥) المصدر السابق ١ : ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٦) المصدر السابق ٢ : ١٤٢ .

ثم قال[١] « يوقف على قوافيها لا تُعرَب » .

وأورد أبياتاً على الكاف المكسورة رواها ابن إسحق لأبى سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ثم عقب عليها بقوله[٢] : « يقيت منها أبيات تركناها لقبح اختلاف قوافيها » .

ويورد أبياتاً لحسان بن ثابت يذكر عدة أصحاب اللواء يوم أحُد ، ثم يعقب عليها بقوله [٣]: « هذه أحسن ما قيل » .

ويورد أبياتاً رواها ابن إسحق لأبى أسامة معاوية بن زهير بن قيس ، ويعقب عليها بقوله[٤]: « وهذه أصح أشعار أهل بدر » .

* * *

ذلك هو ابن هشام وصنيعه بسيرة ابن إسحق ، وذلك هو — على وجه الحصر — كل ما ذكره عن الشعر الجاهلى الذى رواه ابن إسحق فى سيرته .

أما ابن سلاّم فقد يصحّ أن نقسم حديثه عن وضع الشعر الجاهلى ونحله قسمين كبيرين ، أولهما : قواعد عامة وأحكام مرسلة يطلق القول فيها إطلاقاً ، لا يخصّص ولا يمثّل ، وأكثر حديثه عن هذا القسم جاء فى مقدمة كتابه . وثانيهما : نصٌّ على شعراء بعينهم وذكرٌ لشعر قالوه ، يذهب ابن سلام إلى أنه موضوع منحول .

فمن القسم الأول قوله[٥] : « وفى الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حجة فى عربيته ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ، ولا نسيب مستطرف . وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ،

---

(١) السيرة ١ : ٢٧ .
(٢) المصدر السابق ٢ : ٢٢٣ .
(٣) المصدر السابق ٣ : ١٥٦ .
(٤) المصدر السابق ٣ : ٣٥ .
(٥) طبقات فحول الشعراء : ٥ — ٦ .

ولم يعرضوه على العلماء . وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه — أن يقبل من صحيفة ، ولا يروى عن صحفى . وقد اختلف العلماء فى بعض الشعر ، كما اختلفت فى بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه » .

وقد روى لنا أن خلاّد بن يزيد الباهلى — وكان حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله — قال لخلف بن حيان الأحمر[1]: « بأى شيء ترد هذه الأشعار التى تُرْوَى ؟ قال له : هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : نعم. قال : أفتعلم فى الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم . قال : فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت » .

ومن هذا القسم أيضاً ما أشرنا إليه قبل قليل من حديثه عن محمد بن إسحق وصنيعه فى السيرة ، فقد قال عنه إنه كان[2] « ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه ، . . . فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر ، أوتى به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذراً . فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة . . . » ووصف حماداً الراوية بأنه[3] « كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد فى الأشعار » .

وقال أيضاً[4] « فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكَرَ أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواة بعدُ ، فزادوا فى الأشعار التى قيلت .

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٨ .

(٢) المصدر السابق : ٨ — ٩ .

(٣) المصدر السابق : ٤٠ — ٤١ .

(٤) المصدر السابق : ٣٩ — ٤٠ .

وليس يُشكِل على أهل العلم زيادةُ الرواة ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولَّدون؛ وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال » .

أما القسم الثانى فيتفرع كذلك إلى جدولين ، أولهما : ذكر فيه ابن سلاَّم الشعراء وأرسل القول فى شعرهم إرسالاً ، من غير تخصيص بشعر بذاته . وثانيهما : وقف فيه عند بيت أو أبيات من شعر الشاعر ونص على أن هذه الأبيات بعينها موضوعة منحولة .

فمن الأول قول ابن سلام[1]: « أخبرنى أبو عبيدة أن ابن داوود بن متمم ابن نويرة قدم البصرة فى بعض ما يقدم له البدوى فى الجلَب والميرة ، فنزل النَّحيت ؛ فأتيته أنا وابن نوح العطاردى ، فسألناه عن شعر أبيه متمم، وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته . فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التى ذكرها متمم ، والوقائع التى شهدها . فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله » .

وكذلك قوله[2]: « ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه ، قلة ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرَفة وعَبيد ، اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر . . . ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر . وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك لذاك . فلما قل كلامهما حُمل عليهما حمل كثير » .

وشكَّ كذلك فى شعر عَبيد بن الأبرص فقال عنه إنه[3] « قديم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ فالْقُطَبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

ولا أدرى ما بعد ذلك ! ! » .

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٤٠ .
(٢) المصدر السابق : ٢٣ .
(٣) المصدر السابق : ١١٦ .

وشك كذلك فى شعر علقمة بن عبدة فقال[١]: « ولابن عبدة ثلاث روائع جياد ، لا يفوقهن شعر » . وبعد أن ذكر مطالعها قال « ولا شيء بعدهن يذكر[٢] » .

وشك فى شعر عدى بن زيد ، فقال عنه إنه[٣] « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد ، واضطرب فيه خلف الأحمر ، وخلّط فيه المفضل فأكثر » .

وقال كذلك عن الأسود بن يعفر[٤]: « وله شعر كثير جيد ... وذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول : له ثلاثون ومائة قصيدة . ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريباً منه ؛ وقد علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروى ، ويتجوزون فى ذلك بأكثر من تجوزنا . . . »

وذكر حسان بن ثابت فقال عنه إنه[٥] « كثير الشعر جيده ، وقد حُمل عليه ما لم يحمل على أحد . لما تعاضهت قريش واستبّت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنقّى » .

وذكر أيضاً أبا سفيان بن الحارث وقال إن له شعراً كان يقوله فى الجاهلية[٦] « فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل . ولسنا نعدّ ما يروى ابن إسحق له ، ولا لغيره شعراً ، ولأنّ لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم » .

وأما الجدول الثانى من هذا القسم فهو الذى يقف فيه عند بيت أو أبيات

---

(١) طبقات فحول الشعراء: ١١٦ – ١١٧ .

(٢) لعل ابن سلام هنا لا يشك فى الشعر المنسوب إلى علقمة ، وإنما يريد أن يفضل قصائده الثلاث على سواها من شعره ، وذلك معنى قوله : « ولا شيء بعدهن يذكر » .

(٣) المصدر السابق : ١١٧ .

(٤) المصدر السابق : ١٢٣ .

(٥) المصدر السابق : ١٧٩ .

(٦) المصدر السابق : ٢٠٦ .

بعينها من شعر الشاعر . فمن ذلك أنه روى بيتاً لعباس بن مرداس يذكر فيه عدنان هو قوله[١] :

وعَكّ بن عدْنَانَ الذِينَ تَلَعَّبوا بمَذْحِجَ حَتَّى طُرِّدُوا كُلَّ مَطْرَدِ

وقد قال راوى الكتاب أبو خليفة الفضل بن الحُباب عقب ذلك: « والبيت مريب عند أبي عبد الله » — يعنى ابن سلام .

وقال ابن سلاّم[٢]: « أخبرنى أبو عبيدة عن يونس قال: « قدم حماد البصرةَ على بلال بن أبي بُرْدَة ، وهو عليها ، فقال : ما أطرفتنى شيئاً ؛ فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مديح أبي موسى[٣] . فقال : ويحك ، يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به ، وأنا أروى شعر الحطيئة ؟ ! ولكن دعها تذهب فى الناس ! » .

وقال كذلك[٤]: « ويروى عن الشعبيّ ، عن رِبْعيّ بن خِراش: أن عمر ابن الخطاب قال : أيّ شعرائكم الذى يقول :

فَأَلْفَيْتُ الأَمَانَةَ لم تَخُنْهَا كَذٰلِكَ كَانَ نُوحٌ لاَ يخُونُ

وهذا غلط على الشعبي ، أو من الشعبي ، أو من ابن خراش . أجمع أهل العلم على أن النابغة لم يقل هذا ، ولم يسمعه عمر ، ولكنهم غلطوا بغيره من شعر النابغة » .

وأورد بيتين ذكر أنهما مما « يحمل على لبيد » هما[٥] :

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ١١ .
(٢) المصدر السابق : ٤١ .
(٣) هى قصيدته الميمية ، وانظر الأغانى ٢ : ١٧٥ — ١٧٦ .
(٤) المصدر السابق : ٤٩ — ٥٠ .
(٥) المصدر السابق : ٥٠ .

بَاتَتْ تَشَكَّى إِلَىَّ النَّفْسُ مُجْهِشَةً   وقَدْ حَمَلْتُكِ سَبْعاً بَعْدَ سَبْعِينِ
فَإِنْ تَعِيشِى ثَلاثاً تَبْلُغِى أَمَلاً   وَفِى الثَّلاثِ وَفَاءٌ لِلثَّمَانِينِ

ثم قال: « ولا اختلاف فى أن هذا مصنوع تكثَّر به الأحاديث، ويستعان به على السهر عند الملوك، والملوك لا تستقصى » .

وذكر أبا طالب فقال إنه كان[1] « شاعراً جيد الكلام، وأبرع ما قال قصيدته التى مدح فيها النبى صلى الله عليه وسلم، وهى :

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بوَجْهِهِ   رَبِيعُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

ثم قال: « وقد زيد فيها وطُوِّلت . رأيت فى كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة، وقد علمت أن قد زاد الناس فيها، فلا أدرى أين منتهاها. وسألنى الأصمعى عنها فقلت : صحيحة جيدة . قال: أتدرى أين منتهاها ؟ قلت: لا أدرى . . . »

وذكر ابن سلام بيتين قال إن الناس يروونهما لأبى سفيان بن الحارث . ثم قال[2]: « وأخبرنى أهل العلم من أهل المدينة : أن قُدامة بن موسى بن عمر ابن قدامة بن مظعون الجمحى قالها ونحلها أبا سفيان ؛ وقريش ترويه فى أشعارها » .

وأورد أربعة أبيات مما يروى لزهير بن أبى سُلمىَ وقال إنها لقُرَّاد بن حنش من شعراء غَطفَان ، « وكان جيد الشعر قليله ، وكانت شعراء غَطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبى سلمى ادعى هذه الأبيات »[3] .

وأورد أرجوزة للأغلب العجلى قالها فى سَجاح لما تزوجت مسيلمة الكذاب ؛

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٢٠٤ .
(٢) المصدر السابق : ٢٠٨ – ٢٠٩ .
(٣) المصدر السابق : ٥٦٨ – ٥٦٩ .

ثم قال[1]: «حدثني الأصمعي : أنه كان يقال إن هذه القصيدة فى الجاهلية لحُشَيم بن الخزرج» .

وبعد :

فقد قام حديثنا فيما تقدم من صفحات هذا الفصل على تتبع آراء القدامى المتفرقة فى الكتب عامة ، وكتابى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سلام خاصة ؛ فدرسناها وصنفناها، ورتبناها ، ثم اكتفينا بالعرض المجرّد، على أن نعود إلى نقد هذه الآراء ودراستها دراسة تنفى عنها ما فيها من زيف فى الفصل الخامس من هذا الباب ، بعد أن ندرس فى الفصل الثالث والرابع آراء المحدثين من المستشرقين والعرب ، ليتسنّى لنا أن ننظمهم معاً فى حديث واحد .

---

(١) المصدر السابق : ٥٧٣ — ٥٧٦ .

الفصل الثالث

النحل والوضع فى الشعر الجاهلى
آراء المستشرقين

١

أما المحدثون من المستشرقين فلعل مرجوليوث D.S. Margoliouth هو من أوائل من أثار منهم الشك فى الشعر الجاهلى فى مقالة كاملة ، خصص صفحاتها الكثيرة للحديث عن هذا الموضوع من جميع أطرافه[1] . فقد نشر فى مجلة الجمعية

---

(١) حصرنا حديثنا فى هذه الصفحات فى المقالة التى خصصها مرجوليوث للحديث عن وضع الشعر الجاهلى والتشكيك فيه ، وقد تحدث مرجوليوث قبل هذه المقالة ، عن وضع الشعر الجاهلى ، ولكن أحاديثه هناك كانت عبارة مقتضبة ، تجىء فى ثنايا حديثه عن موضوع آخر . فمن ذلك ما نشره فى « معلمة الدين والأخلاق » Encyclopaedea of Religion and Ethics (مادة « محمد » المجلد الثامن ص : ٨٧٤) وما ذكره فى كتابه عن « محمد وظهور الإسلام » Mohammed and The Rise of Islam (ط سنة ١٩٠٥ ص: ٦٠) ، وما نشره فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية سنة ١٩١٦ ص : ٣٩٧ . ومن أمثلة ذلك أنه كان يتحدث فى كتابه « محمد وظهور الإسلام » عن لغة القرآن فقال : « لقد رأى العلماء أن فى لغة القرآن مشابه كبيرة من لغة الشعر الجاهلى ، ومع أنه من العسير علينا أن نكون لنا رأياً فى هذا الموضوع – لأننا نرى أن الشعر الجاهلى فى معظمه مصنوع وضع على مثال القرآن – فإنه يصح أن نقبل رأى العرب فى ذلك » . وكان يتحدث فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عن الكتب العربية التى ظهرت حديثاً حينئذ ، فعرض لكتاب الخصائص لابن جنى وأشار إلى ما ورد فيه من أمر اكتشاف الطنوج ، وفيها الشعر الذى مدح به النعمان . فقال مرجوليوث إن حماداً هو الذى روى هذا الخبر ، وحماد متهم بوضع الشعر الجاهلى ونحله « ولذلك فإن هذه القصة تدق مسماراً كبيراً فى نعش الشعر العربى القديم » ثم أشار إلى أن القصائد التى ذكرها ابن إسحق فى السيرة يقال إنها قد وضعت وضعاً من أجل ذلك الكتاب ، أما غير هذا من الشعر القديم الذى يرويه أهل الكوفة فقد كان من وضع خلف الأحمر ! !

الملكية الآسيوية — عدد يوليو سنة ١٩٢٥ — بحثاً عنوانه «أصول الشعر العربى»[١] رجح فيه أن هذا الشعر الذى نقرأه على أنه شعر جاهلى إنما نُظم فى العصور الإسلامية ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيّفون لشعراء جاهليين. وقد بنى رأيه هذا على ضربين رئيسيين من الأدلة : أدلة خارجية ، وأدلة داخلية . وسنعرض فى هذه الصفحات رأيه ، فى شىء من التفصيل .

الأدلة الخارجية :

١ — بدأ مرجوليوث مقالته بالحديث عن وجود الشعر فى الجاهلية ، فقال[٢] : إن وجود شعراء فى بلاد العرب قبل الإسلام أمر شهد به القرآن ، إذ أن فيه سورة واحدة باسمهم ، ثم يشير إليهم من حين إلى آخر فى مواطن أخرى . ومن بين الأوصاف التى كان خصوم النبى ينعتونه بها أنه كان شاعراً مجنوناً[٣] . وكان النبى ينفى عن نفسه هذه الصفة ويجيبهم بأنه إنما « جاء بالحق » . ووردت ، فى سورة أخرى ، ثلاثة ألفاظ هى : كاهن ، ومجنون ، وشاعر[٤] ، ويزعم مرجوليوث أن سياق الآية يدل على أن هذه الألفاظ الثلاثة فى معنى واحد (مترادفة) ، ثم قال : إن الذين وصفوه بأنه شاعر قالوا إنهم سيتربصون ليروا ما سيحدث له ! وهو يرى أنه يصح أن يُستنتج من ذلك أن من عادة الشعراء آنئذ التنبؤ بالغيب ! ! وأشار إلى أن القرآن قد ذكر أن لغته ليست لغة شاعر ولكنها لغة رسول كريم[٥] ، وأن الله لم يعلم النبى الشعر لأنه لاطائل له من

---

(١) D.S. Margoliouth, The Origins of Arabic Poetry, Journal of The Royal Asiatic Society, July 1925, PP. 417-449.

(٢) من صفحة ٤١٧ إلى صفحة ٤١٩ من المقالة السابقة .

(٣) « ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » (الصافات : ٣٦) .

(٤) « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » (الطور : ٢٩ ، ٣٠) .

(٥) « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » (الحاقة : ٤٠ — ٤٢) .

ورائه[١] ، وأن كلام النبي حقيقة مقررة وعظة واضحة[٢] . ويستنتج من ذلك أن الشعر كان آنئذ غامضاً مبهماً !

ويشير إلى أن خلاصة صفات الشعراء مجموعة فى السورة التى تحمل اسمهم . وفيها أنهم يتبعهم الغـاوون ، وأنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون . ويقول إن الآيات التى تلى هذه الأوصاف قد تبدو كأنما تستثنى بعض الشعراء الأتقياء من هذا الحكم ، ولكن أسلوب القرآن يجعلنا فى شك من أن المقصودين بهذا الاستثناء هم حقيقةً الشعراء . ويذهب إلى أنه يجوز لنا أن نستنتج مما تقدم أن الشياطين كانت تتنزل على الشعراء ، إذ أن القرآن ذكر أنهم يتنزلون على كل كاذب أثيم ، وأنهم ينقلون إليه أنباء كاذبة فى جملتها[٣] ويذكر أن هذه الآيات تشير إلى عمل الشياطين المذكور فى سورة أخرى وهو : استراقهم السمع فى المجالس السماوية ، فعوقبوا على هذا الذنب بأن ألقيت عليهم الشهب[٤] ، وهذا ثانيةً يصل بين الشعراء والتنبؤ بالغيب ! !

ثم يذهب إلى أنه إذا كان المقصود بالشعر هو هذا الشعر الذى عُرف فى الأدب العربى بعد ذلك ، فإننا نقع فى حيرة من الأمر ، وذلك أن محمداً الذى لم يكن يعرف الشعر ، كان يدرك أن ما يوحى إليه ليس بشعر ، بينما كان أهل مكة — وهم لا شك يعرفون الشعر إذا ما سمعوه أو رأوه — يظنون كلامه شعراً !

ويخلص مرجوليوث بعد هذا الحديث الطويل الذى لخصنا جملته ، إلى أنه

---

(١) « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » (يس ٦٩) .

(٢) « إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » (يس ٦٩) .

(٣) « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » (الشعراء ٢٢١ — ٢٢٣) .

(٤) « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » . (الصافات ٦ — ١٠) .

إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب » . (الصافات ٦ — ١٠) .

« ربما كان ما تبيح لنا الشواهد القرآنية قوله هو أنه كان قبل الإسلام بعضُ الكهان من بين العرب كانوا يُعرَّفون باسم « الشعراء » ، كانت لغتهم غامضة مبهمة كما هو الشأن دائماً فى الوحى »[١] .

٢ — وبعد أن ينتهى مرجوليوث من حديثه عن الشعر والشعراء كما استنتجه من آيات القرآن الكريم ، يبدأ فى عرض آراء العلماء المسلمين القدماء ويسميهم Archaelogists[٢]. فيثير مشكلة ابتداء الشعر العربى ونشأته، ويقرر أنها أمر فى الغاية من الغموض ، إذ أن القدامى قد ذهبوا فيها مذاهب متباينة . فقد عزا بعضهم شعراً عربياً إلى آدم[٣] ، بينما أورد آخرون قصائد غنائية عربية منذ عهد إسماعيل[٤] . ثم يقول إنه يبدو أن الرأى السائد أن الشعر العربى — بصورته التى ثبت عليها بعدُ — بدأ قبيل ظهور الإسلام بأجيال قليلة على أبعد تقدير . ومع أن الذين يذهبون هذا المذهب يجعلون مُهلهلاً أو امرأ القيس أول الشعراء فقد أوردوا شعراً لشعراء سبقوهما بزمن طويل[٥] . ثم يختم حديثه هذا ختاماً يكشف عن شكه فى كل ما أورد ، وذلك قوله[٦] : « ولو أننا عددنا القصة التى تعزو إلى مهلهل اختراعَ القصيدة حقيقة تاريخية ، فلا بد لنا من أن نُقرّ بأنه أصبح له مقلدون وأتباع كثيرون ، فبين أيدينا عدد وافر من المجلدات التى تشتمل على مجموع أشعار عدد كبير من الشعراء الذين عاشوا فى الفترة التى امتدت بين اختراعه وهجرة الرسول ! وجميع شعراء المعلقات العشر المشهورين أصحابُ دواوين أو مجموعات قصائد طُبع أكثرها وجاء فى صفحات كثيرة . وبجانب هؤلاء شعراء كثيرون يساوونهم فى الإكثار ولم يُعدُّوا من العشرة الخالدين. وفضلاً عن ذلك فإن القصائد الصادرة عن شعراء من قبائل معينة قد جُمعت فى

(١) المقالة السابقة : ٤١٩ — ٤٢٠ .
(٢) من صفحة : ٤٢١ .
(٣) المسعودى ، مروج الذهب ١ : ٦٥ .
(٤) الأغانى ١٣ : ١٠٤ .
(٥) الأغانى ١١ : ١٥٤ (خزيمة بن نهد) .
(٦) ص: ٤٢٢ — ٤٢٣ .

مجاميع ، طُبع أحدها . وتدل هذه القصائد بطبيعتها على معرفة بالهجاء ، وهى تشير فى مواطن كثيرة إلى الكتابة ، فلا شك إذن فى أن عرب ما قبل الإسلام — الذين كانوا يستخدمون لغة القرآن! — كانوا مجتمعاً أدبيًّا عالياً ! ولا تكاد بلاد الإغريق القديمة تعرض علينا عدداً مثل هذا من عبدة آلهة الفن! »

٣ — ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظ هذا الشعر الجاهلى ، فيقول[١]: « لو فرضنا أن هذا الشعر حقيقى ، فكيف حفظ ؟ لا بد أنه حفظ إما بالرواية الشفهية وإما بالكتابة . ويبدو أن الرأى الأول (أى الرواية الشفهية) هو الرأى الذى يذهب إليه المؤلفون العرب ، مع أنه ليس بالرأى الذى يجمعون عليه كما سنرى » . ثم يشك — كعادته — فى أن يكون الشعر الجاهلى قد حُفظ بالرواية الشفهية ، ويبنى شكه على ثلاثة أسباب ، الأول : « إذا كانت قصائد عدة ذات أبيات كثيرة قد حُفظت بالرواية الشفهية فلا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا وُجد أفراد عملهم أن يحفظوها فى ذاكرتهم وينقلوها إلى غيرهم ، وليس لدينا ما يدعونا إلى الظن بأن حرفةً مثل هذه قد وُجدت أو أنها بقيت خلال العقود الأولى من الإسلام ! » والثانى : ما يذهب إليه المسلمون من أن « الإسلام يجبُّ ما قبله »[٢] وما ورد فى القرآن من « أن [٣] أتباع الشعراء هم الغاوون فحديث القرآن عنهم فيه قسوة عليهم واحتقار لهم . فثمة إذن سبب قوى يدعو إلى نسيان الشعر الجاهلى — إذا كان ثمة شعر جاهلى حقيقة ! » [٢] والثالث مرتبط بالثانى وهو « أن الأعمال التى تخلدها عادة هذه القصائد كانت انتصارات القبائل بعضها على بعض، والإسلام ، الذى كان يرمى إلى توحيد العرب ونجح نجاحاً كبيراً فى تحقيق تلك الوحدة ، كان يحث على نسيان تلك الحوادث ، والقصائد التى من هذا الضرب تثير النفوس وتهيج الدماء[٣] » .

---

(١) ص : ٤٢٣ .

(٢) ص : ٤٢٤ .

(٣) ص : ٤٢٤ .

٤ — حتى إذا اطمأنّ إلى أنه قد فنّد ما ذهب إليه أكثر القدامى من أن الشعر الجاهلى قد حفظ لنا بالرواية الشفهية ، قال : « فلم يبق إلا الاحتمال الثانى وهو : أن هذه القصائد حُفظت بالكتابة » . ثم يعرض روايات قليلة تشير إلى أن بعض الشعر الجاهلى كان يُكتب[١] ، ويستنتج من ذلك أنه « ربما لا يوجد ما يتعارض مع ما تصرح به هذه القصائد إذا تخيلنا أنها كانت تذيع وتنتشر عن طريق الكتابة[٢] » . ولكنه لا يلبث أن يخضع لما يسيطر عليه من نزعة الشك فيحاول أن ينفى كتابة الشعر الجاهلى من وجهين ، الأول : ما يصرح به القرآن نفسه « فإن وجود أدب فصيح قبل الإسلام بلغة القرآن وبالكتابة الحميرية ، أو بأى خط آخر ، لأمر يبدو مناقضاً كل التناقض لصريح ألفاظ القرآن ولأحكامه التى يقررها بحيث لا يصح أن يوضع هذا الأمر موضع النظر ؛ فالقرآن يسأل أهل مكة : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ؟ ﴾[٣] ويسأل الكفار والمشركين : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾[٤] وأولئك الذين يخاطبهم القرآن لم ينزل على آبائهم نذير : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾.[٥] و ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ؟ بَلْ هُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[٦] . و ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، ولكنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[٧] . ولم يكن لأحد كتب سماوية إلا لمجتمعين : المجتمع

---

(١) ص : ٤٢٤ — ٤٢٥ .
(٢) ص : ٤٢٥ .
(٣) القلم ٣٧ .
(٤) القلم ٤٧ .
(٥) يس ٦ .
(٦) السجدة ٣ .
(٧) القصص ٤٦ .

المسيحى والمجتمع اليهودى : ﴿وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (١) ولم يكن للوثنيين كتاب من هذا الضرب . وهذا أمر من الصعب أن نفترض أن القرآن أخطأ فيه ، فإن رسولاً إلى الهندوس قد يحكم على كتبهم بأنها لا قيمة لها وأنها مضللة ، ولكنه لا ينكر وجودها . ولو أن الشعر الجاهلى كان مكتوباً لكان للجاهليين كثير من الكتب (وهى كتب فى الحقيقة موحى بها) ، قد تكون غير مشذبة أو مصقولة — مع أنها لم تكن جميعاً كذلك كما سنرى — ولكنها مع ذلك كافية لأن تجيب عن أسئلة القرآن بالإثبات ؛ ولكن القرآن ، لا شك ، يزعم أن الجواب بالنفى »(٢) .

أما الوجه الثانى فهو ما يدعوه « مجرى التطور الأدبى » ، وهو ، فى حديثه هذا ، يجمجم فى ألفاظه ولا يكاد يبين ، ومع ذلك فإن الهدف الذى يرمى إليه واضح ، فهو يذهب إلى أن الأدب فى تطوره يسير عادةً ، وربما دائماً ، من الصور الشاذة غير المنتظمة إلى الصور المألوفة المنتظمة ، ومن هنا يرى أن الشعر الذى يُزعم أنه جاهلى إنما هو مرحلة تالية للقرآن لا سابقة عليه ، وذلك قوله(٣) : « إن الأساليب الأدبية العربية ، سواء النثر المسجوع والشعر ، فيها مشابه من أسلوب القرآن. وفى القرآن آيات لا ينكر أنها نثر مسجوع إلا الغلاةُ من المتشددين ؛ وفيه أيضاً ، فى مواطن متعددة ، أمثلة على كثير من الأوزان الشعرية . والتطور من الأسلوب القرآنى إلى الأسلوب المنتظم regular يبدو متمشياً مع المألوف . وإذا كان القرآن أول أثر فى اللغة يظهر فيه الفن الأدبى فإن ما يدعيه لنفسه من الإعجاز فى الفصاحة أمر من اليسير على الناس فهمه ، وهو لا يختلف بذلك

---

(١) الأنعام ١٥٦ .

(٢) المقالة السابقة : ٤٢٥ — ٤٢٦ .

(٣) ص : ٤٢٦ .

كثيراً عما يدعيه لأنفسهم أولئك الذين أدخلوا، لأول مرة، النظم فى اللغة أو ينسبه إليهم الآخرون . أما إذا كان المستمعون قد تعودوا سماع النثر المسجوع والشعر الكامل المصقول كما يبدوان فى أساليب الآثار الأدبية التى تدل فى ظاهرها على أنها جاهلية ، فإن من العسير إقامة الدليل على هذا الادعاء » .

٥ ــ ثم يتطرق بعد ذلك إلى الحديث عن الرواة من علماء القرنين الثانى والثالث الهجريين ، فيذكر حماداً ، وجناداً ، وخلفاً الأحمر ، وأبا عمرو بن العلاء، والأصمعى ، وأبا عمرو الشيبانى ، وابن إسحق صاحب السيرة ، والمبرد ، فيجمع بعض ما انتثر فى الكتب العربية من إشارات تُشيع الشك فى بعض ما جمعوا أو أوردوا من الشعر الجاهلى[1] ، ثم أضاف إلى ذلك آراء هؤلاء الرواة العلماء بعضهم فى بعض ، فقال[2] : « إن هؤلاء العلماء لم يكن يوثّق بعضهم بعضاً، فابن الأعرابى كان يتّهم الأصمعى وأبا عبيدة ، وربما بادلوه اتّهاماً باتّهام ، ولا شك فى أن كلا منهم كان يتّهم الآخر » . وسنورد تفصيل هذه الروايات فى الفصل التالى .

وقد ختم حديثه عن هذه النقطة بقوله[3]: « وقد نقبل أن بعض العلماء كانوا يشكون ، بل كانوا ينقدون ، فلم يضعوا ولم ينحلوا ، وأدخلوا فى مجموعاتهم ما كانوا يعتقدون أنه حقيقة شعر قديم ، ولكن هذا يعود بنا إلى التساؤل عن مصادرهم . فقد كانت رسالة محمد حدثاً عظيماً فى بلاد العرب : كانت انفصالاً عن الماضى يندر مثيله فى التاريخ . فقد ترك الناس، من جميع أنحاء شبه الجزيرة، مساكنهم ليستوطنوا فى بلاد لم يكن إلا القليل منهم يسمع بها . وقد واكبت الإسلامَ وتلته حروبٌ أهلية فى داخل شبه الجزيرة . ولم يكن الإسلام متسامحاً مع الوثنية القديمة حتى ولا تسامحَ استصغارٍ لشأنها ، بل كان يناصبها أشد

(١) من صفحة : ٤٢٨ إلى : ٤٣٤ .
(٢) ص : ٤٣٠ .
(٣) ص : ٤٣٣ ــ ٤٣٤ .

العداء ، ولم يقبل أن يلتقى معها فى مكان سُوِّى. فإذا كان الشعراء هم لسان الوثنية الناطق ، فمن هم أولئك الذين حفظوا فى صدورهم ، ثم نقلوا إلى غيرهم ، تلك الأشعار التى تنتسب إلى نظام أبطله الإسلام ؟ ونستطيع أن نتتبع الشعور بهذه الصعوبة فى ذلك الحل الذى يقال إن حماداً قدّمه ، وهو أن الأشعار كانت مدفونة حينما كانت الحماسة للإسلام فى أشدها ، ثم اكتشفت مصادفة حينما بردت تلك الحماسة بعض الشىء » .

ولكن مرجوليوث لا يطمئن إلى ما انتهى إليه : فلا يكاد يتم حديثه السابق حتى يعقب عليه بقوله إن هؤلاء الشعراء لم يكونوا كما يبدو عليهم « لسان الوثنية الناطق ، بل كانوا مسلمين فى كل شىء ما عدا الاسم . »[1] ومن أجل أن يبرهن على حكمه هذا ينتقل إلى الضرب الثانى من الأدلة التى يرى أنها كفيلة بإشاعة الشك فى صحة الشعر الجاهلى ، وهى الأدلة الداخلية :

١ — وأول هذه الأدلة الداخلية — كما يراها مرجوليوث — هو ما فى هذا الشعر الجاهلى من إشارات إلى قَصَص دينى ورد فى القرآن ، وما فيه من كلمات دينية إسلامية مثل : الحياة الدنيا ، ويوم القيامة ، والحساب ، وبعض صفات الله . وقد بدأ مرجوليوث حديثه عن هذا الدليل بقوله[2] « إن الشعراء ، من جميع الأمم ، لا يتركون الناس بعدهم يشكون فى أمر ديانتهم ، والعرب فى نقوشهم واضحون صريحون كذلك فى هذا الموضوع ، فإن أكثر هذه النقوش تذكر إلهاً أو آلهة وأموراً تتصل بعبادتها . . ولكن الإشارات إلى الدين فى الأشعار التى بين أيدينا قليلة . . . ولا نجد من الشعر جوَّ الآلهة المتعددة الذى نجده فى النقوش . وربما كان هذا الذى أوحى للأب شيخو نظريته فى أنهم كانوا جميعاً نصارى ، ولكن يبدو أن هذه النظرية غير صحيحة ، فإن بعض هؤلاء الذين افترض أنهم نصارى عبروا عن أنفسهم بطريقة تُظهِر فى وضوح أنهم ينتسبون إلى مجتمع آخر مختلف.

(١) ص : ٤٣٤ .
(٢) ص : ٤٣٤ .

فأعشى قيس، وهو مذكور فى كتاب شيخو ، يتحدث عن المصلين أو العُبَّاد متحلّقين حول باب حاميهم مشبهاً تحلقهم بتحلق النصارى حول بيت صنمهم[١]، وأحد الأمثلة القليلة التى نجد فيها قسماً بآلهة وثنية نجده فى بيت منسوب إليه[٢]».

ثم يمضى مرجليوث فى حديثه فيقول[٣]: « وحيثما يكن النصارى تكن لهم كتبهم المقدسة ، وتتأثر لغتهم وأفكارهم تأثراً كبيراً بتعبيرات الأناجيل ورسائل الحواريين والأناشيد، ويتخذ شعرهم فى الغالب طابع الترانيم. ولكن فى الشعر — الذى يفترض أنه شعر جاهلى — ندرة كبيرة فى الإشارات إلى الكتاب المقدس وتعاليم المسيحية حتى لدى الشعراء الذين ازدهروا فى بلاط مسيحى . . وبالرغم من أن الشعراء الجاهليين يقسمون كثيراً ، فهم لا يكادون يختلفون فى قسمهم بالله، وهو قسم شائع حقّاً فى دواوينهم ، حتى إن عبيد بن الأبرص الجاهلى يقسم بلغة القرآن وذلك قوله[٤] :

حَلَفْتُ باللهِ إنَّ اللهَ ذُو نِعَمٍ لِمَنْ يَشَاءُ وَذو عَفْوٍ وتصْفَاحِ

وفكرتهم عن أعمال الله لا يستنكرها موحِّد ، فهى قد سبقت فى التعبير عما يعبر عنه القرآن فى كل التفصيلات على وجه التقريب » . ثم يمضى مرجليوث يضرب لنا الأمثلة على ذلك ، فيمثل ببيت ذى الإصبع العدوانى الذى يصف فيه الله بأنه «الذى يقبض الدنيا ويبسطها »، ويمثل ببيت جليلة بنت مُرّة على أن النساء كنّ يلجأن إلى الله إذا حزبهن أمر كالثكل ، وهو قولها :

إننى قَاتِلَةٌ مَقْتُـولَةٌ ولَعَلَّ اللهَ أنْ يَرْتَاحَ لى

---

(١) يقصد قول الأعشى :

تَطُـوفُ العُفَـاةُ بـأَبْوابِهِ طَوَافَ النَّصَارَى بِبَيْتِ الوَثَنْ

(ديوانه ق : ٢ ، ب : ٥١) .

(٢) انظر الأغانى ٢٠ : ١٣٩ .

(٣) ص : ٤٣٥ .

(٤) ديوانه ق : ٢٤ ، ب : ٢ .

ويتمثل كذلك ببيت عبيد بن الأبرص :

مَنْ يَسْأَلِ النَاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَائِلُ اللهِ لَا يَخِيبُ

ويشير إلى أنهم كانوا يخشون ما يغضب الله من الذنوب ، ويتمثل ببيت امرئ القيس :

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْمًا مِنَ اللهِ وَلَا وَاغِلِ

ويذكر أنهم كانوا يصفون الله بأنه ذو الأمر المقضيّ ، ويشير إلى بيت الحارث ابن حلزة :

فَهَدَاهُمْ بِالْأَسْوَدَيْنِ وَأَمْرُ الـ ـلَّهِ بَلْغٌ تَشْقَى بِهِ الْأَشْقِيَاءُ

إلى آخر ما يورد من أمثلة هذا الباب . ثم يستنتج من ذلك[1] « أن الديانة الوحيدة التى يصح أن يعتنقها هؤلاء الشعراء الجاهليون هى الإسلام » . ويقول إن هؤلاء الشعراء لم يكونوا « موحدين متمسكين بالوحدانية حسب ، بل إنهم ليكشفون عن معرفتهم بأمور يذكر القرآن أنها لم يكن يعرفها العرب قبل نزول الوحى . ففى سورة رقم ١١ آية ٥١ يذكر أنه لا محمد ولا قومه سمعوا من قبل بقصة نوح[2] ، وهذا القول متفق مع ما نستنبطه من النقوش التى لا تشير إلى السلالات العربية الواردة فى التوراة والتى تشير إليها هذه القصة » . ثم يشير إلى أن النابغة كان يعرف هذه القصة بتفصيلاتها ، ويعقب على ذلك بقوله : « ويبدو أن القرآن هو المصدر الوحيد عن هذا الأمر » ، ويورد بيت النابغة :

فَأَلْفَيْتُ الْأَمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يَخُونُ

---

(١) ص : ٤٣٦ .

(٢) « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ؛ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » (هود ٤٩) .

ويقول « وهنا إشارة واضحة إلى الصفة " أمين" ، وهى فى القرآن من صفات نوح[١] » .

ثم يتحدث عن الألفاظ الإسلامية فى شعر عنترة فيقول[٢] « وواضح أن عنترة العبسى كان يعرف وحى القرآن ومصطلحات الإسلام » . وذلك لأنه استخدم ألفاظ « قبلة القُصَّاد[٣] » و « الركوع والسجود »[٣] و « حجر المقام »[٤] و « الجحيم »[٥] و « المحشر »[٦] وغيرها ، ولذلك قال عنه إنه « لا داعى للشك فى أنه كان مسلماً تقيًّا صالحاً ، غير أن حياته انتهت قبل الإسلام ! ! »

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن لفظة « الدنيا » فيقرر أن القرآن أول من استعمل لفظ « الدنيا » للدلالة على الحياة أو هذا العالم ، ثم يقول[٧] « غير أن الشعراء الجاهليين كانوا على معرفة تامة بهذا التعبير » . وهنا يمثل بقول عبيد ابن الأبرص « طيبات الدنيا » ، وقول ذى الإصبع « عرض الدنيا » .

وبعد أن يفيض فى تفصيل القول وضرب الأمثلة ينتهى إلى قوله[٨] : « من المحتمل جداً أن نتصور أن محمداً كان له "سابقون" بمعنى أن بعض الأفراد ثاروا قبل عهده على عبادة الأوثان فى وسط بلاد العرب ؛ ومن الواضح ، فضلاً عن ذلك ، أن النصرانية سيطرت على أجزاء من شبه الجزيرة . ولو أن الشعراء الجاهليين نظموا كما ينظم النصارى مضمنين المبادئ المسيحية مظهرين معرفتهم بتعاليمها — لكان من الجائز أن تواجهنا بعض الصعوبات فى قصائدهم وتعترضنا

---

(١) « كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين » (الشعراء ١٠٥ - ١٠٧) .

(٢) ص : ٤٣٧ .

(٣) وذلك قوله : إذا بلغ الفطام لنا صبى تخر له أعادينا سجودا

(٤) وذلك قوله : عجوز من بنى حام بن نوح كأن جبينها حجر المقام

(٥) قوله : كلما ذقت بارداً من لماها خلته فى فمى كنار الجحيم

(٦) قوله : ورجعت عنهم لم يكن قصدى سوى ذكر يدوم إلى أوان المحشر

(٧) ص : ٤٣٨ . (٨) ص : ٤٣٩ — ٤٤٠ .

مشكلة نقلها وحملها، أما ديانتهم وحدها فلن تكون حينئذ من بين هذه الصعوبات. ولكن حينما نجدهم يتحدثون كالمسلمين، متشددين فى توحيدهم كما صار أصحاب النبى بعد ذلك، وحينما كانوا يرددون صدى أى كتاب مقدس كان هذا الكتاب هو القرآن — فإنه من الصعب أن نقبل صحة هذه القصائد. إذ لماذا كان للعرب، الممثَّلين فى النقوش، آلهتهم المحلية المتعددة، بينما لم يكن يعرف شعراء البلاد نفسها إلهاً غير الإله الذى دعا محمد إلى توحيده؟ وحتى لو أننا افترضنا أن النقوش قد صدرت عن مجتمعات تختلف عن مجتمعات الشعراء، فماذا يحدث لرسالة محمد إذا كان الناس الذين "أنذرهم" يعتقدون بإله واحد وينتظرون يوم البعث؟ ولو أننا اتبعنا النقوش فلا بد من الاعتراف بأن جدل القرآن قد كان فى موطنه الصحيح الحق، وربما كانت مناسك عبادة المكيين وجيرانهم تختلف عن مناسك عبادة الجهات التى فيها النقوش، ولكنها كانت مشابهة لها إذ أنها من أسرة واحدة. ولكن آراء الشعراء الجاهليين فى الموضوعات الدينية تبدو مشابهة، بل مماثلة، لتلك التى يعلمنا إياها القرآن».

٢ — والدليل الثانى من الأدلة الداخلية هو: اللغة. ومدار حديثه فى هذا الدليل على أمرين: الاختلاف بين لهجات القبائل المتعددة، والاختلاف بين لغة القبائل الشمالية جملة واللغة الحميرية فى الجنوب. وهو يذكر أن هذا الاختلاف بنوعيه واضح فيما اكتشف من نقوش فى شمال شبه الجزيرة وفى جنوبيها. غير أن هذا الشعر الجاهلى كله — كما يشير مرجوليوث[1] «بلغة القرآن، بالرغم من استخدام كلمة أو صيغة فى مواطن متفرقة من هذا الشعر يقال عنها إنها لهجة قبيلة بذاتها أو لهجة إقليم. ولو أننا افترضنا أن أثر الإسلام فى قبائل بلاد العرب وحَّد لغتهم... فإنه من الصعب أن نتصور أنه كانت ثمة لغة مشتركة — تختلف عن لغات النقوش — منتشرة فى أنحاء شبه الجزيرة كلها قبل أن يهيئ الإسلام هذا العنصر الموحِّد... وليس بين أيدينا أى دليل على أنه كان فى

(١) ص: ٤٤٠ — ٤٤٢.

جنوب بلاد العرب شعراء ، ومع ذلك فإذا كان ثمة شعراء فلا بدّ أنهم نظموا بإحدى اللهجات العربية الجنوبية . . . ولقد اكتشف حقًّا نقش أو نقشان فى شمال بلاد العرب بلغة القرآن ، ولكن نقوشاً أخرى كشفت عن ثروة من اللهجات تماثل اللهجات التى وجدت فى الجنوب ، وهنا أيضاً لا وجود للشعر فيما نعلمه ليومنا هذا ... وحينما صنع العلماء الأقدمون مجموعاتهم كانت لغة القرآن بفضل الإسلام قد صارت اللغة الفصحى فى جنوب بلاد العرب ، وهذا نفسه جعلها تسود فى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة . وليس لدينا حتى الآن ما يجعلنا نفترض أنها كانت لغة أدبية فى أى مكان قبل القرآن . ولو أننا نبحث فى وثائق نثرية فلربما اطمأننا إلى أحد افتراضين : إما أنها تُرجمت ، وإما أنها ، على الأقل ، نُقلت من طور لغوى إلى طور آخر ؛ وذلك يشبه ، شبهاً ما ، التغير فى هجاء الكلمة الذى يحدث تدريجيًّا فى الآثار المطبوعة ، متفقة مع أحدث استعمال ، من غير أن يكون ذلك عن سوء قصد . ولكن هذا التغير مستحيل فى الشعر إذ أن فيه من الصنعة المعقدة أكثر مما فى أى أسلوب آخر معروف » .

ثم ينتهى من حديثه هذا بأن يربط بين هذا الدليل والدليل الذى سبقه فيقول[1] : «وكما أن وجود الأفكار الإسلامية فى الآثار المقطوع بجاهليتها دليل على وضعها وزيفها ، فإن استخدام لهجة ، جعلها القرآن لغة فصحى ، أمر يدعونا إلى أن نشك فيها طويلاً ... ويبدو أن المسلمين الذين جمعوا قصائد من جميع أنحاء شبه الجزيرة بلغة واحدة ، كان عملهم هذا متمشياً مع عملهم فى جعل كثير من هؤلاء الشعراء ، بل أكثرهم ، يعبدون الله ولا يشركون به : إنهم يسحبون على الماضى ظواهر هم أنفسهم يعرفونها . . . »

٣ — وأما الدليل الآخر من الأدلة الداخلية فقائم فى موضوعات القصائد نفسها ، وحديثه عن هذه النقطة يلفُّه الغموض والإبهام ، ولعله يريد أن يستنتج منه أن اتفاق القصائد الجاهلية فى التطرق لموضوعات واحدة بعينها تتكرر فى كل

---

(١) ص : ٤٤٣ .

قصيدة أمر يدل على أنها نظمت بعد نزول القرآن لا قبله ، وذلك قوله [١] :
« فإذا كانوا يبدأون دائماً قصائدهم بأبيات فى النسيب لأن القرآن يقول إن الشعراء فى كل واد يهيمون ، وإذا كانوا يصفون أسفارهم وتجوالهم لأن القرآن يقول إنهم يتّبعهم الغاوون — وهذا يتضمن يقيناً أنهم أنفسهم ضالّون غاوون ، وإذا كانوا يذيعون وينشرون أعمالهم ، وغالباً ما تكون مخالفة للأخلاق لأن القرآن يقول إنهم يقولون مالا يفعلون — فإننا نستطيع على الأقل أن نقتفى هذه الرتابة إلى مصدرها .. ولكن إذا كان هذا الشكل الثابت المقرر أقدم من القرآن فلابدّ أنه يرجع إلى نماذج معينة معترف بها ، والبحث عن هذه النماذج ينتهى بنا — كما رأينا — إلى آدم ! »

وبعد أن يُخيَّل إليه أنه استوفى أدلته يعود إلى مناقشة الأمر مناقشة كليّة فيقول [٢] : « وإذن إذا كان الشعر — الظاهرُ أنه جاهلى — مشكوكاً فيه بكلا الدليلين الخارجى والداخلى ، فإننا نعود إلى مشكلة ابتداء النظم العربى ، وهل هو قديم جداً ... أو هل نُظم جميعه بعد الإسلام فهو بهذا متطور عن الأساليب التى وُجدت فى القرآن ؟ ويبدو هذا السؤال فى الغاية من الصعوبة . إذ أنه يبدو — من جهة — أن الأمر مستمر متصل : فالشعراء الأمويون يَلُون شعراء عصر النبى والصحابة ، وهؤلاء يتبعون الشعراء الجاهليين ... ولذلك فإن افتراض أن العرب نظموا الشعر افتراض مُغرٍ ، إلا أننا لا نستطيع أن نطمئن إلى أن بين أيدينا حقاً شعراً من قبل الإسلام . بينما نجد من جهة أخرى — فضلا عن فقدان الشعر فى النقوش — أن القرآن لم يشر إلى الموسيقى . . . فإذا كانت الموسيقى من مستحدثات العصر الأموى فهل نستطيع أن نتصور أن الوزن الشعرى قد وُجد عند العرب من قبلُ بهذا الانتظام وبهذه الغزارة ؟ إن التسلسل المعتاد لنشأة هذه الأشياء هو : الرقص ثم الموسيقى ثم الشعر . . . » ثم يقول [٣] : « لقد كانت الممالك الجاهلية التى نعرفها

---

(١) ص : ٤٤٣ — ٤٤٤ .
(٢) ص : ٤٤٦ — ٤٤٧ .
(٣) ص : ٤٤٨ .

عن طريق النقوش ذات حضارة باسقة، ولكن لا يبدو أنه كان لها شعر، فهل نصدّق أن الأعراب غير المتحضرين كان لهم شعر فى مثل هذه الصور المركبة كما يصدق بذلك العلماء الأقدمون من المسلمين ؟ وبوجه عام فإن من المرجح احتمال صواب ما افترضناه وهو : أن كلاً من الشعر والنثر المسجوع كانا فى معظمهما مشتقين من القرآن ، وأن تلك الجهود الأدبية التى سبقت القرآن كانت أقل فنًّا منه لا أكثر فنًّا » .

ثم يختم مرجوليوث مقالته هذه بقوله[1]: « وإذا كان يبدو من الحكمة ألا نطلق حكماً على مشكلة النظم العربى وهل يرجع إلى عهد قديم جداً أو هل هو حادث بعد القرآن — فإن سبب ذلك تلك الصفات المحيرة التى نجدها فيما بين أيدينا من أدلة . ونحن فى أمان حينما نبحث فى النقوش، ويصح أن يوثق بالقرآن فى بيان حالة العرب الذين أنزل لهم فى زمن النبى ، أما فى تاريخ الشعر العربى فلا بد لنا من الرجوع إلى مصادر أخرى ، وهى — فى أغلبها — تبحث فى أزمنة وأحوال لا عهد لمؤلفيها أنفسهم بها وكانت تجاربهم وخبرتهم تقودهم إلى تصديق أمور كثيرة ضللتهم بالضرورة . ونحن — حينما نحاكم أقوالهم ونبحث فيها — نستطيع أن نذهب فى الشك إلى أقصى حدوده ، كما نستطيع أن نمضى فى التصديق إلى أبعد مذاهبه ! »

٢

ثم تعاور نفر من المستشرقين الحديث عن « صحة الشعر الجاهلى » وكان أكثرهم يردُّ ، فيما يكتب ، ما ذهب إليه مرجوليوث ، ويفند أدلته وافتراضاته . وكان أولهم ، فيما نعرف ، الأستاذ شارلس جيمس ليال Charles James Lyall الذى

(١) ص : ٤٤٩ .

أشار فى المقدّمة التى صدّر بهـا الجزء الثـانى من « المفضليات » سنة ١٩١٨ م ، إلى ما جاء به مرجوليوث فى مقاله المنشور فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد سنة ١٩١٦ ص : ٣٩٧ ، وإلى ما أورده فى « معلمة الدين والأخلاق » من حديثه عن « محمد » وما أورده كذلك فى الصفحة الستين من كتابه « محمد » سنة ١٩٠٥ .

بدأ ليال حديثه عن « صحة الشعر الجاهلى » [١] بأن أورد ما ينسب إلى المفضل من تجريح حماد الراوية وذلك قوله[٢] : « قد سُلِّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً . فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئ فى روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ، ويُحمّل ذلك عنه فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ! »

يقول ليال إن بين ناقل هذا الخبر — وهو أبو الفرج الأصفهانى — وصاحب الحديث — وهو المفضّل الضبىّ — ثلاثة رواة فى سند الخبر هم : محمد بن خلف وَكيع عن أحمد بن الحارث الخرّاز عن ابن الأعرابى . فربما زاد هؤلاء أو أحدهم على هذا الحديث شيئاً مما يزيده الرواة ، غير أننا لو قبلنا أن هذا الحديث قد قاله المفضل حقّاً وسلمنا بذلك ، فلا بد لنا من أن نذكر أن حماداً كان معاصراً للمفضل وأنه ربما كان أصغر منه سنّاً ، وأن المفضل كان من أعلم الناس بالشعر وأقدرهم على تمييز صحيحه من منحوله ، وأن الرواة من العرب — وهم الذين يُزعَم أن حماداً قد أفسد ما أخذ عنهم من الشعر — كانوا ، من قبل أن يفسد حماد روايتهم ، قادرين على أن يفتحوا خزائن الشعر الذى يحفظونه ويروونه بين يدى المفضّل . ولو أننا سلمنا بصحة ما ذكره هذا الخبر من أمر الوضع والنحل ،

---

(١) المفضليات (ليال) ج : ٢ ص : ١٦ من المقدمة .
(٢) الأغانى (دار الكتب) ٦ : ٨٩ .

فإن ذلك ينتهى إلى أن ما زاده حماد كان يشبه لغة الشاعر الحقيقى الأصيل وإحساسه وعاطفته شبهاً يستحيل معه التمييز بينه وبين شعر الشاعر الأصيل . فإذا كان ذلك كذلك فكيف أمكن أن يُعرف أنها موضوعة منحولة، إذا لم يكن ثمة من يعرف القصيدة فى صورتها الأولى من غير ما أضيف عليها من زيادات موضوعة ؟ ومن يكون ذلك العالم سوى المفضل نفسه ؟

ثم يورد ليال خبراً آخر عن المفضل وحماد ، وهو يصف لنا هذا الخبر بأنه نموذج ومثال للطريقة التى زعم الرواة أن حماداً أفسد بها الشعر القديم . وذلك قول أبى الفرج[1] عن جماعة من الرواة قالوا : « إنهم كانوا فى دار أمير المؤمنين المهدى بعيساباذ ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب ، فدعا بالمفضل الضبى الراوية فدخل، فمكث مليًّا ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعاً ، وقد بان فى وجه حماد الانكسار والغم ، وفى وجه المفضل السرور والنشاط ، ثم خرج حسين الخادم معهما، فقال: يا معشر من حضر من أهل العلم: إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته فى أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته ، فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً مُحدَثاً : فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل » . ثم يذكر أبو الفرج، ممن روى عنه ، سبب ذلك ويفصّل ما جرى بين حماد والمفضل فى حضرة المهدىّ من زيادة حماد بيتين قبل مطلع قصيدة زهير :

دَعْ ذَا وَعَدِّ القَوْلَ فى هَرِمِ

ويعقب ليال على هذا الخبر بقوله[2]: « إن هذه القصة تتضمن أن المهدى

---

(١) الأغانى (دار الكتب) ٦ : ٨٩ — ٩٠ .

(٢) مقدمة المفضليات ص : ١٨ .

كان آنئذ خليفة ، وذلك لأن الرواة قالوا إنهم كانوا فى دار أمير المؤمنين ، ولأن قصره بعيساباذ بناه بعد أن ولى الخلافة . غير أنه يشك فى أن يكون حماد قد عاش حتى سنة ١٥٨ هـ ، وهى السنة التى ولى فيها المهدى . فقد ذكر ابن خلّكان أن وفاة حماد كانت فى سنة ١٥٥هـ ، وذكر ابن النديم فى الفهرست أنها كانت فى سنة ١٥٦ . وفضلاً عن ذلك فإن البيتين اللذين يقال إنهما أضيفا إلى قصيدة زهير ليس فيهما إلا وصف عادى ، وفى المجموعات القديمة مئات من القصائد تبدأ بما يشبههما . والقيمة الوحيدة لذكر أسماء المواضع فى هذين البيتين هى أنهما يدلان على أن الشاعر ينتمى إلى الموطن الذى توجد فيه هذه المواضع . فإذن لم يكن عملاً جليلاً أن يزاد على قصيدة لزهير — من الواضح أنها ناقصة فى أولها — أبيات قليلة وضعت مكان النسيب الناقص ؛ ولا ريب أن ذلك لا يدل على مهارة خارقة فى الوضع والنحل » .

ثم يذكر ليال قصة ثالثة يرويها الرواة ليدلوا بها على خُلُق حماد . وذلك أن حماداً مدح بلال بن أبى بُرْدَةَ بقصيدة ، وعند بلال ذو الرمة . فقال بلال لذى الرمة : كيف ترى هذا الشعر ؟ قال : جيداً وليس له . ثم اعترف حماد أن الشعر جاهلى قديم لا يرويه غيره وأنه انتحله لنفسه[١] .

ثم يعقب ليال على كل ذلك فى معرض حديثه عن المفضليات بقوله[٢] : إن هذه القصص ذات الدلالات لتوضح لنا — سواء أكانت صحيحة أم موضوعة — أنه ليس ثمة ما يحملنا على الظن أن الشعر الذى جمعه المفضل قد أفسده ما يعزى إلى حماد من وضع الشعر ونحله .

وبعد أن يعرض ليال لسيرة خلف الأحمر ، ولما ينسب إليه من أنه كان يقول الشعر وينحله الشعراء الجاهليين[٣] ، يقول[٤] : « إنه لمن الخطأ

---

(١) الأغانى ٦ : ٨٨ .
(٢) مقدمة المفضليات : ١٩ .
(٣) مقدمة المفضليات : ١٩ — ٢٠ .
(٤) المصدر السابق : ٢٠ — ٢١ .

العظيم أن نعدّ هذين الرجلين — حماداً وخلفاً — النموذجين المثاليين للرواة المحترفين الذين كانوا يروون أشعار القبائل . فقد كانا كلاهما من أصل فارسى . أما رواة القبائل فكانوا من العرب ، يختارهم الشعراء ليكونوا الوسيلة التى تحفظ شعرهم وتخلّده فى صدور القبيلة والأمة العربية بعامة . وكان من هؤلاء أن أخذ الرواة الجامعون فى القرنين الأول والثانى الهجريين ما جمعوا من شعر . وأما أن نذهب ، كما ذهب أحد العلماء المحدثين[1] ، إلى أن جميع ما نسميه بالشعر العربى القديم موضوع منحول ، مستدلين على ذلك بالقصص التى تُروى عن حماد وخلف ، وقد قدمنا نماذج منها — فهو مذهب مخالف لجميع وجوه هذه القضية واحتمالاتها . إن حماداً وخلفاً كانا يحاكيان أسلوباً للنظم كان قد قُرِّر واتخذ صورته النهائية زمناً طويلاً قبل الإسلام ، وكان قد نظم به شعراء كثيرون كانوا وثنيين ، أو غير مسلمين ، فى زمن محمد ثم أسلموا ؛ وقد كثر استخدامه وتُبجِّل بالكتابة لعهد شعراء القرن الأول الهجرى (مثل جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة ، ولم أذكر إلا الذين خلّفوا لنا تراثاً من الشعر كبيراً) . فسلسلة الرواية والنقل لم تنقطع : فقد كانت الطبقة الأخيرة من الشعراء على قيد الحياة ينظمون الشعر حينما كان العلماء يدأبون فى جمع الشعر وتدوينه . ولا يمكن أن تعترضنا ، فى دراستنا لهؤلاء الشعراء مشكلة الوضع والنحل لأن رواتهم قد دأبوا على كتابة القصائد التى تلقى عليهم لنشرها وتخليدها . أما الشعر الجاهلى فربما حاكاه حماد وخلف ، ولكن هذه الحقيقة نفسها ، المحاكاة ، تدل على وجود أصل يحاكَى . أما أن نذيع أن ما بين أيدينا لا يعدو أن يكون الصورة المحكية ، وأنه لم يبق شىء من الأصل نفسه فذلك أمر لا يقرّه الفهم السليم على ضوء هذه الظروف » .

---

(١) ذكر ليال فى الهامش أن المقصود هو الأستاذ مرجوليوث فى ما نشره فى ص : ٣٩٧ من مجلة الجمعية الملكية الآسيوية سنة ١٩١٦ ، وفى مقالته عن « محمد » المنشورة فى معلمة الدين والأخلاق ج ٨ ص : ٨٧٤ ، وفى ما كتبه فى ص : ٦٠ من كتابه « محمد » المطبوع سنة ١٩٠٥ . ثم يقول ليال إن الأستاذ مرجوليوث يذهب مذهباً يدعو إلى الدهشة والعجب وهو قوله « إن الشعر القديم هو فى معظمه موضوع منحول صيغ على نمط القرآن » .

ثم يمضى ليال فى حديثه فيقول : « إن ما ينبغى أن نستنتجه من هذه القصص عن حماد وخلف ليس رد هذا الشعر القديم ووصمه بأنه موضوع منحول من غير بحث وتمحيص، بل وضع هذا الشعر موضع البحث الدقيق مهتدين بما تقدمه الرواية فى ذلك الزمن من أدلة، وناظرين إلى موضوع القصيدة وأسلوبها والصفات الشخصية المميزة ، لنرى بعد ذلك هل فيها ما يوحى على أى وجه بأن فيها زيادات دخيلة ، أو تغييراً فى ترتيب الأبيات ، أو أنها موضوعة منحولة » .

• • •

وقد تحدث ليال عن هذا الموضوع حديثاً مفصلاً فى موطن آخر ، وذلك فى مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص ، قال[1]: « أما موضوع صحة هذا الشعر فأمر من الطبيعى أن يختلف فيه الناس . إذ من المؤكد أن شعر الأعراب فى الجاهلية العربية لم ينتقل بالكتابة ، بل بالرواية . وكانت القبيلة تعد القصائد التى تسجل انتصاراتها أغلى ما تملك، فكانت ترويها جيلاً بعد جيل، وبالإضافة إلى هذه المعرفة العامة المنتشرة فى القبيلة ، كان هناك الراوى ، وعمله أن يحتفظ بمذخور الشعر الذى تعيه ذاكرته . وكان يعتنى بالذاكرة — فى العصور التى لم تستخدم فيها الكتابة إلا فى المدن ولأغراض خاصة — عناية كبيرة ، بحيث كانت أكثر قدرة على الاستيعاب منها فى العصر الحديث . وليس من الغريب أن تُتناقل القصائد بهذه الطريقة قرنين أو ثلاثة .

ومن الطبيعى أن يفترض المرء أن هذه القصائد اعتراها بعض التغيير فى أثناء هذا التناقل : فقد تُستبدَل بعض الكلمات المترادفة بغيرها ، وقد يؤدى عدم تثبت الذاكرة إلى إسقاط أبيات ، أو تغيير فى ترتيبها ، أو وضع عبارات الراوى بدل العبارات التى نسيها . ومثل هذه الظواهر شائعة فى كل مكان . غير أننا حين نفحص القصائد ذاتها نجد فيها من الشخصية الفردية ما يكفينا للاستدلال على

---

(١) طبعة دار المعارف ص ١٧ — ١٩ ، وانظر المقابلة ترجمة الدكتور حسين نصار فى مجلة الثقافة عدد ٦٤٥ ، ٧ مايو ١٩٥١ .

أن القصائد ، فى معظمها ، من نظم الشعراء المنسوبة إليهم . فالمعلقات السبع مثلاً كلها قصائد ذات شخصية وخصائص واضحة ؛ وتعرض لنا سبع شخصيات متميز بعضها من بعض كل التميز . ونجد الأمر نفسه فى القصائد الثلاث الباقية (للأعشى والنابغة وعبيد) التى عدها بعض النقاد من المعلقات . فقد تركت شخصية امرئ القيس وزهير ولبيد والنابغة والأعشى طابعها على شعرهم ، ومن جموح الخيال أن نظن أن معظم القصائد المنسوبة لهم مصنوعة فى عصر متأخر ، صنعها علماء عاشوا فى ظروف مغايرة تمام المغايرة ، وفى حياة شديدة الاختلاف عن حياة الأعراب فى الصحراء العربية .

والسبب الثانى لاعتقادنا أن الشعر القديم صحيح فى جملته ، وليس منحولاً ، هو أن شعر القرن الأول الهجرى يتضمن وجود هذا الشعر الجاهلى ويفترض سبقه عليه : فقد استمر شعراء القرن الأول المشهورون : الفرزدق وجرير والأخطل وذو الرمة ، يتبعون تقاليد الشعراء الجاهليين ، من غير أن تكون بينهم فجوة ؛ ففضلاً عن أنهم ذكروهم فى شعرهم ، فقد استعملوا ذخيرتهم الشعرية مراراً متكررة ، متناولين الموضوعات نفسها بالأسلوب نفسه : محسنين ومحورين ومقتبسين ، ولكنهم ما يزالون متقيدين بالتقاليد نفسها . وليس هناك من شك فى أنه قد وصلنا شعر هؤلاء الشعراء صحيحاً ، فقد عاشوا فى عصر عم استخدام الكتابة فيه لتدوين الشعر وإن كانت الرواية ما تزال أداة نشره بين الجمهور .

وسبب ثالث : هو أن الشعر القديم ملىء بألفاظ كانت غريبة على العلماء . الذين كانوا أول من عرض هذا الشعر على محك النقد . فقد كانت تنتمى إلى مرحلة لغوية أقدم من عصرهم ، وكانت غير مستعملة فى الزمن الذى كتبت فيه القصائد وجمعت الدواوين . ولا بد من أن يتنبه كل من اتصل بالشروح القديمة وعرفها (وهى المادة التى جمعت منها المعاجم الكبيرة فيما بعد) إلى أن الشراح — الذين يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً — توصلوا إلى شرح الصعوبات بمقابلة عبارة أخرى ، وبالجدل والنقاش ، لا بالرجوع إلى لغة الخطاب التى لم تعد

تحوى الألفاظ التى يبحثون عن معناها . وتعتمد المعاجم كل الاعتماد على الشعر القديم وعلى القرآن والحديث ، وتفترض صحة الشعر كما تسلم بصحة القرآن والحديث » .

٣

وتحدث جورجيو ليفى دلا فيدا فى مقالته « بلاد العرب قبل الإسلام » عن قيمة المصادر التاريخية لهذه الفترة ، وعرض فى حديثه للشعر الجاهلى من حيث هو مصدر من هذه المصادر ، فقال[١] : « حين نحاول البحث فى العصور الوسيطة فى بلاد العرب (يقصد الجاهلية الأخيرة) نواجه المشكلة نفسها التى واجهتنا فى دراستنا لبلاد العرب القديمة (أى الجاهلية الأولى) . وما نعرفه ليس بالكثير ، إذا قيس بما نجهل ، والمجال متسع للفروض الظنية . وأيًّا كان ، فإن أسباب فقدان القطع واليقين فى دراستنا لتاريخ تلك الفترة أسباب مختلفة اختلافاً تامًّا : فإن مصادر تاريخ بلاد العرب فى القرون السابقة لظهور الإسلام مباشرة مصادر أدبية فى أغلبها ، وليست نقوشاً كمصادر تاريخ بلاد العرب القديمة . وهى غزيرة وافرة ، وربما كانت أوفر مما ينبغى — فإننا نعانى من كثرتها لا من قلتها . ولكن قيمتها للأسف لا تعادل وفرة عددها ، فإن المعلومات التى تنقلها إلينا ليست مأخوذة من وثائق أولية . وهى تشبه — من بعض وجوهها — المصادر التى نعرفها عن التاريخ اليونانى والرومانى واليهودى . وأكثر المصادر العربية أخبار جمعها علماء العصور الإسلامية ورتبوها . والأدلة المباشرة يقدمها لنا الشعر الذى وصل إلينا عن طريق ما قام به العلماء المسلمون من اختيار وشرح . أما الأدلة التاريخية ، وهى غير مباشرة ، فلا يصح أن يعتمد عليها من غير نقد وتمحيص . ونتائج النقد والتمحيص تجىء — عادة — متباينة . فإن جماعة من العلماء المعاصرين

---

(١) Giorgio Levi Della Vida, Pre — Islamic Arabia, The Arab Heritage, New Jersy, 1944 P. 41-48.

يشكّون شكًّا عميقاً أساسيًّا فى الرواية العربية، ويذهبون إلى أن أكثرها موضوع زائف ، وأنها تمثل الاتجاه الذى نما فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، حينما نسى العرب ما كانوا يذكرونه عن التاريخ الجاهلى ، فحاول اللغويون والأخباريون أن يملأوا الفجوات وذلك بأن وضعوا وزيفوا ما لم يجدوه فى الوثائق الأصلية الحقيقية. ومن أجل ذلك يرون أن الأدب التاريخى العربى ليس أوثق من القصص التاريخية ، وأن أكثر الشعر موضوع ، فليس من المستطاع اتخاذهما أساساً سليماً يُبنَى عليه فهم صحيح لما كان يحدث فى بلاد العرب فى العصر الجاهلى .

وهذا الموقف المتشكك مبالغ فيه — فى رأى كاتب هذه المقالة — فإن الرواية التاريخية عن بلاد العرب فى عصورها الوسيطة (الجاهلية الأخيرة) ليست أوثق ، ولا أضعف ، من أية رواية أخرى عن أى عصر تاريخى يعوزنا فيه الدليل المباشر. فهى ليست أضعف من ليفى Levi — مثلاً — عن القرون الخمسة الأولى من التاريخ الرومانى ، أو من ساكسو جراماتيكس عن العصر القديم فى الدانيمرك . بل إنها — من بعض الوجوه — خير منهما ، بالرغم من أنها لا تخلو من الفجوات والأخطاء . وليس بين أيدينا كل ما كتب عن الجاهلية العربية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، إذ أن مؤلفات كثيرة ضاعت ، ولم يبق من بعض الكتب الأخرى غير قطع ومختارات . . . وأهم من كل ذلك أن أكثر الرواية ذات جانب واحد ، فبدلاً من أن ترمى الرواية التاريخية إلى التسجيل الشامل للماضى ، أصبح لها ثلاثة أهداف : تقديم تفسير لإشارات تاريخية معينة فى بعض سور القرآن ، وشرح الحوادث التاريخية فى الشعر القديم ، وأخيراً خدمة العزة القومية ومطالب أشراف العرب ووضع أنساب واسعة لأكثر الأسر البارزة وذكر مفاخر قبائلهم .

والمثال يوضح نتائج هذه الطريقة التى نمت فيها الرواية. فقد كانت الخصومات القبلية التى تفوق الحصر هى العنصر الرئيسى فى تاريخ الأعراب ، ونحن نعرف منها عن قبيلة تميم أكثر جدًّا مما نعرفه عن غيرها من القبائل . والسبب الوحيد لذلك أن مصدرنا عن حروب تميم يرجع — كله تقريباً — إلى شروح وافية كتبها

أبو عبيدة على نقائض جرير والفرزدق . . . وكلاهما من قبيلة تميم ، فكانا دائماً يذكران فى شعرهما أمجاد أسلافهما . ولو كانت لدينا شروح على أشعار لقبيلة أخرى لكانت معرفتنا بتاريخ هذه القبيلة تعادل فى وفرتها وكمالها ملعوماتنا عن تميم .

لقد بيّنا أن الشعر الجاهلى مصدر آخر من مصادر معرفتنا ببلاد العرب فى العصور التى سميناها « العصور العربية الوسيطة » . ولكن ، هل الشعر فى ذاته مصدر موثوق به ؟ لقد بحث هذه المشكلة علماء كثيرون ، وهى مشكلة عسيرة دقيقة . وقد بولغ فى مسألة وضع الشعر الجاهلى ونحله . وحتى لو كانت بعض قصائده موضوعة ، فلا ريب فى أن مجموع الرواية الشعرية فى جملتها صحيحة أصيلة . ومع ذلك فإن الشعر يعجز عن إعطائنا صورة صادقة كاملة عن بلاد العرب ، فإن الشعراء العرب لم يصوروا لنا تجارب الحياة عند البدو الرحّل فى واقعها ومجموعها ، بل صوروا بعض مظاهرها فى مُثُل عليا ونماذج رفيعة . وقد كان المثل الأعلى الذى أعجبوا به وتغنوا به فى شعرهم مشابهاً — والقياس مع الفارق — للمثل الأعلى لقصيدتى هومر وللقصيدة الفرنسية Chansons de Geste . هذا المثل الأعلى هو : الفروسية . ولا يصح أن يتهم الشعر الهومرى ، ولا تلك القصيدة الفرنسية بأنها عمدت عمداً إلى تغيير الجو التاريخى للعصرين الميسينى والكارولينى ، لكن هذين الشعرين يصوران مظهراً واحداً حسبُ ، وكذلك فعل الشعر العربى القديم : لقد أبرز لنا الجانب البطولى فى الحياة ، وأغفل المظاهر الأخرى التى لا تقل عنه قيمة . ومن هذه المظاهر التى أغفلت : الدين . . . »

وبعد ؛

فبحسبنا ما قدمنا من آراء المستشرقين فى وضع الشعر الجاهلى ونحله ، وفى مدى توثيقهم أو تضعيفهم لروايته . وقد عُنينا بعرض آراء بعض الذين خصوا هذا الموضوع ببحث واف فى مقالات خاصة به ، وأما أولئك الذين تعرضوا له تعرضاً عابراً فى جمل مقتضبة ، فى معرض تأريخهم للأدب العربى العام : من مثل جب وبروكلمان وغيرهما — فلا حاجة بنا إلى الإشارة إلى آرائهم لشهرتها ودورانها .

الفصل الرابع

النحل والوضع فى الشعر الجاهلى

آراء العرب المحدثين

١

أما أول من شق طريق البحث فى هذا الموضوع من العرب المحدثين فهو الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « تاريخ آداب العرب » الذى صدر فى سنة ١٩١١ م . وقد خص الرواية والرواة بباب كامل من الجزء الأول تنيف صفحاته على مائة وخمسين[١] ، حشد فيه من المادة ما لم يجتمع مثله — من قبله ولا من بعده حتى يومنا هذا — فى صعيد واحد من كتاب . لمّ فيه شتات الموضوع من أطرافه كلها ، واستقصاه استقصاء ، غير أنه فى كل ذلك كان يحكى ما أورده المؤلفون القدماء : يجمع ما تفرق من هذا الحديث فى الكتب الكثيرة أو فى مواطن شتى من الكتاب الواحد ، ثم يرتب ما تجمع له فى فصول ينتظم كلَّ فصل منها عنوانٌ يدل عليه . ولكنه، على هذا الجهد العظيم الذى تكلفه ، اكتفى ، فى أكثر حديثه ، بالسرد المجرد والحكاية عمن مضى . ولم يتجاوز ذلك إلى البحث فى هذه الأخبار والروايات بحثاً علمياً ولا إلى نقدها نقداً يميز زائفها من صحيحها — إلا فى القليل النادر ، وحتى فى هذا القليل النادر كان يتعجل المضىّ ، فلا يكاد يقف عند خبر أو رواية حتى يدعها وينتقل إلى غيرها . ومع ذلك فللرافعى فضل السبق وفضل الاستقصاء فى الجمع . وسنقف عند حديثه

(١) تاريخ آداب العرب — الطبعة الثانية سنة ١٩٤٠ من ص : ٢٧٧ إلى ص : ٤٣٤ .

عن « وضع الشعر »[١] وقفة نُلمّ فيها بما بيّنه من « البواعث على وضع الشعر في الإسلام »[٢]. وسنحاول أن نرتبها هنا في نَسَق، وكان قد أرسلها في كتابه إرسالا :

١ ــ تكثُّر القبائل لتعتاض مما فقدته بعد أن راجعت الرواية، وخاصة القبائل التي قلّت وقائعها وأشعارها، وكانت أولاها قبيلة قريش، فقد وضعت على حسان أشعاراً كثيرة[٣] ــ على نحو ما ذكره ابن سَلاّم في طبقاته وأوردناه في الفصل الثاني من هذا الباب.

٢ ــ شعر الشواهد « وهو النوع الذي يدخل فيه أكثر الموضوع، لحاجة العلماء إلى الشواهد في تفسير الغريب ومسائل النحو[٤] . . . وشعر الشواهد في اصطلاح الرواة على ضربين : شواهد القرآن وشواهد النحو[٥] . والكوفيون أكثر الناس وضعاً للأشعار التي يستشهد بها، لضعف مذاهبهم وتعلقهم على الشواذ واعتبارهم منها أصولاً يقاس عليها . . . قال الأندلسي في شرح المفصل : والكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوّبوا عليه، بخلاف البصريين[٦] . . . ولهذا وأشباهه اضطر الكوفيون إلى الوضع فيما لا يصيبون له شاهداً إذا كانت العرب على خلافهم . . . »

٣ ــ الشواهد التي كان بعض المعتزلة والمتكلمين يولدونها للاستشهاد بها على مذاهبهم[٧] ــ وقد أورد ما ذكره ابن قتيبة في « التأويل » من أنهم ذهبوا إلى أن معنى كرسي في قوله تعالى « وَسِع كرسيه السماوات والأرض » هو العلم، وجاءوا على ذلك بشاهد لا يُعرف، وهو قول الشاعر : ولا يكرسيّ علم الله مخلوق . وأورد

---

(١) تاريخ آداب العرب: ٣٦٥ .
(٢) المصدر السابق : ٣٦٦ .
(٣) المصدر السابق : ٣٦٦ ــ ٣٦٧ .
(٤) المصدر السابق : ٣٦٨ .
(٥) المصدر السابق : ٣٦٩ .
(٦) المصدر السابق : ٣٧٠ .
(٧) المصدر السابق : ٣٧٣ .

كذلك ما ذكره الجاحظ فى «الحيوان» من أنهم كانوا يدفعون أن الرجوم كانت حجة للنبي صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا على ذلك بأبيات وضعوها على شعراء الجاهلية .

٤ — الشواهد على الأخبار[١] « . . فلما كثر القصّاصون وأهل الأخبار اضطروا من أجل ذلك أن يصنعوا الشعر لما يلفقونه من الأساطير حتى يلائموا بين رقعتى الكلام ، وليحدروا تلك الأساطير من أقرب الطرق إلى أفئدة العوام ، فوضعوا من الشعر على آدم فمن دونه من الأنبياء وأولادهم وأقوامهم ، وأول من أفرط فى ذلك محمد بن إسحق . . . » ثم ذكر أن مما يدخل فى هذا الباب شعر الجن وأخبارها[٢] . . .

٥ — الاتساع فى الرواية[٣] « وهو سبب من أسباب الوضع ، يقصد به فحول الرواة أن يتسعوا فى رواياتهم فيستأثروا بما لا يحسن غيرهم من أبوابها ؛ ولذا يضعون على فحول الشعراء قصائد لم يقولوها ، ويزيدون فى قصائدهم التى تعرف لهم ، ويدخلون من شعر الرجل فى شعر غيره . . . » ثم يمثل على ذلك بحماد الراوية وخلف الأحمر .

وهكذا نرى أن الرافعى قد دار مع القدماء من العرب فى فلكهم ، وسرد ما رووه من أخبار ، وما انبثّ فى كتبهم من أحاديث ، وحصر الموضوع فى الدائرة نفسها التى حصره فيها القدماء : لم يحمّل نصًّا أكثر مما يحتمل ، ولم يعتسف الطريق اعتسافاً إلى الاستنتاج والاستنباط ولا إلى الظنّ والافتراض ، ولم يجعل من الخبر الواحد قاعدةً عامة ، ولا من الحالات الفردية نظرية شاملة .

٢

ثم استقر الموضوع بين يدى الدكتور طه حسين ، فخلق منه شيئاً جديداً ، لم يعرفه القدماء ، ولم يقتحم السبيل إليه العرب المحدثون من قبله ، ثم أنكره بعدُ كثير من المحدثين إنكاراً خصباً يتمثل فى هذه الكتب التى ألفوها للرد عليه ونقض

(١) تاريخ آداب العرب : ٣٧٥ .
(٢) المصدر السابق : ٣٧٦ .
(٣) المصدر السابق : ٣٧٩ .

كتابه . وقد استقى الدكتور طه حسين أكثر مادته — حيث يستشهد ويتمثل بالأخبار والروايات — من العرب القدماء، وسلك بها سبيل مرجوليوث فى الاستنباط والاستنتاج ، والتوسع فى دلالات الروايات والأخبار ، وتعميم الحكم الفردى الخاص واتخاذه قاعدة عامة ، ثم صاغ تلك المادة وهذه الطريقة بإطار من أسلوبه الفنى وبيانه الأخّاذ ، حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من « أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين »[1] . و « إن هذا الشعر الذى ينسب إلى امرئ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء ، ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن »[2] . ثم يكاد يعتدل بعض الشىء فيقسم الشعر الجاهلى ثلاثة أضرب ويقول[3] : « إنا نرفض شعر اليمن فى الجاهلية ، ونكاد نرفض شعر ربيعة أيضاً . . . وأقل ما توجبه علينا الأمانة العلمية أن نقف من الشعر المضرى الجاهلى، لا نقول موقف الرفض أو الإنكار ، وإنما نقول موقف الشك والاحتياط . »

فنحن إذن بإزاء نظرية عامة : لم نرها فيما عرضنا من آراء العرب القدماء ، ونحسب أنها لم تدر لهم ببال ، ولكننا رأيناها واضحة المعالم فيما عرضنا من آراء مرجوليوث ، ولم يكتف بالإشارة إليها إشارة عابرة، وإنما نص عليها نصاً صريحاً فى عبارات متكررة تختلف ألفاظها وتتفق مراميها . وجاء الدكتور طه حسين فلم يقنع كما قنع مرجوليوث بأن يدلنا عليها فى مقالة أو مقالتين ، وإنما فصل لنا القول فيها فى كتاب كامل قائم بذاته ، وساقها فى أسلوبه الأخّاذ الذى يلفُّ القارئ به لفّاً حتى يكاد أن ينسيه نفسه ويصرفه عن مناقشة رأيه . ومن آيات

---

(١) فى الأدب الجاهلى : ٧١ — ٧٢ .

(٢) المصدر السابق : ٧٣ .

(٣) المصدر السابق : ٢٧١ و ٢٧٥ .

ذلك أننا حينما قرأنا تلخيصنا لرأى الدكتور — بعد أن جرّدناه من أسلوبه — أحسسنا فرقَ ما بين الملخص والكتاب ، وأدركنا أن هذا التلخيص يغمط الكتاب حقَّه ، ويفقده كثيراً من أثره فى النفس .

وحديث الدكتور طه ، فى هذا ، ينقسم ثلاثة أقسام ، الأولان منها عامان ، أولهما : الدوافع التى دفعته إلى الشك فى هذا الشعر ، وثانيهما : الأسباب التى يرى أنها أدّت إلى نحل الشعر الجاهلى ووضعه . أما القسم الثالث فخاصٌّ يتحدث فيه عن شعراء بذاتهم .

دوافع شكه :

نظر الدكتور طه فى هذا الشعر الذى يسمّى جاهليًّا فرأى فيه أشياء رابته ، فشكَّ فيه ، وانتهى إلى أن كثرته المطلقة ليست جاهلية وإنما هى منحولة بعد ظهور الإسلام . ومن هذه الأمور التى رابته :

١ — « أنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين[1] » وقد فصل القول فى كل جانب من هذه الجوانب :

(ا) الحياة الدينية : فرأى أن « هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين يظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الدينى القوى والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية . وإلا فأين تجد شيئاً من هذا فى شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة ؟ أوَليس عجيباً أن يعجز الشعر الجاهلى كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين ؛ وأما القرآن فيمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال . فإذا رأوا أنه قد أصبح قليل الغناء لجأوا إلى الكيد ثم إلى الاضطهاد ؟ ثم إلى إعلان الحرب التى لا تبقى ولا تذر . أفتظن أن قريشاً كانت تكيد لأبنائها وتضطهدهم وتذيقهم

---

(١) فى الأدب الجاهلى : ٨٨ .

ألوان العذاب ثم تخرجهم من ديارهم ثم تنصب لهم الحرب وتضحى فى سبيلها بثروتها وقوتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين إلا ما يمثله هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين ؟ كلا . . . »[1]

(ب) الحياة العقلية : ثم يجد فى هذا الجدال الدينى ما يجعله ينتقل إلى الحياة العقلية والحضارية ، فيقول[2] : « أفتظن قوماً يجادلون فى هذه الأشياء جدالاً يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة ، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين ؟ كلا ! لم يكونوا جهالاً ولا أغبياء ، ولا غلاظاً ولا أصحاب حياة خشنة جافية ، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء ، وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة . . . »

(ج) الحياة السياسية : ثم يرى أن العرب « كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم ، بل كانوا على اتصال قوى ، قسمهم أحزاباً وفرقهم شيعاً . أليس القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيها العرب إلى حزبين مختلفين : حزب يشايع أولئك وحزب يناصر هؤلاء ؟ أليس فى القرآن سورة تسمى « سورة الروم » ؟ ... لم يكن العرب إذن كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلى معتزلين . فأنت ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم . وهو يصف اتصالهم الاقتصادى بغيرهم من الأمم فى السورة المعروفة : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » . وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشام حيث الروم ، والأخرى إلى اليمن حيث الحبشة والفرس »[3] .

(د) الحياة الاقتصادية : ثم يقول الدكتور طه[4] : « فأنت تستطيع أن تقرأ امرأ القيس كله وغير امرئ القيس ، وأنت تستطيع أن تقرأ هذا الأدب

---

(١) ص : ٨٠ .
(٢) ص : ٨١ .
(٣) ص : ٨٢ — ٨٣ .
(٤) ص : ٨٣ .

الجاهلى كله دون أن تظفر بشىء ذى غناء يمثل لك حياة العرب الاقتصادية فيما بينهم وبين أنفسهم » . ثم يتحدث عما فى القرآن من إشارات إلى الحياة الاقتصادية لدى عرب الجاهلية فيقول [1] : « وأنت إذا قرأت القرآن رأيت أنه يقسم العرب إلى فريقين آخرين : فريق الأغنياء المستأثرين بالثروة المسرفين فى الربا ، وفريق الفقراء المعدمين أو الذين ليس لهم من الثروة ما يمكنهم من أن يقاوموا هؤلاء المرابين أو يستغنوا عنهم . وقد وقف الإسلام فى صراحة وحزم وقوة إلى جانب هؤلاء الفقراء المستضعفين وناضل عنهم وذاد خصومهم والمسرفين فى ظلمهم . . . أفتظن أن القرآن كان يُعنى هذه العناية كلها بتحريم الربا والحث على الصدقة وفرض الزكاة لو لم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والاضطراب بحيث تدعو إلى ذلك ؟ فالتمس لى هذا أو شيئاً كهذا فى الشعر الجاهلى ، وحدثنى أين تجد فى هذا الأدب : شعره ونثره ، ما يصور لك نضالاً ما بين الأغنياء والفقراء . . » ثم يتحدث عن ناحية أخرى فيقول [2] : « كنا ننتظر أن يمثلها الشعر لأنها خليقة به وتكاد تكون موقوفة عليه ، نريد هذه الناحية النفسية الخالصة ، هذه الناحية التى تظهر لنا الصلة بين العربى والمال . . . فالشعر الجاهلى يمثل لنا العرب أجواداً كراماً مهينين للأموال مسرفين فى ازدرائها ، ولكن فى القرآن إلحاحاً فى ذم البخل وإلحاحاً فى ذم الطمع ، فقد كان البخل والطمع إذن من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الجاهلية . . . فالعرب فى الجاهلية لم يكونوا كما يمثلهم هذا الشعر أجواداً متلفين للمال مهينين لكرامته ، وإنما كان منهم الجواد والبخيل ، وكان منهم المتلاف والحريص ، وكان منهم من يزدرى المال ومنهم من يزدرى الفضيلة والعاطفة فى سبيل جمعه وتحصيله » . ثم يتحدث عما فى القرآن من تنظيم للصلة بين الدائن والمدين .

(هـ) الحياة الاجتماعية : ثم ينتهى إلى الحديث عن حياة العرب الاجتماعية

---

(١) ص : ٨٤ .

(٢) ص : ٨٥ .

فى الجاهلية ، فيقول [١]: « فهذا الشعر لا يعنى إلا بحياة الصحراء والبادية ، وهو لا يعنى بها إلا من نواح لا تمثلها تمثيلاً تامًّا . فإذا عرض لحياة المدر فهو يمسها مسًّا رفيقاً ولا يتغلغل فى أعماقها ، وما هكذا نعرف شعر الإسلام . ومن عجيب الأمر أنا لا نكاد نجد فى الشعر الجاهلى ذكر البحر أو الإشارة إليه ، فإذا ذكر فذكر يدل على الجهل لا أكثر ولا أقل . أما القرآن فيمنُّ على العرب بأن الله قد سخر لهم البحر وبأن لهم فى هذا البحر منافع كثيرة . . . »

٢ — اختلاف اللغة : ويرى الدكتور طه حسين أن هذا الشعر « بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية فى العصر الذى يزعم الرواة أنه قيل فيه »[٢] . ثم يقول : « إن هناك خلافاً قويًّا بين لغة حمير (وهى العرب العاربة) ولغة عدنان (وهى العرب المستعربة) »[٣] . ويستند فى ذلك إلى أمرين ، الأول : ما قاله أبو عمرو بن العلاء ، وهو — كما أورده الدكتور طه — : ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا ! ! والثانى : أن البحث الحديث أثبت خلافاً جوهريًّا بين اللغة التى كان يصطنعها الناس فى جنوب البلاد العربية ، واللغة التى كانوا يصطنعونها فى شمال هذه البلاد . ثم يشير إلى هذه النقوش الحميرية التى اكتشفت وإلى ما أورده جويدى فى كتابه : المختصر فى علم اللغة العربية الجنوبية القديمة . ثم ينتهى من كل ذلك إلى قوله[٤] : « وإذن فما خطب هؤلاء الشعراء الجاهليين الذين ينسبون إلى قحطان ، والذين كانت كثرتهم تنزل اليمن وكانت قلتهم من قبائل يقال إنها قحطانية قد هاجرت إلى الشمال ! ما خطب هؤلاء الشعراء ، وما خطب فريق من الكهان والخطباء يضاف إليهم نثر وسجع ، وكلهم يتخذ لشعره ونثره اللغة العربية الفصحى كما نراها فى القرآن ؟ أما أن هؤلاء الناس كانوا

---

(١) ص : ٨٧ .

(٢) ص : ٨٨ .

(٣) ص : ٨٩ — ٩٠ .

(٤) ص : ٩٨ .

يتكلمون لغتنا العربية الفصحى ففرض لا سبيل إلى الوقوف عنده فيما يتصل بالعصر الجاهلي، فقد ظهر أنهم كانوا يتكلمون لغة أخرى ، أو قل لغات أخرى». ثم يعرض لما يقال من احتمال اتخاذ أهل الجنوب اللغة العدنانية لغة أدبية ، فينفيه لأن « السيادة السياسية والاقتصادية ــ التي من شأنها أن تفرض اللغة على الشعوب ــ قد كانت للقحطانيين دون العدنانيين »[١] .

٣ ــ اختلاف اللهجات : وبعد أن ينتهي من الشعر الذي يضاف إلى القحطانيين ينتقل إلى الشعر الذي يضاف إلى العدنانيين فيقول[٢]: « فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام فيقارب بين اللغات المختلفة ويزيل كثيراً من تباين اللهجات . وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانية وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام ولا سيما إذا صحت النظرية التي أشرنا إليها آنفاً وهي نظرية العزلة العربية . . فإذا صح هذا كله كان من المعقول جداً أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام . وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل الذي قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة . ولكننا لا نرى شيئاً من ذلك في الشعر العربي الجاهلي . فأنت تستطيع أن تقرأ هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجاً للشعر الجاهلي الصحيح ، فسترى فيها مطولة لامرئ القيس وهو من كندة أي من قحطان ، وأخرى لزهير ، وأخرى لعنترة ، وثالثة للبيد ، وكلهم من قيس ، ثم قصيدة لطرفة ، وقصيدة لعمرو بن كلثوم ، وقصيدة أخرى للحارث بن حلزة ــ وكلهم من ربيعة . . . تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافاً في اللهجة ، أو تباعداً في اللغة ، أو تبايناً في مذهب الكلام : البحر العروضي هو هو ، وقواعد القافية هي هي ، والألفاظ مستعملة

---

(١) ص : ٩٨ .

(٢) ص : ١٠٣ ــ ١٠٤ .

فى معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين ، والمذهب الشعرى هو هو . . . فنحن بين اثنتين : إما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان فى اللغة ولا فى اللهجة ولا فى المذهب الكلامى ، وإما أن نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وإنما حمل عليها بعد الإسلام حملاً . ونحن إلى الثانية أميل منا إلى الأولى فالبرهان القاطع قائم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان » .

٤ ــ الاستشهاد بالشعر الجاهلى على ألفاظ القرآن والحديث : قال الدكتور طه فيما قال[1] : « إنا نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلى مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ونحوهما ومذاهبهما الكلامية . ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون فى ذلك مشقة ولا عسراً ، حتى إنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلى إنما قُدَّ على قدّ القرآن والحديث كما يقد الثوب على قد لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولاً وسعة . إذن فنحن نجهر بأن هذا ليس من طبيعة الأشياء ، وأن هذه الدقة فى الموازاة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلى لا ينبغى أن تحمل على الاطمئنان إلا الذين رُزقوا حظًّا من السذاجة لم يُتح لنا مثله . إنما يجب أن تحملنا هذه الدقة فى الموازاة على الشك والحيرة ، وعلى أن نسأل أنفسنا : أليس يمكن ألا تكون هذه الدقة فى الموازاة نتيجة من نتائج المصادفة وإنما هى شىء تُكلف وأنفق فيه أصحابه بياض الأيام وسواد الليالى ؟ »

٥ ــ أما آخر الأمور التى لحظها الدكتور طه حسين فى الشعر الجاهلى ، وبعثت فى نفسه الشك والريبة ، ودفعته إلى أن يصمه بأنه منحول موضوع ، فهو أنه لم يصلنا إلا عن طريق الرواية الشفهية ، وهو لا يتحدث عن هذا الأمر حديثاً مفصلاً كما صنع فى الأمور الأربعة السابقة ، وإنما اكتفى بأن يشير إليه إشارات عابرة لا يقف عندها طويلاً ، وإن كان حديثه فى جملته يتضمن أثر

---

(١) ص : ١٢٠ .

هذا الدافع الأخير وهو الرواية الشفهية فى نفسه ، ولعل أصرح جملة عن هذا الأمر قوله[١] : « وحسبى أن شعر أمية بن أبى الصلت لم يصل إلينا إلا من طريق الرواية والحفظ لأشك فى صحته كما شككتُ فى شعر امرئ القيس والأعشى وزهير . . . »

وبعد ؛

فقد ختم الدكتور طه فصله الذى تحدث فيه عن دوافع شكه فى الشعر الجاهلى بعبارة فيها جماع ما ذكر ، وفيها تمهيد لما سيذكر ، وذلك قوله[٢] : « إن من الحق علينا لأنفسنا وللعلم أن نسأل : أليس هذا الشعر الجاهلى الذى ثبت أنه لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم ولا حضاراتهم ، بل لا يمثل لغتهم — أليس هذا الشعر قد وضع وضعاً وحُمل على أصحابه حملاً بعد الإسلام ؟ أما أنا فلا أكاد أشك الآن فى هذا . ولكننا محتاجون بعد أن ثبتت لنا هذه النظرية أن نتبين الأسباب المختلفة التى حملت الناس على وضع الشعر والنثر ونحلهما بعد الإسلام . »

أسباب النحل :

ومن أجل ذلك تراه فى « الكتاب الثالث » يبسط « أسباب نحل الشعر » ، بسطاً أفرغ فيه كثيراً من الجهد حتى لقد وصل بنا إلى أن « كل شىء فى حياة المسلمين فى القرون الثلاثة الأولى كان يدعو إلى نحل الشعر وتلفيقه سواء فى ذلك الحياة الصالحة حياة الأتقياء والبررة ، والحياة السيئة حياة الفسق وأصحاب المجون »[٣].

---

(١) ص : ١٥٩ .
(٢) ص : ١٢٣ .
(٣) ص : ١٩٣ .

وهو يرى أن هذه الأسباب التى دعت إلى نحل الشعر ووضعه مردُّها إلى خمسة أمور :

أولاً ــ السياسة :

وهو لا يعنى السياسة بمعناها الواسع الذى نفهمه منها الآن ، وإنما يحصر مدلول السياسة فى العصبية القبلية ، وحتى هذه العصبية لا يتحدث عنها حديثاً شاملاً ، ولكنه يكتفى بمثالين :

١ ــ العصبية « بين المهاجرين والأنصار ، أو بعبارة أصح : بين قريش والأنصار[١] » . ويورد ، لتأييد رأيه ، روايتين ، الأولى : ما يروى من أن عمر بن الخطاب نهى عن رواية الشعر الذى تهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبى ، ويرى الدكتور طه أن « هذه الرواية نفسها تثبت رواية أخرى وهى أن قريشاً والأنصار تذاكروا ما كان قد هجا به بعضهم بعضاً أيام النبى وكانوا حراصاً على روايته ، ويجدون فى ذلك من اللذة والشماتة ما لا يشعر به إلا صاحب العصبية القوية إذا وتر أو انتصر »[٢] . ويدعم رأيه هذا بما يروى أيضاً عن عمر من قوله لأصحاب النبى : « قد كنت نهيتكم عن رواية هذا الشعر لأنه يوقظ الضغائن ، فأما إذ أبوا فاكتبوه » . ويعقب الدكتور طه على ذلك بقوله[٣] : « وسواء أقال عمر هذا أم لم يقله ، فقد كان الأنصار يكتبون هجاءهم لقريش على ألا يضيع » .

والثانية : ما ذكر من أن ابن سلاَّم قال : وقد نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل فى الجاهلية ، فاستكثرت منه فى الإسلام . وعقب عليه الدكتور بقوله[٤] : وليس من شك عندى فى أنها استكثرت بنوع خاص من هذا الشعر الذى يهجّى به الأنصار .

---

(١) ص : ١٣٢ .
(٢) ص : ١٣٣ .
(٣) ص : ١٣٤ .
(٤) ص : ١٣٤ .

٢ ــ وأما المثال الثانى فهو لا يورده فى هذا الفصل الذى عقده عن العصبية القبلية، وإنما ينثره فى الكتاب الذى يليه حين يتحدث عن امرئ القيس وشعره فيقول[١] : « ونحن نذهب هذا المذهب نفسه فى تفسير هذه الأخبار والأشعار التى تمس تنقل امرئ القيس فى قبائل العرب، فهى محدثة نُحلت حين تنافست القبائل العربية فى الإسلام، وحين أرادت كل قبيلة أن تزعم لنفسها من الشرف والفضل أعظم حظ ممكن » .

ولم يكتف الدكتور بذلك بل يقول[٢] : « ونحن لا نقف عند استخلاص هذه النتيجة وتسجيلها وإنما نستخلص منها قاعدة علمية، وهى أن مؤرخ الآداب مضطر حين يقرأ الشعر الذى يسمّى جاهليًّا أن يشك فى صحته كلما رأى شيئاً من شأنه تقوية العصبية أو تأييد فريق من العرب على فريق . ويجب أن يشتد هذا الشك كلما كانت القبيلة أو العصبية التى يؤيدها هذا الشعر قبيلةً أو عصبية قد لعبت ــ كما يقولون ــ دوراً فى الحياة السياسية للمسلمين » .

ثانياً ــ الدين :

وهو يدخل فى باب الدين ما يلى من الأمثلة :

١ ــ « فكان هذا النحل فى بعض أطواره يقصد به إلى إثبات صحة النبوة وصدق النبى ، وكان هذا النوع موجهاً إلى عامة الناس . وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كل ما يروى من هذا الشعر الذى قيل فى الجاهلية ممهداً لبعثة النبى وكل ما يتصل بها من هذه الأخبار والأساطير التى تروى لتقتنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم ، وأحبار اليهود ورهبان النصارى ، كانوا ينتظرون بعثة نبى عربى يخرج من قريش أو من مكة . وفى سيرة ابن هشام وغيرها من كتب

---

(١) ص : ٢٢٢ ــ ٢٢٣ .

(٢) ص : ١٤٥ ــ ١٤٦ .

التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع »[١] .

٢ — « وأنت تستطيع أن تحمل على هذا لوناً آخر من الشعر المنحول لم يضف إلى الجاهليين من عرب الإنس، وإنما أضيف إلى الجاهليين من عرب الجن[٢] . . . . والغرض من هذا النحل — فيما نرجح — إنما هو إرضاء حاجات العامة الذين يريدون المعجزة فى كل شىء ، ولا يكرهون أن يقال لهم : إن من دلائل صدق النبي فى رسالته أنه كان منتظراً قبل أن يجىء بدهر طويل ، تحدثت بهذا الانتظار شياطين الجن وكهان الإنس . . .[٣] »

٣ — « ونوع آخر من تأثير الدين فى نحل الشعر وإضافته إلى الجاهليين ، وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه فى قريش . . .[٤] »

٤ — « نحو آخر من تأثير الدين فى نحل الشعر ، وهو هذا الذى يلجأ إليه القصاص لتفسير ما يجدونه مكتوباً فى القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود ومن إليهم ، فالرواة يضيفون إليهم شعراً كثيراً . وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جدّ فى طبقات الشعراء فى إثبات أن هذا الشعر وما يشبهه مما يُضاف إلى تُبّع وحمير موضوع منحول وضعه ابن إسحق ومن إليه من أصحاب القصص . . .[٥] »

٥ — « ونحو آخر من تأثير الدين فى نحل الشعر ، وذلك حين ظهرت الحياة العلمية عند العرب بعد أن اتصلت الأسباب بينهم وبين الأمم المغلوبة . فأرادوا هم أو الموالى أو أولئك وهؤلاء أن يدرسوا القرآن درساً لغوياً ويثبتوا صحة ألفاظه ومعانيه . ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق فى ألفاظه للغة العرب ، فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات

---

(١) ص : ١٤٧ .
(٢) ص : ١٤٧ — ١٤٨ .
(٣) ص : ١٤٩ .
(٤) ص : ١٥٠ .
(٥) ص : ١٥٣ .

القرآن بشيء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل إلى الشك فى عربيتها . . .[١] »

٦ — « وهنا نوع جديد من تأثير الدين فى نحل الشعر ، فهذه الخصومات بين العلماء كان لها تأثير غير قليل فى مكانة العالم وشهرته . . . ومن هنا كان هؤلاء العلماء حراصاً على أن يظهروا دائماً بمظهر المنتصرين . . . . وأى شيء يتيح لهم هذا مثل الاستشهاد بما قالته العرب قبل نزول القرآن . . . . وهم مجمعون على أن هؤلاء الجاهليين الذين قالوا فى كل شيء كانوا جهلة غلاظاً فظاظاً . أفترى إلى هؤلاء الجهال الغلاظ يُستشهَد بجهلهم وغلظتهم على ما انتهت إليه الحضارة العباسية من علم ودقة فنية ؟ فالمعتزلة يثبتون مذاهبهم بشعر العرب الجاهليين ، وغير المعتزلة من أصحاب المقالات ينقضون آراء المعتزلة معتمدين على شعر الجاهليين . . . لأمر ما كان البدع فى العصر العباسى عند فريق من الناس أن يردّ كل شيء إلى العرب حتى الأشياء التى استحدثت أو جاء بها المغلوبون من الفرس والروم وغيرهم[٢] . . »

٧ — ويعرض لما يروى من وجود أفراد قبل الإسلام كانوا يحتفظون بالحنيفية دين إبراهيم وكان فى أحاديثهم ما يشبه الإسلام، فيقول[٣] : « فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم بعد الإسلام لا لشيء إلا ليثبت أن للإسلام فى بلاد العرب قُدْمة وسابقة . وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التى تضاف إلى الجاهليين والتى يظهر بينها وبين ما فى القرآن والحديث شبه قوى أو ضعيف ».

٨ — ثم يتحدث عن المسيحية واليهودية فيقول[٤] : « ليس من المعقول أن

---

(١) ص : ١٥٣ .
(٢) ص : ١٥٤ — ١٥٥ .
(٣) ص : ١٥٧ .
(٤) ص : ١٦٢ — ١٦٣ .

ينتشر هذان الدينان فى البلاد العربية دون أن يكون لهما أثر ظاهر فى الشعر العربى قبل الإسلام . وقد رأيت أن العصبية العربية حملت العرب على أن ينحلوا الشعر ويضيفوه إلى عشائرهم فى الجاهلية بعد أن ضاع شعر هذه العشائر ، فالأمر كذلك فى اليهود والنصارى : تعصبوا لأسلافهم من الجاهليين ، وأبوا إلا أن يكون لهم شعر كشعر غيرهم من الوثنيين ، وأبوا إلا أن يكون لهم مجد وسؤدد كما كان لغيرهم مجد وسؤدد ، فنحلوا كما نحل غيرهم ونظموا شعراً أضافوه إلى السموءل ابن عادياء وإلى عدى بن زيد وغيرهما من شعراء اليهود والنصارى . . . »

ثالثاً — القصص :

وقد عرض للقصص والقصاصين غير مرة فيما سبق من فصول كتابه ، ولكنه فى هذا الفصل يخص القصص والقصاصين بالحديث كله . فبعد أن يتحدث عن نشأة القصص وقيام طائفة القصاص يقول[1] : « وأنت تعلم أن القصص العربى لا قيمة له ولا خطر فى نفس سامعيه إذا لم يزينه الشعر من حين إلى حين . . وإذن فقد كان القصاص أيام بنى أمية وبنى العباس فى حاجة إلى مقادير لا حد لها من الشعر يزينون بها قصصهم ، ويدعمون بها مواقفهم المختلفة فيه . وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون . ولا أكاد أشك فى أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يستقلون بقصصهم ، ولا بما يحتاجون إليه من الشعر فى هذا القصص ، وإنما كانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها ، وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها . ولدينا نص يبيح لنا أن نفترض هذا الفرض ، فقد حدثنا ابن سلاَّم أن ابن إسحق كان يعتذر عما يروى من غُثاء الشعر فيقول : لا علم لى بالشعر ، إنما أوتَى به فأحمله . فقد كان هناك قوم إذن يأتون بالشعر وكان هو يحمله . فمن هؤلاء القوم ؟ أليس

(١) ص : ١٦٨ — ١٦٩ .

من الحق لنا أن نتصور أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يتحدثون إلى الناس فحسب، وإنما كان كل واحد منهم يشرف على طائفة غير قليلة من الرواة والملفقين ومن النُّظَّام والمنسِّقين، حتى إذا استقام لهم مقدار من تلفيق أولئك وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من روحهم وأذاعوه بين الناس». ثم يخص بالذكر ثلاثة ضروب من القصص: قصص لتفسير طائفة من الأمثال والأسماء والأمكنة[١]. وقصص المعمَّرين وأخبارهم[٢]. وقصص أيام العرب وأخبارها[٣].

رابعاً — الشعوبية:

ثم يتحدث عن الخصومة بين العرب والموالى فى الإسلام فيقول[٤]: «أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعوبية قد نحلوا أخباراً وأشعاراً وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين. ولم يقف أمرهم عند نحل الأخبار والأشعار، بل هم قد اضطروا خصومهم ومناظريهم إلى النحل والإسراف فيه..» ويقول[٥]: «كانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم. وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم.»

ثم يعيد ما أشار إليه عند حديثه عن الدين، فيقول[٦]: «ونوع آخر من النحل دعت إليه الشعوبية، تجده بنوع خاص فى كتاب الحيوان للجاحظ وما يشبهه من كتب العلم التى ينحو بها أصحابها نحو الأدب. ذلك أن الخصومة بين العرب والعجم دعت العرب وأنصارهم إلى أن يزعموا أن الأدب العربى القديم لا يخلو أو لا يكاد يخلو من شىء تشتمل عليه العلوم المحدثة، فإذا عرضوا لشىء

---

(١) ص: ١٧٤.
(٢) ص: ١٧٥.
(٣) ص: ١٧٦.
(٤) ص: ١٧٨.
(٥) ص: ١٨٦.
(٦) ص: ١٨٧.

مما فى هذه العلوم الأجنبية فلا بد من أن يثبتوا أن العرب قد عرفوه أو ألموا به أو كادوا يعرفونه ويلمون به » .

خامساً ــ الرواة :

والرواة فى رأيه « بين اثنتين : إما أن يكونوا من العرب ، فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب ، وإما أن يكونوا من الموالى ، فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالى من تلك الأسباب العامة ، وهم على تأثرهم بهذه الأسباب العامة متأثرون بأشياء أخرى هى التى أريد أن أقف عندها وقفات قصيرة . ولعل أهم هذه المؤثرات التى عبثت بالأدب العربى وجعلت حظه من الهزل عظيماً : مجون الرواة وإسرافهم فى اللهو والعبث ، وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق إلى ما يأباه الدين وتنكره الأخلاق »[1] .

ثم يتحدث عن حماد وخلف وأبى عمرو الشيبانى ، وبعد أن يعرض ما يروى عن مجونهم وفسقهم ووضعهم الأشعار يقول[2] : « وإذا فسدت مروءة الرواة كما فسدت مروءة حماد وخلف وأبى عمرو الشيبانى ، وإذا أحاطت بهم ظروف مختلفة تحملهم على الكذب والنحل ككسب المال والتقرب إلى الأشراف والأمراء والظهور على الخصوم والمنافسين ، ونكاية العرب ــ نقول : إذا فسدت مروءة هؤلاء الرواة وأحاطت بهم مثل هذه الظروف ، كان من الحق علينا ألا نقبل مطمئنين ما ينقلون إلينا من شعر القدماء . . . وهناك طائفة من الرواة غير هؤلاء ليس من شك فى أنهم كانوا يتخذون النحل فى الشعر واللغة وسيلة من وسائل الكسب . وكانوا يفعلون ذلك فى شىء من السخرية والعبث نريد بهم هؤلاء

---

(١) ص : ١٨٨ .

(٢) ص : ١٩١ ــ ١٩٢ .

الأعراب الذين كان يرتحل إليهم فى البادية رواة الأمصار يسألونهم عن الشعر والغريب . . »

* * *

شكُّه فى شعر شعراء سماهم :

أما القسم الثالث من كتابه ، وهو القسم الخاص الذى يتحدث فيه عن شكه فى شعر شعراء بذواتهم ، فقد خصص للحديث له الكتاب الرابع . وقد أعاد فى هذا القسم كثيراً مما كان قد ذكره فى القسمين السابقين : فصَّل بعضه وأطال شرحه ، وأوجز بعضه أو اكتفى بالإشارة إليه والتذكير به . وسنعرض فيما يلى ما ذهب إليه عرضاً موجزاً إيجازاً مركَّزاً يدل على المعنى المقصود فى جملته ، وإن كان يتحيَّف منه لأنه لا ينقل جوَّ الحديث كما رسمه الدكتور طه بأسلوبه .

امرؤ القيس : وأول من عرض له من هؤلاء الشعراء هو امرؤ القيس . وقد شك فيه وفى شعره لأسباب ، أولها : تضارب الرواة فى اسمه وكنيته ونسبه وحياته[1] . وثانيها : أن قسماً من شعره يدور على قصة حياته يفسرها ويؤيدها ، وهو يرى أن هذا القسم موضوع نُحِل ليفسر هذه القصة[2] . وثالثها : أن القسم الآخر من شعره المستقل عن الأهواء السياسية والحزبية موضوع منحول كذلك لأن « الضعف فيه ظاهر والاضطراب فيه بيِّن ، والتكلف والإسفاف فيه يكادان يُلمسان باليد . »[3] ورابعها : أنه يستثنى من هذا القسم الأخير قصيدتين هما :

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

و : أَلَا انْعَمْ صَباحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي

ومع ذلك فهو يشك فيهما من وجوه : الوجه الأول : « أن امرأ القيس — إنْ

(١) ص : ٢١٦ — ٢١٨ .
(٢) ص : ٢٢١ .
(٣) ص : ٢٢٥ .

صحت أحاديث الرواة — يمنى ، وشعره قرشى اللغة ، لا فرق بينه وبين القرآن فى لفظه وإعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام . ونحن نعلم — كما قدمنا — أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز ، فكيف نظم الشاعر اليمنى شعره فى لغة أهل الحجاز ، بل فى لغة قريش خاصة ؟ سيقولون : نشأ امرؤ القيس فى قبائل عدنان ، وكان أبوه ملكاً على بنى أسد ، وكانت أمه من بنى تغلب ، وكان مهلهل خاله ، فليس غريباً أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمن . ولكننا نجهل هذا كله ، ولا نستطيع أن نثبته إلا من طريق هذا الشعر الذى ينسب إلى امرئ القيس ، ونحن نشك فى هذا الشعر ونصفه بأنه منحول »[١] . والوجه الثانى : أن امرأ القيس لم يذكر قصة البسوس ولم يذكر شيئاً عن خاليه مهلهل وكليب ابنى ربيعة[٢] . والوجه الثالث : أن الرواة « يختلفون اختلافاً كثيراً فى رواية القصيدة : فى ألفاظها وفى ترتيبها ، ويضعون لفظاً مكان لفظ وبيتاً مكان بيت . »[٣]

علقمة : وهو يشك فى علقمة لقلة ما يعرفه العلماء من أخباره « فلا يكاد الرواة يذكرون عنه شيئاً إلا مفاخرته لامرئ القيس ، ومدحه ملكاً من ملوك غسان ، . . . وإلا أنه كان يتردد على قريش ويناشدها شعره ، وإلا أنه مات بعد ظهور الإسلام أى فى عصر متأخر جداً بالقياس إلى امرئ القيس[٤] . . .

عبيد بن الأبرص : وشكه فى عبيد من وجهين : لأن « الرواة لا يحدثوننا عن عبيد بشىء يقبل التصديق : إنما عبيد عند الرواة والقصاص شخص من أصحاب الخوارق والكرامات ، كان صديقاً للجن والإنس معاً ، عُمِّر عمراً طويلاً[٥] » .

---

(١) ص : ٢٢٥ .
(٢) ص : ٢٢٦ .
(٣) ص : ٢٢٧ .
(٤) ص : ٢٣٢ .
(٥) ص : ٢٣٢ .

وأما شعره « فليس أشد من شخصيته وضوحًا . فالرواة يحدثوننا بأنه مضطرب ضائع . . . فأما شعره الآخر الذى عارض فيه امرأ القيس وهجا فيه كندة فلا حظَّ له من الصحة فيما نعتقد ، وذلك أن فيه إسفافاً وضعفاً وسهولة فى اللفظ والأسلوب لا يمكن أن تضاف إلى شاعر قديم[١] . . . »

عمرو بن قميئة : ويشك فى عمرو لسببين أيضاً هما : غموض حياته ، فهو يرى « أن عمرو بن قميئة ضاع كما ضاع امرؤ القيس من الذاكرة ، ولم يُعرَّف من أمره شيء إلا اسمه هذا ، كما لم يعرف من أمر امرئ القيس ولا من أمر عبيد إلا اسمهما ؛ ووضعت له قصة كما وضع لكل من صاحبيه قصة ، وحمل عليه شعر كما حمل على صاحبيه الشعر أيضاً »[٢] . والثانى أن فى شعره سهولة ولينًا[٣] .

مهلهل : وهو يعيد فى مهلهل ، كما أعاد فيمن قبله وسيعيد فيمن بعده ، الأسباب نفسها مع قليل من النقص أو الزيادة ، فهو يشك فى مهلهل للأسباب التالية : غموض شخصيته[٤] ، واضطراب شعره واختلاطه[٥] ، واستقامة وزن شعره ، واطراد قافيته ، وملاءمته قواعد النحو — ومع أنه أقدم شعر قالته العرب[٦] ، وسهولة لفظه ولينه وإسفافه[٧] .

عمرو بن كلثوم : ويشك فى عمرو بن كلثوم وشعره لثلاثة أسباب : كثرة الأساطير فى حياته[٨] ، ورقة لفظ شعره وسهولته وقرب فهمه[٩] ،

---

(١) ص : ٢٣٣ .
(٢) ص : ٢٣٥ .
(٣) ص : ٢٣٧ .
(٤) ص : ٢٣٩ — ٢٤٠ .
(٥) ص : ٢٤٠ .
(٦) ص : ٢٤٠ — ٢٤١ .
(٧) ص : ٢٤١ .
(٨) ص : ٢٤٣ — ٢٤٤ .
(٩) ص : ٢٤٦ .

واضطراب أبيات قصيدته (المعلقة) وتكرار بعضها[١] .

الحارث بن حلزة : حتى إذا ذكر الحارث بن حلزة لم يقدم لنا سبباً لشكه ، غير أنه يورد أبياتاً من معلقة عمرو بن كلثوم ، ويذكر أن قصيدة الحارث أمتن وأرصن[٢] . ثم يقول[٣] : « ولسنا نتردد فى أن نعيد ما قلناه من أن هاتين القصيدتين وما يشبههما مما يتصل بالخصومة بين بكر وتغلب إنما هو من آثار التنافس بين القبيلتين فى الإسلام لا فى الجاهلية » .

طرفة : ويشك فى شعر طرفة لسببين ، الأول : شذوذه عن شعراء ربيعة فى قوة متنه وشدة أسره وإغرابه حتى صار شعره « أشبه بشعر المضريين منه بشعر الربعيين[٤] »، والثانى : اختفاء شخصيته فى القصائد الأخرى غير المعلقة أو غير أبيات من المعلقة[٥] . والغريب أنه يورد أبياتاً من المعلقة ويقول : « فى هذا الشعر شخصية بارزة قوية ، لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها متكلفة أو منحولة أو مستعارة »، ثم يقول : « ولست أدرى أهذا الشعر قد قاله طرفة أم قاله رجل آخر . وليس يعنينى أن يكون طرفة قائل هذا الشعر ، بل ليس يعنينى أن أعرف اسم صاحب هذا الشعر ، وإنما الذى يعنينى هو أن هذا الشعر صحيح لا تكلف فيه ولا نحل ! ! »

المتلمس : وهو يشك فى شعر المتلمس لما « فيه من رقة وإسفاف وابتذال »[٦] كشعر ربيعة الذى قدم الإشارة إليه ، ولأن تكلف القافية ، وخاصة فى سينيته ، ظاهر ملموس ، ثم يقول[٧] : « وأكبر الظن أن كل ما يضاف إلى المتلمس

---

(١) ص : ٢٤٥ .
(٢) ص : ٢٤٨ — ٢٤٩ .
(٣) ص : ٢٥٠ .
(٤) ص : ٢٥٢ .
(٥) ص : ٢٥٤ — ٢٥٥ .
(٦) ص : ٢٥٥ .
(٧) ص : ٢٥٥ — ٢٥٦ .

من شعره أو أكثره – على أقل تقدير – مصنوع ، الغرض منه تفسير طائفة من الأمثال وطائفة من الأخبار . . »

الأعشى : وهو يشك فى الأعشى للسبب نفسه الذى دعاه إلى الشك فى كثير غيره ممن قدمنا ، وذلك لتناقض الأخبار عنه ، فهو يقول[١] : « ...ولكن الرواة بعد هذا لا يعرفون من أمر الأعشى إلا طائفة من الأحاديث لا سبيل إلى الثقة بها أو الاطمئنان إليها . بعض هذه الأحاديث فيه رائحة الأساطير ، وبعضها ظاهر فيه الكذب والنحل، وبعضها يستنبط من أبيات من الشعر شائعة على هذا النحو الذى يستنبط به القدماء أخبارهم من شعر لا يعرف من أين جاء » . ثم هو يشك فى شعره بعد أن يقسمه إلى قسمين ، الأول : شعر المدح : ويرى أنه منحول عليه وأنه « مظهر من مظاهر العصبية فى الإسلام »[٢] ، وأن « الكثرة من شعر الأعشى قد صنعت فى الإسلام فى الكوفة ، وكانت مظهر التحالف العصبى بين ربيعة واليمن على مضر[٣] » . والثانى : شعر الغزل وهو يقول عنه[٤] : « ولكنى أجد فى غزل الأعشى ليناً شديداً أعرفه فى شعر ربيعة ، وأعلله بالتكلف والنحل » . ثم يلخص رأيه فى الأعشى بقوله[٥] : « إنه شاعر عاش فى آخر العصر الجاهلى ، وتصرف فى فنون من الشعر أظهرها الغزل والخمر والوصف ، ومدح طائفة من أشراف العرب ، ولكن العصبية استغلت هذا المدح ، ولعله كان قد ضاع فأضافت إليه مكانه مدحاً كثيراً لليمنيين ومدحاً قليلاً للمضريين ولا شك فى أن بين هذا الشعر الذى يضاف إلى الأعشى مقطوعات وأبياناً يمكن أن يكون الأعشى قد قالها حقاً ، ولكن تمييز هذه الأبيات والمقطوعات مما يحيط بها من المنحول المتكلف ليس بالشىء اليسير . على أن هذا

---

(١) ص : ٢٥٧ .
(٢) ص : ٢٦٥ .
(٣) ص : ٢٦٣ .
(٤) ص : ٢٦٥ .
(٥) ص : ٢٦٧ .

المنحول الذى يضاف إلى الأعشى مختلف أشد الاختلاف ، ففيه الجيد المتقن وفيه الضعيف السخيف . . . »

الشعر المضرىّ :

كان أكثر حديثه السابق عن شعراء اليمن وربيعة ، وأما خلاصة رأيه فى الشعر المضرى فتتمثل فى قوله[1] : « نحن لا نقف من الشعر المضرى الجاهلى موقف الرفض أو الإنكار لأن الصعوبة اللغوية التى اضطرتنا إلى أن نرفض شعر الربعيين واليمنيين لا تعترضنا بالقياس إلى المضريين. فقد بينا لك غير مرة أنا نعتقد أن لغة القرشيين قد ظهرت فى الحجاز ونجد قبيل الإسلام ، وأصبحت لغة أدبية فى هذا القسم الشمالى من بلاد العرب . وإذن فليس يبعد بوجه من الوجوه أن يكون الشعراء الذين نجموا فى هذه الناحية قد قالوا الشعر فى هذه اللغة القرشية الجديدة ، بل نحن لا نشك فى هذا ولا نتردد فى القطع به . . . لسنا نشك فى أن قد كان لمضر شعر فى الجاهلية ، ولسنا نشك أيضاً فى أن هذا الشعر قديم العهد بعيد السابقة أقدم وأبعد مما يظن الرواة والمتقدمون من العلماء . ولكننا لانشك أيضاً فى أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته ولم يبق لنا منه إلا شىء قليل جداً لا يكاد يمثل شيئاً ، وهذا المقدار القليل الذى بقى لنا من شعر مضر قد اضطرب وكثر فيه الخلط والتكلف والنحل ، حتى أصبح من العسير جداً ، إن لم يكن من المستحيل ، تلخيصه وتصفيته .

---

(١) ص : ٢٧٥ – ٢٧٦ .

مقياسه فى الحكم على صحة الشعر الجاهلى :

ثم ينتقل بنا إلى الحديث عن المقياس الذى نعرف به صحة الشعر الجاهلى ، فيرى أن نقد السند وحده لا يكفى « لتصحيح ما يصل إلينا من طريقه . ولا بد لنا من أن نتجاوز هذا النقد الخارجى إلى نقد داخلى ، إن صح هذا التعبير ، إلى نقد يتناول النص الشعرى نفسه فى لفظه ومعناه ونحوه وعروضه وقافيته »[1] . ولكنه سرعان ما يستدرك ويبين أن هذا الضرب من النقد « ليس يسيراً ولا منتجاً الآن بالقياس إلى الشعر الجاهلى . فنحن لا نستطيع أن نقول فى يقين أو ترجيح علمى أن هذا النص ملائم من الوجهة اللغوية للعصر الجاهلى أو غير ملائم ، لأن لغة هذا العصر الجاهلى لم تضبط ضبطاً تاريخياً ولا علمياً صحيحاً ، وكل ما صح لنا منها صحة قاطعة ، ولكنها فى حاجة إلى التدوين ، إنما هى لغة القرآن . ولكن من ذا الذى يستطيع أن يزعم أن القرآن قد استعمل كل الألفاظ التى كانت شائعة مألوفة بين المضريين أيام النبى ؟ . . .[2] »

ويعنينا أن نذكر رأيه فى غرابة اللفظ وكيف يتخذها بعضهم مقياساً لتحقيق الشعر الجاهلى ، ويصف هذا المذهب بأنه مذهب خداع[3] . ويقول : « لا ينبغى أن تتخذ غرابة اللفظ دليلاً على الصحة والقدم ، ولا ينبغى أن تتخذ سهولة اللفظ دليلاً على النحل والجدة . . .[4] »

---

(١) ص : ٢٨٦ .

(٢) ص : ٢٨٦ . ألحظ أن الدكتور فى ص : ٢٩٥ يقول : « فنحن نشترط أن يكون لفظ زهير ومعناه ملائمين ملاءمة ظاهرة للحياة البدوية آخر العصر الجاهلى . ولا ينبغى أن يعترض بما قدمنا من أننا ننكر أن تكون اللغة الجاهلية المضرية قد دونت تدويناً علمياً صحيحاً ، فنحن لا نغير رأينا فى هذا ، ولكننا مع ذلك نعرف هذه اللغة بوجه ما ، بفضل القرآن والحديث ، فنستطيع إذن أن نتصورها تصوراً ما ، ونستطيع إذن أن نقول إن هذه الألفاظ ملائمة أو غير ملائمة للغة الجاهليين أيام النبى !! »

(٣) ص : ٢٨٧ .

(٤) ص : ٢٩١ ، ومع ذلك فقد رأينا فيما تقدم أنه شك فى بعض الشعر لسهولة ألفاظه ويسرها وقرب فهمها !

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن « المقياس المركب » فيقول[1]: « يجب أن ننبه من الآن إلى أننا لم نوفق بعد لمقياس علمى نستطيع أن نطمئن إليه حقًّا ، ولكننا مع ذلك لم نيأس من الوصول إلى مقياس أو مقاييس ، إلا تفد اليقين ، فقد تفيد الظن ، وقد تنتهى أحياناً إلى الترجيح الذى يقرب إلى اليقين . نحن لا نعتمد على اللفظ وحده ، ولا نعتمد على اللفظ والمعنى ليس غير ، وإنما نعتمد على اللفظ والمعنى وعلى أشياء أخرى فنية وتاريخية » . وهو لا يكتفى باللفظ والمعنى لأنهما وحدهما لا يمنعان « إمكان التقليد والتزييف » . أما هذه الأشياء الأخرى التى ذكرها فهى « الخصائص الفنية . وهذه الخصائص الفنية يمكن أن تُلتمس عند شاعر واحد ، عند زهير مثلا ، ويمكن أن تلتمس عند طائفة من الشعراء . . . » ثم يتحدث عن أن هذه الخصائص الفنية إذا اجتمعت لطائفة من الشعراء أصبحت هذه الطائفة « مدرسة شعرية » ثم يفصل القول فى إحدى هذه المدارس وهى المدرسة التى تتألف من : أوس بن حجر وزهير والحطيئة وكعب بن زهير .

٣

وكان لكتاب « فى الشعر الجاهلى » أثر كبير ، ودوى شديد ؛ فأشرع كثير من العلماء والأدباء أقلامهم وتناولوا الكتاب وما فيه بالنقد والنقض ، وتفاوت نقدهم واختلفت طرائقهم : فاعتدل بعضهم والتزم حدود الموضوع ، ومضوا ينقدون فى أسلوب هادئ ولفظ عفّ ، وغلا بعضهم فاشتد واشتط ، وتجاوزوا الكتاب إلى صاحب الكتاب . ونُشر أكثر ذلك فى صحف ذلك العهد ، ثم جمع بعضه فى كتب هى : كتاب « نقد كتاب الشعر الجاهلى » للأستاذ محمد فريد وجدى ، وكتاب « الشهاب الراصد » للأستاذ محمد لطفى جمعة ، وكتاب « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » للسيد محمد الخضر حسين ، وكتاب

(١) ص : ٢٩٦ — ٢٩٧ .

« محاضرات فى بيان الأخطاء العلمية التاريخية التى اشتمل عليها كتاب فى الشعر الجاهلى » للأستاذ الشيخ محمد الخضرى ، وكتاب « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى » للأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، وله مقدمة مفصلة بقلم الأمير شكيب أرسلان ؛ وفصول كثيرة فى كتاب « تحت راية القرآن » للأستاذ مصطفى صادق الرافعى .

وتخليص النقد الموضوعى فى كل تلك الكتب ، ثم تلخيصه ، أمران فيهما من المشقة وبذل الجهد شىء كثير . وسنحاول فى هذه الصفحات جمع ما تفرق فى تضاعيف هذه الكتب ، وترتيبه فى فصول ذات موضوع واحد أو موضوعات متقاربة يجمعها عنوان واحد .

نقد منهج الكتاب وطريقته :

١ — فقد أعلن الدكتور منهجه فى وضوح حين قال[1] : « أريد أن أصطنع فى الأدب هذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه " ديكارت " للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث » . فقام بعضهم ينكر عليه فهم هذا المنهج من أساسه ، ويردّ عليه فى صفحات طويلة[2] ، فذهب إلى أن منهج ديكارت لم يكن منهج شك للشك ذاته ، وإنما يتخذ الشك وسيلة لليقين ، وأن خلاصة هذا المنهج ألا يقبل المرء أمراً على أنه حقيقة إلا إذا قامت الدلائل البينة على صحته ، وأن ديكارت مع ذلك كان يسلم بوجود أشياء لا يجادل فيها ، فهو بذلك يكون منهجاً إيجابياً لا سلبياً ، ويستشهد على كل ذلك بقول أحد دارسى تاريخ المذاهب الفلسفية من الفرنسيين[3] : « وقد آلى ديكارت على نفسه أن لا يقبل المعلومات مهما كانت صفتها وقوة الثقة الملازمة لها ، ماعدا الحقائق الخاصة

---

(١) فى الأدب الجاهلى : ٧٤ .
(٢) محمد لطفى جمعة ، الشهاب الراصد : ١٠ — ٢٥ .
(٣) المصدر السابق : ٢٠ .

بالعقيدة فإنه لم يطبق عليها هذه الطريقة . »

٢ - ولكن آخرين ردوا عليه من وجه آخر فقالوا إنه لم يلتزم المنهج الذى أعلن أنه يريد أن يصطنعه ، وهذا صاحب كتاب" فى الشعر الجاهلى " على الرغم من قبضه على منهج ديكارت ، ونعيه الاطمئنان إلى ما يقوله القدماء ، قد اطمأن فى كثير من هذا النحو الجديد من البحث إلى ما يرويه صاحب الأغانى وغيره ... »[١] ، « ولكنه بغلوه فى تحرى أسباب الاختلاق على الجاهليين التقط من كتب المحاضرات جميع ما فيها مما يتعلق بالاختلاق ، وبالعوامل التى حملت عليه ، وبالمطامع التى دفعت إليه ، ولم يسر فى ذلك على ما يقضى به عليه مذهب ديكارت من النقد والتمحيص ، بل وثق به ثقة مطلقة حملته على إصدار الأحكام جزافاً . . . »[٢] وكان من أثر ذلك أن الدكتور أورد فى كتابه أخباراً وروايات كانت جديرة أن تنال منه بعض عنايته فى الوقوف عندها ونقدها وتمحيصها وتبيين زائفها ثم ردّها ، وقد أورد ناقدوه أمثلة كثيرة على ذلك نكتفى بالإشارة إلى بعض أرقام الصفحات التى وردت فيها فى كتبهم[٣] .

٣ - وذهب بعضهم إلى أن مؤلف الكتاب قد جافى الطريقة العلمية ، ولم يؤسس « لنظريته بالتثبت أولاً من الحقائق قبل أن يدخل فى دور الفرض ... »[٤] وأنه يبدأ بالفرض ، ثم يبنى عليه فرضاً آخر ، ثم ينتهى بالقطع والجزم والثبوت . وقدموا لذلك أمثلة كثيرة منها : أنه يورد ثلاث جمل يبرهن على الأولى منها بقوله « فليس يبعد ! » وعلى الثانية بقوله « فليس ما يمنع ! » وعلى الثالثة بقوله « فالذى يمنع ! » ويبنى على هذه الكلمات الثلاث قوله « أمر هذه القصة إذاً واضح » !

---

(١) محمد الخضر حسين ، نقض كتاب فى الشعر الجاهلى : ١١ .

(٢) محمد فريد وجدى ، نقد كتاب الشعر الجاهلى : ٢ .

(٣) انظر مثلا : الخضر حسين : ١٩٩ - ٢٠١ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ والخضرى : ٣٨ - ٤١ .

(٤) الغمراوى : ١٤١ - ١٤٦ .

ويعقب الناقد على ذلك بقوله[١] : « نعم قد اتضح بنفى البعد فى الأولى ! وعدم المانع فى الأخريين ! وما علمنا بمنطق فى العالم يكتفى فى إقامة البرهان على عدم صحة خبر من الأخبار بأنه لا يبعد ضده أو أنه لا مانع من ضده ! » . ومن ذلك أن الدكتور طه يحتج فى نفى الشعر المستشهد به على القرآن بقوله: «أليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس ونافع بن الأزرق قد وضعت فى تكلف وتصنع ؟ » ثم قال « بل أليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس هذه قد وضعت فى سذاجة وسهولة ويسر ، لا لشىء إلا لهذا الغرض التعليمى اليسير ؟ » فأجابه ناقده بقوله[٢] : « بلى ! هذا ممكن ، كما يمكن أن يكون الخبر صحيحاً ... كما يمكن أن يكون بعضه صحيحاً وبعضه غير صحيح ، كل ذلك ممكن . ولكن الذى يجب أن تجيب عنه هو : بم ترجح عندك أن الخبر مكذوب كله ؟ أهو غير معقول ؟ أم هو مخالف لطبائع التعليم ؟ . . . » ومن ذلك أيضاً أن الدكتور طه قال : « وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التى تضاف إلى الجاهليين والتى يظهر بينها وبين ما فى القرآن والحديث من شبه قوى أو ضعيف » . فعقب عليه الناقد بقوله[٣] : « من شاء أن ينظر إلى قاعدة تمتد إلى غير نهاية ، ولا تتصل بما يمسكها أن تزول إلا إرادة هذا المؤلف ، فلينظر إلى هذه الفقرة التى تمثل قلماً يشتهى أن يكتب فينتكس ويرمى بالحديث فى غير قياس . كل شعر أو خبر أو حديث يضاف إلى الجاهليين ويكون بينه وبين آية من القرآن شبه قوى أو ضعيف فهو مصنوع ! أليس من الجائز أن ينطق العرب بحكمة فيأتى القرآن بهذه الحكمة على وجه أبلغ وأرقى ؟ أمن الحق أن ننكر أن العرب قالوا مثلا : القتل أنفى للقتل ، لمجرد شبهه بقول القرآن (ولَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولى الألْباب) . أوَمن الحق أن ننكر أن

---

(١) الخضرى : ٨ .

(٢) الخضرى : ٢٥ .

(٣) الخضر حسين : ٢١٢ .

زهيراً قال :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ المَنَايا يَنَلْنَهُ وَلَوْ رامَ أَسْبَابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

لأن له شبهاً قويًّا أو ضعيفاً بقول القرآن : ﴿ أَيْنَما تَكُونوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فى بُرُوجٍ مُشَيَّدَة ﴾ .

ومما يتصل بهذا أنه ينص على النتائج من غير ذكر للمقدمات ، فهو مثلاً يعقد فصلاً كاملاً عن « الشعوبية ونحل الشعر » ، ولكنه « لم يأت برواية تدل على أن بعض الشعوبية انتحل (نحل) شعرًا جاهليًّا[1] . » و « قال المؤلف عن الشعوبية ما شاء أن يقول ، واغترف من كتاب الأغانى قصصاً عن أبى العباس الأعمى وإسماعيل بن يسار ، وقصارى ما تدل عليه هذه القصص أن الأول كان يهجو آل الزبير ، وأن الثانى كان يبغض آل مروان ، وله شعر يفخر فيه بالأعاجم ، وزعم أنه وصل بهذا إلى ما كان يريده من تأثير الشعوبية فى انتحال (نحل) الشعر ، ولكنه لم يستطع أن يضرب لك مثلاً يريك كيف انتحلت (نحلت) الشعوبية شعراً جاهليًّا ، فضاق بمنهج ديكارت ذرعا...[2] » وكذلك الفصل الذى عقده عن « السياسة ونحل الشعر » ، فقد تحدث فيه عن الأنصار وقريش والخصومات بينهم ، فعقب عليه ناقده بقوله[3] « كل ذلك مفهوم مفروغ منه ، وليس فيه من جديد . أما الجديد الذى فاجأ به القراء فهو قوله بعد ذكر هذه العصبية : " يستطيع الكاتب فى تاريخ الأدب أن يضع سفراً مستقلاً فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير فى شعر الفريقين الذى قالوه فى الإسلام وفى الشعر الذى انتحله الفريقان على شعرائهما فى الجاهلية. "

---

(١) الخضر حسين : ٢٤٧ .
(٢) الخضر حسين : ٢٤٨ – ٢٤٩ .
(٣) الخضرى : ٣٢ .

مع أن مقدمته الطويلة لم يوجد بها كلمة واحدة تتصل بأن فريقاً من الفريقين اختلق شعراً ونسبه إلى شعرائه فى الجاهلية ، وإنما الأحاديث كلها فى الشعراء الذين كانوا فى أول العهد الإسلامى يتقارضون الشعر ، وفى العهد الذى يلى ذلك » .

٤ — ومن جملة ما أخذوه به التناقضُ الذى وقع فيه . فهو يقول : « وهذا البحث ينتهى بنا إلى أن أكثر هذا الشعر الذى يضاف لامرئ القيس ليس من امرئ القيس فى شىء ، وإنما هو محمول عليه ومختلق عليه اختلاقاً . » فيعقب ناقده بقوله [١] « ذهب المؤلف فى بعض الصحف من كتابه إلى أن هذا الشعر الذى ينسب إلى امرئ القيس لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون له . ومقتضى تمسكه بأن امرأ القيس يمنى مولداً ونشأةً ، وأن لغة قحطان نازلة من لغة عدنان منزلة اللغات غير العربية ، أن يكون جميع هذا الشعر الذى يضاف إلى امرئ القيس منحولاً ، فإنا لم نجد شيئاً منه على غير اللغة التى ينظم فيها شعراء نجد والحجاز . ولكن المؤلف يقول فى هذه الصفحة : إن البحث ينتهى به إلى أن أكثر هذا الشعر ليس من امرئ القيس فى شىء . ومعنى هذا أن فى الشعر المضاف إلى امرئ القيس شعراً هو منه فى شىء ، وأظن أن المؤلف سيجد كثيراً من المشقة والعناء ليحل هذه المشكلة .. » وقال الدكتور طه أيضاً : « ولا سيما إذا صحت النظرية التى أشرنا إليها آنفاً وهى نظرية العزلة العربية ، وثبت أن العرب كانوا متقاطعين متنابذين ، وأنه لم يكن بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللهجة» . فتعقبه الناقد بقوله[٢] : « أتدرى ما هى نظرية العزلة التى أشار إليها آنفاً ؟ هى تلك النظرية التى رماها على أكتاف " الذين تعودوا أن يعتمدوا على هذا الشعر الجاهلى فى درس الحياة العربية قبل الإسلام " ، وشن عليها الغارة بنكير لا هوادة فيه . . . أنكر المؤلف نظرية

---

(١) الخضر حسين : ٣٠٦ .

(٢) الخضر حسين : ٩٩ — ١٠٠ ، وانظر أيضاً الغمراوى : ١٩٤ .

العزلة العربية حين رآها تعترض ما أراده من أن للجاهليين اتصالاً بالعالم الخارجي، وودّ فى هذا الفصل أن تستقيم له لأنها تؤيد نظرية عدم التقارب بين لغات القبائل العربية » . وقال الدكتور طه أيضاً إنه يستثنى من النحل قصيدتين لعلقمة مع شيء من التحفظ ثم يقول: «وصحة هاتين القصيدتين لا تمس رأينا فى الشعر الجاهلى » فيعقب عليه ناقده بقوله[1]: « ولعله نسى — وأمثاله لا ينسون كثيراً — ما كتبه تحت عنوان الشعر الجاهلى واللهجات حين قال " ومن المعقول جداً أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها فى الكلام ، وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات فى شعر هذه القبائل الذى قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة" . ومن المعروف أن علقمة من بنى تميم ، والقصيدتان اللتان استثناهما ورضى بقبولهما لا تخرجان عن هذه اللغة الأدبية التى يسميها لغة قريش ، فقبوله لهاتين القصيدتين ينقض أساس ذلك الفصل . . . »

ومن ذلك أيضاً قول الناقد إن الدكتور طه قد[2] «نبّهه النقد منذ أكثر من عام إلى أن ثبوت اختلاف لغة الجنوب عن لغة الشمال ، لو ثبت أنهما كانتا مختلفتين فى العصر الجاهلى القريب ، لا يصلح دليلاً على أن أدب يمانية الشمال موضوع ، لأن قبائل اليمن فى الشمال كانت هاجرت من الجنوب إلى الشمال منذ أمد بعيد، فلم يكن هناك بد لمن نشأ فى الشمال من ذرياتها أن ينشأ على لغة الشمال ، ويتخذها لغة أدب ولغة خطاب ، فجاء صاحب الكتاب هذا العام يجيب على هذا بلهجة المستوثق مما يقول ، فهل تدرى بماذا أجاب ؟ أجاب بأن هجرة فريق من عرب اليمن إلى الشمال غير ثابتة ! وأن صحة يمانية من انتسب إلى اليمن من قبائل الشمال غير ثابتة ! وإذن يسقط ذلك الاعتراض ! إن من المؤلم حقاً أن يلجّ الأستاذ فى المماراة إلى هذا الحد . فلا يدرك أن جوابه هذا مسقطٌ كلّ ما قال ، وأنه إذا صح أن التاريخ القديم والتاريخ الحديث أجمعا على خطأ فلم تكن هجرة ،

(١) الخضر حسين : ٣٢٣ .
(٢) النمراوى : ١٨٨ .

ولم يكن فى الشمال يمانيون — لم يكن هناك أدنى شبهة لغوية يمكن أن يعترض بها على صحة كلام مثل امرئ القيس ؛ إذ يصير امرؤ القيس ومن معه بذلك مضريين ، ويصير من السخف أن يقال بعد ذلك إن كلامهم وشعرهم منحول لأن لغته ليست لغة نقوش حميرية اكتشفت فى الجنوب ، حتى ولو كانت لغة النقوش تمثل لغة اليمن فى عصر امرىء القيس — لكن صاحب الكتاب يدافع عن باطل...» وحسبنا ما قدمنا من أمثلة التناقض ، وتجد طائفة أخرى منها اكتفينا بالإشارة إلى أرقام صفحات الكتب التى تشير إليها فى الهامش[1] .

٥ — وأمر آخر يتصل بمجافاة الطريقة العلمية ، وهو إيراد النصوص على وجه يختلف عما كانت عليه فى حقيقتها ، والاستدلال بها على ما لا تدلّ عليه فى أصلها لو أوردت كاملة . ومن أمثلة ذلك أن الدكتور طه يقول : « فأما خَلَفٌ فكلام الناس فى كذبه كثير ، وابن سلام ينبئنا بأنه كان أفرس الناس ببيت شعر .. . » فالدكتور طه يريد أن يتخذ من كلام ابن سلام حجة على كذب خلف ، ويريد أن يوجّه قوله « أفرس الناس ببيت شعر » توجيهاً يوحى بأنه لتمكنه وقدرته ومهارته كان قادراً على نحل الشعر ووضعه . ولكن ابن سَلام لم يردْ إلى هذا بل أراد نقيضه ! ونصه بكامله هو : « أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقه لساناً ، كنا لا نبالى إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه » . وأى توثيق لخلف أوثق من هذا ؟[2] . ومن ذلك أيضاً أن الدكتور يذكر أن أبا عمرو بن العلاء قال : « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » ولكن نص ابن سلام هو « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا » فحذف الدكتور قوله « وأقاصى اليمن » ، ثم غير قوله « ولا عربيتهم بعربيتنا » فجعله « ولا لغتهم بلغتنا » والفرق بين ما أورد

---

(١) انظر مثلا : الخضر حسين : ١٩ — ٢٠ و ٢٦٣ و ٣١٥ و ٣٤٦ و ٣٥٢ — ٣٥٦ ؛ والخضرى : ٨٤ ؛ والفراوى : ٢٠٠ ، ٣١٣ .

(٢) انظر لذلك الخضر حسين : ٢٧٢ .

الدكتور وبين النص الحقيقى فرق كبير له دلالته التى بيّنها ناقده[١] .

ومن ذلك أيضاً أن الدكتور طه يورد شعراً ثم يقول عنه : « والعجب أن أصحاب الرواية مقتنعون بأن هذا الكلام من شعر الجن ، وهم يتحدثون فى شىء من الإنكار والسخرية بأن الناس قد أضافوا هذا الشعر إلى الشماخ بن ضرار » . وقد أورد أحد ناقديه الروايات التى ذكرت هذا الشعر[٢] ، فلم يكن فيها إنكار ولا سخرية ، بل نسبته كلها إلى الشماخ أو إلى أخيه مزرد ، ما عدا خبراً واحداً ذكر أن عائشة حينما سمعت الشعر قالت : « فكنا نتحدث أنه من الجن . . . » . وفى آخر الخبر نفسه أن عائشة سألت : من صاحب هذه الأبيات ؟ فقالوا : مزرد بن ضرار ، ولكن مزرداً بعد ذلك أنكر أنها له ! والدكتور طه يكتفى أحياناً بذكر رواية واحدة من روايات متعددة ، فقد أورد قصة فيها نحل الشعر ، وفيها تجريح لأحد رواته ، فعقب عليه ناقده بذكر روايات أخرى تنقضها[٣] ، ثم يقول : « أفلا ترى بعد ذلك أن الدكتور اتبع الهوى ، فبادر إلى تصديق حكاية سخيفة من غير أن يؤيدها ما يقويها ، وذكرها وحدها دون أن يذكر الروايات الأخرى إرادة أن يخدع عقول القراء ، فيفهموا أن هذه هى الرواية ، فيتبعوه فيما يريد أن يثبته من تجريح الناس وإشاعة السوء فيهم ؟ ألا يدعونا ذلك إلى القول بأنه متعصب لرأى معين يصطاد له من الأقوال ما يؤيده ، تاركاً التحقيق العلمى الذى يوصل إلى الحق أينما كان ؟ »

٦ — ومما أخذه به ناقدوه أيضاً أن الدكتور طه « أغار على كتب عربية وأخرى غربية فالتقط منها آراء وأقوالاً ، نظمها فى خيط من الشك والتخيل[٤] » . « وأن مؤلف الشعر الجاهلى على الرغم من تعظيمه قدر بحثه بوصفه بالحداثة والطرافة

---

(١) الغمراوى : ١٨٠ .
(٢) الخضرى : ٣٦ — ٣٧ .
(٣) الخضرى : ٤١ .
(٤) الخضر حسين : ٣ — ٤ .

والابتداع فإنه لم يبرز فكرة جديدة لامعة ، بل لم يُعنَ بالبحث عناية الذين ألموا به من القدماء والمحدثين ، بل أخذ بعض أفكارهم وابتكاراتهم ولم يعرها رونقاً ولا جزالة ، وجرّد من نظريتهم رسالته »[1] . وقد سعى بعض ناقديه إلى الكشف عما أخذه الدكتور من مرجوليوث خاصة ، فوجدوه شيئاً كثيراً[2] ؛ حتى لقد ذهب بعضهم إلى أن الدكتور طه[3] « أغار على نظرية الشك فى الشعر الجاهلى ، ولم يفترق عن مرجوليوث إلا فى تسليمه بأن هناك شعراً جاهلياً ، فأخذ أصل النظرية وأقوى الشبه التى استند إليها مرجوليوث ، وجعل يقول لك : إننى شككت فى الشعر الجاهلى ، ويداعبك بقوله : ألححت فى الشك أو قل ألح علىّ الشك ؛ والحديث فى صدق وأمانة خير من هذه المداعبة » . وقال ناقد آخر[4] : « لقد كتب صاحب الكتاب بحثه ليثبت دعوى جديدة ينسبها هو لنفسه وتنتسب فى الحقيقة لمرجوليوث » . ولا سبيل إلى الإطالة بإيراد ما ذكروه ، ولا بعضه ، فقد بسطنا رأى مرجوليوث وبسطنا رأى الدكتور طه حسين ، ثم أشرنا فى هامش هذه الصفحة إلى المواطن التى ذكر فيها الناقدون ما رأوا أن الدكتور أخذه من مرجوليوث ؛ ومن كل ذلك نستطيع أن نستبين أثر مرجوليوث فى كتاب الدكتور طه حسين وخاصة فى نقطتين أساسيتين لعلهما عماد بحث الدكتور ، هما : الدليل الدينى ، والدليل اللغوى !

• • •

نقد الأدلة :

وبعد أن عرضنا ، فى إيجاز شديد ، ما أخذه الناقدون على منهج الدكتور وطريقته ، نعرض فى إيجاز ، لعله أشد من سابقه ، ما نقدوا به أدلته وحججه .

---

(١) محمد لطفى جمعة : ٢٦ .

(٢) انظر الخضر حسين : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٤٧ ، ٧٠ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١٧٤ — ١٧٧ ، ٢١٢ — ٢١٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٣٦١ ؛ والغمراوى : ١٠٠ .

(٣) الخضر حسين : ١٧ — ١٨ .

(٤) الغمراوى : ١٠٠ .

١ ــ فقد ذكر الدكتور طه ، كما مر بنا ، أن الشعر الجاهلي الذى بين أيدينا لا يمثل الحياة الدينية فى الجاهلية ، وأن القرآن ، وهو عنده مرآة الحياة الجاهلية ، يمثل العرب فى الجاهلية أمة متدينة قوية التدين . فرد عليه السيد محمد الخضر حسين ، وبيّن أن « هذه الشبهة مما استلبه المؤلف من مقال مرجوليوث »[١] . ثم أورد ما جاء فى مقال مرجوليوث وما جاء فى كتاب الدكتور طه ليظهر ما بينهما من تشابه ، وبعد أن عرض لرد إدورد براونلش على مرجوليوث ، قال[٢] : « وخلاصة الجواب أن معظم شعر العرب كان فى الفخر والحماسة وأن المسلمين صرفوا عنايتهم عن رواية الشعر الذى يمثل ديناً غير الإسلام ولا سيما دين اللات والعزى ، وعلى الرغم من هذا كله وصلت إلينا بقية من الشعر الذى يحمل شيئاً من الروح الدينى ، تجده فى كتاب الأصنام لابن الكلبى وغيره » . وأما الأستاذ محمد لطفى جمعة فقد وجد أن خير رد على الدكتور طه أن يجمع بعض الشعر الجاهلى الذى يشير إلى الحياة الدينية فى الجاهلية ، فجمع طرفاً منه ، لشعراء متعددين[٣] ، ثم قال[٤] : « من العجيب أن المؤلف يدعى أن الشعر الجاهلى كله عجز عن تصوير الحياة الدينية ، وهو لم يتقدم إلينا بدليل ولم يستقرئ دواوين الشعر الجاهلى » . وأما الأستاذ الغمراوى فينكر أن القرآن يصور العرب فى الجاهلية أمة متدينة قوية التدين ، ويرى أن هذا « لا ينطبق إلا على أهل مكة والمدينة ومن حولهما ، ولا ينطبق على من حولهما مثل ما ينطبق عليهما . ومكة والمدينة وما حولهما ليست هى كل بلاد العرب ، وأهل مكة والمدينة ومن جاورهم لم يكونوا جملة العرب ولا جمهرتهم ، فمن الخطأ الواضح إذن أن يجعل الدكتور ما ينطبق عليهم ينطبق على جميع العرب ، وأن يستند فى ذلك على القرآن[٥] . »

---

(١) ص : ٤٧ .
(٢) ص : ٤٨ .
(٣) الشهاب الراصد : ٨٥ ــ ٩٢ .
(٤) المصدر السابق : ٩٠ .
(٥) ص : ١٤٧ ــ ١٤٨ .

٢ ــ وذكر الدكتور طه أيضاً أن الشعر الجاهلى لا يمثل الحياة العقلية فى الجاهلية ، ومضى يصف هذه الحياة العقلية كما رآها فى القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم « يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن فى جهادها حظًّا عظيماً . . . أفتظن قوماً يجادلون فى هذه الأشياء جدالاً يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة ، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين . . . » وقد رد عليه السيد محمد الخضر حسين بقوله[1] : « فى الشعر الجاهلى معان سامية وحكمة صادقة ، ومن يقرؤه خالى الذهن من كل ما قيل فيه يقضى العجب من ذكاء منشئيه وسعة خيالهم ، وإقصائهم النظر فى تأليف المعانى والتصرف فى فنون الكلام . . . » وأما الأستاذ الغمراوى فينكر أيضاً أن يكون القرآن يمثل العرب فى الجاهلية أمة مستنيرة لها حياة عقلية قوية ، وبعد أن يتحدث فى ذلك يقول[2] « فأما الحظ الذى أنفقه القرآن فى الجهاد بالحجة فعظيم . لكن عظمه لم يكن ناشئاً عن عظم قدرة على الجدال كانت عند المجادلين ، ولا عن حسن بصرهم بمواطن الحجة ، بل كان ناشئاً عن عظم رسوخ ما كان يجاهده القرآن فيهم من اعتقادات وعادات تأصلت فيهم على مر القرون ، فالقرآن أنفق ذلك الحظ العظيم فى جهاد العادة لا فى جهاد مقدرة على المخاصمة . . . وإنك لو استقريت مواقف المحاجة التى وردت فى القرآن لا تكاد تجد فيها موقفاً قابل المجادلون الحجة فيه بالحجة وقارعوا الدليل بالدليل : . . » ويرى أيضاً أن الدكتور طه « استشهد على ما يريد بآيتين اثنتين ليس فيهما شاهد على ما يريد ، وأنه قد ترك كثيراً من الآيات التى تنقض معناه الذى أراد . . .[3] »

٣ ــ وذكر الدكتور طه أيضاً أن الشعر الجاهلى يمثل العرب أمة معتزلة

---

(١) ص : ٥١ .
(٢) ص : ١٤٨ .
(٣) ص : ١٥٢ .

تعيش فى صحرائها ، لا تعرف العالم الخارجى ، ولا يعرفها العالم الخارجى ، أما القرآن فيصف عناية العرب بسياسة الفرس والروم وصلاتهم بغيرهم من الأمم . وقد رد عليه السيد محمد الخضر حسين بقوله[١] : « وهل يصدق أحد أن من يدرسون الشعر الجاهلى يتصورون العرب أمة معتزلة فى صحراء . . . » ثم يورد شعراً جاهلياً فيه دلالات على معرفة العرب بالأمم المجاورة وعلى صلاتهم بهم . أما الأستاذ الغمراوى فقد ذكر أن الدكتور طه « لم يستشهد على ذلك إلا بآيتين اثنتين جرى فى تأويلهما على ذلك النحو الذى رأيت . . »[٢] بل إنه يرى أنه ليس فى إحدى الآيتين « المعنى الذى أراد ولا ظله » . وقد عجب من أن الدكتور يذهب إلى « أن الأدب الجاهلى على ما هو عليه الآن لا يبين صلة العرب بالعالم الخارجى ، وأن القرآن وحده هو الذى يبينها »[٣] ، مع أنه لم يستقرئ الأدب الجاهلى ولم يوازن بين ما فيه وما فى القرآن .

٤ — وذكر الدكتور أيضاً أن الشعر الجاهلى لا يمثل الحياة الاقتصادية الخارجية والداخلية لعرب الجاهلية ، وأن فى القرآن وصفاً لهما يصورهما فيه . وقد رد عليه السيد محمد الخضر حسين بأنه استشهد على الحياة الاقتصادية الخارجية بآية واحدة ليس فيها إلا إشارة موجزة ، وأن فى الشعر الجاهلى تفصيلاً لهذه الإشارة[٤] . وأورد الأستاذ محمد لطفى جمعة من الشعر الجاهلى ما يرى فيه تصويراً لحياة العرب الاقتصادية الداخلية فى الجاهلية[٥] . أما الأستاذ الغمراوى فيرى أن « الحق أن الأدب الجاهلى لم يخلُ من هذا . والعجب أن يجهل أستاذ الأدب العربى شيئاً مثل هذا ، فلو أنه قرأ القليل المكتوب عن ابن الزبعرى فى طبقات ابن سلام

---

(١) ص : ٥٧ .
(٢) ص : ١٥٢ .
(٣) ص : ١٥٣ .
(٤) ص : ٦٢ — ٦٣ .
(٥) ص : ٧٦ .

لوجد فيه ما لا يقل فى دلالته الاقتصادية عن آية لإيلاف قريش[١] . . . هذا موضع واحد من الأدب الجاهلى . ولسنا نشك فى وجود مواضع أخرى تدل على ما كان هنالك فى الجاهلية من اتصال تجارى محدود بين أطراف جزيرة العرب ووسطها[٢] . . . وكما لم يُلمّ صاحب الكتاب بمواطن الأدب الجاهلى التى تدل على الحياة الاقتصادية الخارجية كما يجب أن يسميها ، كذلك لم يلم بمواطن الأدب الجاهلى التى تدل على ما يسميه الحياة الاقتصادية الداخلية . . وكما تكلف واستنتج الحياة الخارجية كلها من آية واحدة فى القرآن ، فقد تكلف واستنتج الحياة الاقتصادية الداخلية من تحريم القرآن الربا وفرضه الصدقات[٣] . أما عن زعمه أن الأدب الجاهلى كله لم يذكر الربا فنحن على ثقة من أنه هنا أيضاً لم يستعرض الأدب الجاهلى كله فيحكم عليه من هذه الناحية حكماً مبنياً على الواقع . ومع ذلك فمثل هذه النواحى إذا ذكرت فى الأدب لا تذكر إلا عرضاً ، لأن التجارة وما اتصل بها من ربا أو غيره ليست من الأمور التى تسمو حتى تصير فى متناول الشعر والنثر الأدبى فى عصرنا هذا فضلاً عن العصر الجاهلى[٤] . فإذا كان الأدب الجاهلى قد خلا حقاً من ذكر الربا فلن يكون فى ذلك دليل على أن الأدب الجاهلى موضوع[٥] . . . »

٥ — الدليل اللغوى : وقد أفاض الناقدون فى نقد هذا الدليل ونقضه ، وذلك لأنه ، لو صح ، لكان أقوى الحجج التى ساقها المؤلف وأدلها على ما يريد أن يصل إليه . فالسيد محمد الخضر حسين يرى أن الدكتور طه قد أخذ هذا الدليل من مرجوليوث ، فأورد بعض كلام الدكتور وما يقابله من كلام مرجوليوث فى مقالته التى بسطنا فيها القول . وليس من سبيل إلى ذكر جميع ما رد به السيد محمد الخضر

---

(١) ص : ١٥٤ .
(٢) ص : ١٥٥ .
(٣) ص : ١٥٦ .
(٤) ص : ١٥٧ .
(٥) ص : ١٥٨ .

حسين ، فقد فصل القول فى رده تفصيلاً[١] ، وحسبنا أن نشير إلى بعضه ، قال[٢] وأخذ المؤلف يذكر الشاهد الأقوى على اصطناع الشعر الجاهلى ، وهو أن اللغة القحطانية غير اللغة العدنانية ، والشعر المنسوب إلى بعض شعراء اليمن لا يختلف عن شعر العدنانية ، وهذا مما استشهد به مرجوليوث قبله . . . لا ننازع فيما دلت عليه الآثار المخطوطة من أن اللغة القحطانية كانت كلغة أجنبية عن العدنانية ، كما أن مرجوليوث والمؤلف لا ينازعان فى أن اللغتين اشتد الاتصال بينهما بعد ظهور الإسلام وأصبحتا كلغة واحدة . والذى نراه قابلاً لأن يكون موضع جدال بيننا وبين مرجوليوث والمؤلف هو حال الاختلاف بين اللغتين فى عهد يتقدم ظهور الإسلام بعشرات من السنين ، فنحن لا نرى ما يقف أمامنا إذا قلنا : إن الاختلاف بين اللغتين قد خف لذلك العهد وزال منه جانب من الفوارق ولم تبق القحطانية من العدنانية بمكان بعيد . والذى جعل اعتقادنا يدنو من هذه النظرية . . . أن قبول اللغة القحطانية لأن تتحد مع اللغة العدنانية بعد ظهور الإسلام لا يكون إلا عن تقارب وتشابه هيأهما لأن يكونا لغة واحدة ، فإن انقلاب لغة إلى أخرى تخالفها فى مفرداتها وقواعد نحوها وصرفها ليس بالأمر الميسور حتى يمكن حصوله فى عشرات قليلة من السنين » . ثم يرى أن العثور على نقوش باللغة الحميرية يرجع تاريخها إلى المائة الخامسة والسادسة للميلاد لا ينقض هذا الرأى ، وذلك لأن التقارب بين اللغتين لم تبدأ به القبائل القحطانية والعدنانية فى وقت واحد ، بل سبقت إليه القبائل المجاورة للعدنانية ثم أخذ يتدرج فيما وراءها من القبائل . . . فالوقوف على أثر مخطوط قبل الإسلام بنحو مائة سنة أو ما دونها إنما يدل على أن سكان الناحية التى انطوت على هذا الأثر لم يزالوا على لسان حمير القديم ، وهذا لا ينفى

---

(١) انظر ص : ٧٠ – ٧٥ ، ٩٠ ، ٩١ – ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠٣ – ١٠٤ ، ٣٠ – ٣٠٥ ، ٣٦١ – ٣٦٢ .

(٢) ص : ٧٠ – ٧١ .

أن يكون غيرها من القبائل القحطانية قد ارتاضت ألسنتهم بلغة تشبه اللغة العدنانية. ومن الممكن القريب أيضاً أن يكون أهل المكان الذى عثر فيه على هذه المخطوطات الأثرية ينطقون باللغة القريبة من اللغة العدنانية ، ولكنهم استمروا فى الكتابة على لغتهم التى كانت اللسان الرسمى لسياستهم أو ديانتهم ، وقد حكى التاريخ لهذا الوجه نظائر . . . »[1] ، وبعد أن يسرد هذه النظائر يستدل على تقارب اللغتين بما يروى فى السيرة من خطب الوافدين من أهل اليمن على الرسول صلى الله عليه وسلم ، « ولو كانت اللغتان مختلفتين فى المفردات وقواعد النحو والصرف لم يسهل على العدنانى أو القحطانى فهم لغة الآخر إلا أن يأخذها بتعلم أو مخالطة غير قليلة »[2] . ثم يتطرق إلى عبارة أبى عمرو بن العلاء التى أوردها الدكتور طه ، وأصلها « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »، فقال إن الدكتور مس هذه العبارة «بالتحريف مسًّا رفيقاً » و« حوّل قوله : ولا عربيتهم بعربيتنا ، إلى قوله : وما لغتهم بلغتنا ، لقصد المبالغة فى الفصل بين اللغتين وليصرف ذهن القارىء عن أن يفهم من قول أبى عمرو : ولا عربيتهم بعربيتنا ، أن تلك اللغة عربية وإنما تختلف عن العدنانية اختلافاً يسوغ له أن يقول : وما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا . ومس المؤلف عبارة أبى عمرو بالتحريف مرة أخرى ، فقد حذف قوله : وأقاصى اليمن ، حتى لا يأخذ منها القراء أن لغة غير الأقاصى ، وهى القبائل المجاورة للقبائل المضرية ، ليس بين عربيتها وعربية مضر هذا الاختلاف[3] » . « هذا شأن الاختلاف بين اللغتين ، أما تشابه الشعر القحطانى والعدنانى فله سبيل غير هذا السبيل ، والرأى الذى يوافق إجماع الروايات ويؤيده النظر ولا يعترضه البحث الحديث أن الشعراء فى جنوب الجزيرة

---

(١) ص : ٧١ — ٧٢ .
(٢) ص : ٧٣ .
(٣) ص : ٧٣ — ٧٤ .

وشمالها أصبحوا من قبل الإسلام ينظمون الشعر بلهجة واحدة أو متقاربة »[١] . ثم يمضى فى بيان رأيه هذا وتفصيله . ثم يرد على هذا الدليل من جانب آخر ، قال[٢] : « ومما يتعذر قبوله أيضاً أن يضع غير اليمانيين أشعاراً فى لهجة قرشية ويعزوها إلى القدماء من شعراء اليمن دون أن يجدوا من اليمنيين أو ممن يعرف لهجة شعراء اليمنيين من ينكر صنيعهم ، ويناضلهم بحجة أن هذا الشعر غير منطبق على لهجة أولئك الشعراء » .

ثم رد عليه حديثه عن أن لهجات القبائل العدنانية نفسها ، وهى مختلفة ، غير ظاهرة فى هذا الشعر الجاهلى ، فقال[٣]: « هذه الشبهة علقت بذهن المؤلف فيما علق من مقال مرجوليوث ، وهى مطرودة بنظرية وجود لغة أدبية يحتذيها الشعراء على اختلاف قبائلهم منذ عهد الجاهلية » .

وأما الأستاذ محمد لطفى جمعة فيقول[٤]: « اعتمد المؤلف على أقوال الرواة ثم يؤكد لنا أن الرواة يضيفون شيئاً كثيراً من الشعر الجاهلى إلى قوم ينتسبون إلى عرب اليمن . . . ويؤيد مخالفة اللغة القحطانية للغة العرب برواية أحد الرواة وهو أبو عمرو بن العلاء ، فكأن الرواة الذين كانوا يعلمون اختلاف اللغتين من أقدم الأزمنة رووا ، على الرغم من علمهم هذا ، شعراً كثيراً بالعربية العدنانية وحملوه على شعراء اليمن . . . وهذا الكلام ظاهر البطلان ، والتلفيق فيه لا يحتاج إلى برهان ، لأن الراوية الذى يعرف اختلاف الأمتين واختلاف اللغتين إذا أراد الوضع والاختلاق لا يقع فى مثل هذا الخطأ المفضوح سيما وأن المؤلف قال فى ص ١٢٠ عن حماد الراوية : أما حماد فرجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله فى شعره . . .

---

(١) ص : ٩٢ .
(٢) ص : ٩٤ .
(٣) ص : ١٠٠ .
(٤) ص : ١٣٦ — ١٣٧ .

أفيعقل أن راوية كحماد العالم باللغات والمعانى والمذاهب يخطئ مثل هذا الخطأ؟» ثم يقول[١]: «وكيف يثبت لنا المؤلف أن أبا عمرو بن العلاء أراد اختلاف اللغتين فى زمن الجاهلية ، وقد عجز المؤلف عن تحديد زمن هذا الاختلاف لعلمه بجواز تطبيق هذا القول على زمن الراوية أبى عمرو نفسه، فقد قصد بذلك أن اللهجة العربية الحميرية التى كانت شائعة فى زمنه فى بقايا حمير فى بلاد اليمن تخالف اللهجة العربية الفصحى . . . وحينئذ يفلت هذا الدليل من يد مؤلف الشعر الجاهلى » . وبعد أن يتحدث المؤلف عن « اللغة الأدبية » التى كان ينظم بها شعراء الجاهلية أورد أبياتاً من الشعر الجاهلى ما تزال تظهر فيها بقايا من اختلاف اللهجات العدنانية[٢] .

وأما الأستاذ الشيخ الخضرى فبعد أن تحدث عن هذا الموضوع وأورد أدلة الدكتور وأشار إلى تحريفه فى النص الذى ذكره أبو عمرو بن العلاء— قال[٣]: « وأكثر الشعر اليمانى إنما هو لشعراء من سبأ كانوا بالشمال ، إما بالمدينة وإما بالعراق ، وإما بالصحراء الشمالية وإما بالشام ، أو لعرب عدنانيين . . . فالأستاذ يرى بعد ذلك أنه إذا سلمت مقدمته بأنه كان هناك خلاف بين لغة حمير ولغة عدنان ، فإن ذلك لا ينتج شيئاً ، لأن العربية القديمة عربية حمير لم يؤثر شىء من شعرها ، وابن سلام فى الطبقات إنما ساق عبارة أبى عمرو فى هذا الصدد وهو نفى أن يكون هناك شعر تصح نسبته إلى عاد وثمود . . » ، ثم يقول عن اختلاف اللهجات[٤]: « لا ندرى كيف يظهر فى الشعر تباين اللهجات ؟ فإن اللهجة كما قدمنا إنما هى ما يرجع إلى الأداء ، والشىء الواحد قد يؤدَّى بلهجات مختلفة ، وهو هو فى حركاته وسكناته ، كما اختلف الأداء فى القرآن نفسه ،

---

(١) ص : ١٣٩ .
(٢) ص : ١٥٤ — ١٥٧ .
(٣) ص : ١٠ — ١١ .
(٤) ص : ١٥ .

والقرآن هو هو ». « لا ندرى كيف يكون اختلاف اللهجات مؤثراً فى الشعر ، فى أوزانه وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام ؟ . . . لا أفهم تأثير الإمالة والتفخيم فى بحر الشعر وقافيته . فإن مفخّم الألف ينشد "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" بألف مفخمة كما ينشدها المميل بألف ممالة ، فلا يتغير فى البيت حركة ولا سكون ، وهما اللذان تبنى عليهما تفاعيل الشعر . وكما لا يتغير شىء من ذلك بالإمالة والتفخيم لا يتغير بالإدغام والإظهار . . . [1] »

وأما الأستاذ الغمراوى فيتحدث عن هذا الموضوع فى صفحات متفرقة من كتابه[2] ، وقد عرض لذكر بعض ما قدمناه ثم قال[3]: إن الدكتور طه قد « نبهه النقد منذ أكثر من عام إلى أن ثبوت اختلاف لغة الجنوب عن لغة الشمال ، لو ثبت أنهما كانتا مختلفتين فى العصر الجاهلى القريب ، لا يصلح دليلاً على أن أدب يمانية الشمال موضوع لأن قبائل اليمن فى الشمال كانت هاجرت من الجنوب إلى الشمال منذ أمد بعيد فلم يكن هناك بد لمن نشأ فى الشمال من ذرياتها أن ينشأ على لغة الشمال ويتخذها لغة أدب ولغة خطاب . فجاء صاحب الكتاب هذا العام يجيب على هذا بلهجة المستوثق مما يقول، فهل تدرى بماذا أجاب؟ أجاب بأن هجرة فريق من عرب اليمن إلى الشمال غير ثابتة ! وأن صحة يمانية من انتسب إلى اليمن من قبائل الشمال غير ثابتة ! وإذن يسقط ذلك الاعتراض ! إن من المؤلم حقاً أن يلجّ الأستاذ فى المماراة إلى هذا الحد، وينزل به اللجاج إلى هذا الدرك ، فلا يدرك أن جوابه هذا مسقط كل ما قال ، وأنه إذا صح أن التاريخ القديم والتاريخ الحديث أجمعا على خطأ ، فلم تكن هجرة ولم يكن فى الشمال يمانيون ، لم يكن هناك أدنى شبهة لغوية يمكن أن يُعترض بها على صحة كلام مثل امرئ القيس . إذ يصير امرؤ القيس ومن معه بذلك مضريين ،

---

(١) ص : ١٨ .

(٢) ص : ١٦٢ – ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٠ – ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٨٨ .

(٣) ص : ١٨٨ .

ويصير من السخف أن يقال بعد ذلك إن كلامهم وشعرهم منحول لأن لغته ليست لغة نقوش حميرية اكتشفت فى الجنوب . . . »

ويتحدث الأستاذ الغمراوى حديثاً مفصلاً عن اللهجات،جاء فيه أن الدكتور طه حسين ذكر فى الطبعة الثانية من كتابه « أن اللغة الفصحى الموجودة فى القرآن والحديث لغة قريش ، فإذا اعترض القارئ بأن هذه اللغة قد كانت تُفهم فى غير قريش فى قبائل الحجاز ونجد ، كقيس وتميم المضريتين ، والأوس والخزرج اليمنيتين ، وقبائل اليهود فى شمال الحجاز ، كان جواب صاحب الكتاب أنك قد عرفت رأيه" فى النسب وانتماء هذه القبائل إلى اليمن أو إلى مضر"! يشير إلى رأيه الذى أورده فى فصل الأدب الجاهلى واللغة . وغفل هنا كما غفل هناك عن أن إنكاره نسبة تلك القبائل إلى غير قريش يدخلها فى قريش ويذهب باعتراضه على الشعر الجاهلى العدنانى من طريق اللهجة كما ذهب هناك باعتراضه على الشعر الجاهلى القحطانى من طريق اللغة »[1] .

• • •

نقد أسباب النحل :

وننتقل بعد ذلك إلى عرض آراء النقاد فيما ذكره الدكتور طه حسين من أسباب نحل الشعر الجاهلى ، وقد جعلها الدكتور ، كما مر بنا خمسة : السياسة ، والدين ، والقصص ، والشعوبية ، والرواة .

١ — السياسة ونحل الشعر : أجمع النقاد على أن الدكتور طه لم يورد شيئاً من الشعر الجاهلى الذى دعت السياسة إلى نحله ، مع أن فصله معقود لهذا ، ومع أنه أطنب فى الحديث عن المقدمات الظنية والفروض المتخيلة ، ولكنه لم ينته بها إلى النهاية التى يدل عليها عنوان الفصل . قال السيد محمد الخضر حسين[2]

---

(١) ص : ٢٠١ .

(٢) ص : ١٨٥ .

« عقد المؤلف الفصل فى نحو عشرين صحيفة قضاها فى الحديث عن أمر كتب فيه القدماء والمحدثون ، وهو شأن العصبية فى صدر الإسلام وعهد الأمويين ، وما كان من التهاجى بين بعض شعراء الأنصار وآخرين من قريش . . . ولم يستطع المؤلف أن يضرب فى هذا الفصل الطويل مثلاً لشعر جاهلى اخترعته نزعة سياسية . . . ومن أراد أن يقرر أن من الشعر الجاهلى ما افتعل لغرض سياسى ، ويضع لذلك عنواناً يكتبه بأحرف ممتازة ، فليأت ولو بمثل أو مثلين واضحين ويريح القارئ من أقوال لا تقع فى عين الموضوع فضلاً عما فيها من صبغ بعض الوقائع بألوان لا تلائمها . . . » وقال الأستاذ محمد لطفى جمعة[1] « وقد سود المؤلف تسع صفحات فى هذه المسألة وحدها (يقصد المهاجاة بين الأنصار وقريش) وعنوان الفصل " السياسة وانتحال الشعر " اسم فخم وعنوان ضخم ، ولكن اللب منعدم والمقصد غامض ... أين السياسة من بحثه وأين الشعر المنتحل ومن واضع الشعر المحمول ؟ » وقال أيضاً[2] : « إلى هنا ولا نجد فى هذا الفصل الطويل الذى عنونه المؤلف " السياسة وانتحال الشعر " يقصد بذلك الشعر الجاهلى — شيئاً خاصاً بانتحال ذلك الشعر الجاهلى . . . » وقال الشيخ محمد الخضرى إن الدكتور طه قال : « يستطيع الكاتب فى تاريخ الأدب أن يضع سفراً مستقلاً فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير فى شعر الفريقين الذى قالوه فى الإسلام وفى الشعر الذى انتحله الفريقان على شعرائهما فى الجاهلية » ، ثم عقب عليه بقوله[3] : « مع أن مقدمته الطويلة لم يوجد بها كلمة واحدة تتصل بأن فريقاً من الفريقين اختلق شعراً ونسبه إلى شعرائه فى الجاهلية ، وإنما الأحاديث كلها فى الشعراء الذين كانوا فى أول العهد الإسلامى يتقارضون الشعر ،

---

(١) ص : ١٨٤ .

(٢) ص : ١٩٣ .

(٣) ص : ٣٢ .

وفى العهد الذى يلى ذلك» . ويقول أيضاً[١]: «وبعد ذلك كله ألم يكن من واجب المؤلف ، وهو أستاذ كبير ، أن يذكر لقراء كتابه بعض الشعر الذى وضعته قريش فى الإسلام ونسبته إلى بعض شعرائهم فى الجاهلية وكان الداعى إلى وضعه السياسة ؟ إنه لم يذكر شيئاً من ذلك ، وكل كلامه حول الشعر الذى قيل فى العهد الإسلامى ، وليس لهذا وضع الشيخ كتابه» .

٢ — الدين ونحل الشعر : قال السيد محمد الخضر حسين[٢]: «ينكر المؤلف كل مايروَى من الشعر والأخبار الممهِّدة للبعثة النبوية ، وإنكارها على هذا الوجه إنما تسمعه ممن ربط قلبه على نفى النبوة ، إذ ليس من المحتمل عنده أن يقال فيها شعر أو يرد عنها خبر قبل أن يدعيها صاحبها . أما الذين يعتقدون بأن نبوة أفضل الخلق حق فمن الجائز عندهم أن يسبقها شعر أو خبر يتصل بها ، وشأنهم أن يفحصوا ما يرد فى هذا الصدد ويضعوه بمنزلته من الوضع أو الضعف أو الصحة ، وكذلك فعل علماء الإسلام فحكموا على جانب مما كان من هذا القبيل بالوضع ، كالأخبار والأشعار المعزوة إلى قُسّ بن ساعدة» . ثم يعرض لما ذكره الدكتور طه من أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن رواية شعر أمية ، وأن هذا وحده كاف لأن يضيع هذا الشعر . فرد عليه بأن فى الحديث الصحيح أن النبى استنشد رجلاً شعر أمية فظل ينشده حتى أنشد مائة بيت . وقال إنه لو صح أن النبى نهى عن شعره لكان هذا النهى مقصوراً على قصيدة أمية التى رثى بها قتلى قريش فى وقعة بدر ، «على أنا نجد هذه القصيدة التى يقولون إن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن روايتها واردة فى بعض كتب السير والمغازى ، وقد رواها ابن هشام فى نحو ثلاثين بيتاً . . .»[٣] ، وقال الأستاذ محمد لطفى

(١) ص : ٣٤ .
(٢) ص : ١٨٨ .
(٣) ص : ٢٢٠ .

جمعة[١]: « يريد مؤلف كتاب الشعر الجاهلى أن يخدع القارئ ويوهمه أن كل ما ورد فى الأدب العربى من نثر وشعر عن الجن ووجودها وأخبارها إنما وضع بعد الإسلام وضعاً لتبرير سورة الجن التى جاءت فى الكتاب المنزل على أفصح العرب . . . وأن كل ما نسب إلى العرب فى أدبهم من هذه الناحية إنما اصطنع اصطناعاً مجاراةً للعقيدة التى اقتضتها هذه السورة القرآنية . والحقيقة أن عرب الجاهلية كانوا يعتقدون بالجن ، ونظموا شعراً جاهلياً كثيراً عن علاقة الجن بالشعر والشعراء ، وذكرنا بعضه فى ص ٥٢ من هذا الكتاب ، . . . ولم تكن أمة سامية أو آرية تخلو من الاعتقاد بالجن أو الأرواح الخيرة والشريرة » . ثم تحدث عن شعر أمية بن أبى الصلت ، ونفى أن المسلمين محوه أو حاربوه ، وأورد شيئاً من شعره . . [٢] ، وأما الشيخ الخضرى ، فيعرض لما تحدث به الدكتور طه من أمر الشعر الممهد للبعثة النبوية ، فيقول الشيخ الخضرى إن انتظار بعض علماء العرب وكهانهم وأحبار اليهود ورهبان النصارى لبعثة نبى عربى من المسائل التى ذكرها القرآن ، « والمؤلف نفسه قال فى الصفحة الثامنة من كتابه : وأنا أزعم مع هذا كله أن العصر الجاهلى القريب من الإسلام لم يضع ، وأنا نستطيع أن نتصوره تصوراً واضحاً قوياً صحيحاً ، ولكن بشرط ألا نعتمد على الشعر بل على القرآن من ناحية ، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى . . . » [٣] ، وعرض بعد ذلك لقول الدكتور طه : « وفى سيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع » ، فقال الشيخ الخضرى[٤] « وهذا الكلام غير صحيح ، فقد قرأنا هذه السيرة مراراً ، ولا سيما فيما يمهد لبعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم نجد بيتاً واحداً فى الموضوع الذى ذكره ، وإنما الشعر الذى

---

(١) ص : ٢١٢ .

(٢) ص : ٢٢٦ — ٢٣٠ .

(٣) ص : ٣٤ — ٣٥ .

(٤) ص : ٣٥ .

رأيناه فى فصل عنوانه : أمر الأربعة المتفرقين عن عبادة الأوثان فى طلب الأديان ، وفى هذا الفصل قطع شعرية كلها فى التوحيد وترك عبادة الأوثان » . ثم قال[1] : « ذكر الأستاذ بعد ذلك من منحول الشعر ما أورده المفسرون زاعماً أنهم أوردوه لإثبات عربية القرآن ! ثم غلا فقال : فحرصوا أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشىء من شعر العرب يثبت أن الكلمة عربية لا شك فى عربيتها » . فعقب على ذلك بقوله : « وهذه الجملة فيها غلو وفيها خطأ : أما الغلو فى قوله إنهم استشهدوا على كل كلمة منه ؛ بين أيدينا التفسيران الكبيران اللذان عُنيا بهذا الاستشهاد أتم عناية ، وهما تفسير الإمام الكبير أبى جعفر الطبرى وتفسير الكاتب العظيم أبى عمر الزمخشرى ، ومع ما فيهما من الشواهد الكثيرة فإن ادعاء الاستشهاد على كل كلمة لا يؤيده الواقع ، إن شواهد الكشاف عددها ٧٢٧ شاهداً ، وليس هذا عدد كلمات القرآن . . . وأما الخطأ فى ظنه أن هذه الشواهد كلها جاهلية جىء بها لإثبات عربية القرآن ! أكثر هذه الشواهد لشعراء إسلاميين ، وقليل منها ما هو لشعراء جاهليين أو مجهولين . . . وليس الاستشهاد لإثبات عربية القرآن كما يزعم ، وإنما هو لبيان مفهوم الكلمات التى يعدها الناس أحيانا غريبة ، على أن هذا المعنى قد يُلحظ أحياناً ، وهو أن القرآن ليس ببدع فى اللغة ، وإنما جاء بلغة العرب لم تشذّ فيه كلمة عن مناهجهم » .

٣ — القصص ونحل الشعر :

وقد ذهب هؤلاء النقاد إلى أن الدكتور لم يأت بشىء جديد لم يذكره القدماء ، ولكنه زاد عليهم بأن عمّم وأطلق أحكاماً كلية . قال السيد محمد الخضر حسين[2] : « كتب المؤلف فى القصص ولم يأت بجديد ، وإنما مدّ يده إلى ما تحدث به الكتّاب من قبله وسماه نظرية له ، ثم انهال علينا بكليات عرضها مابين اليمامة

---

(١) ص : ٤١ — ٤٢ .

(٢) ص : ٢٤٥ .

وحضرموت ... » وقال الشيخ محمد الخضرى [١]: « قد ذكر المؤلف نفسه ما كان من نَقَدَة الآداب أمام هذا الشعر فقال: "وقد فطن العلماء إلى ما فى هذا الشعر من تكلف حيناً ومن سخف وإسفاف حيناً آخر ، وفطنوا إلى أن بعض هذا الشعر يستحيل أن يكون قد صدر عن الذين ينسب إليهم" . وهذا هو الذى نريد أن نقوله ، وهو أن النقاد فى العصور الماضية لم يقصروا فى تمييز طيب الشعر من خبيثه ، وقد عبدوا الطريق لمن يخلفهم حتى لا يزعجهم كذب كاذب ، أو تلفيق ملفق ، فيرفضون جميع ما روى من الشعر ، كما فعل مؤلف الشعر الجاهلى ، بل يتبعون سيرة أولئك الأسلاف فى النقد الأدبى الذى أساسه الرواية والدراية ..»

٤ ــ الشعوبية ونحل الشعر :

قال السيد محمد الخضر حسين إن الدكتور طه عقد فصلاً للشعوبية ونحل الشعر الجاهلى ، ولكنه « لم يقم دليلا على التلازم بينهما ، بل لم يأت برواية تدل على أن بعض الشعوبية انتحل شعراً جاهلياً . . . » [٢] ، وقال أيضاً بعد أن ذكر أن الدكتور أورد قصصاً عن أبى العباس الأعمى وإسماعيل بن يسار «وزعم أنه وصل بهذا إلى ما كان يريده من تأثير الشعوبية فى انتحال الشعر ، ولكنه لم يستطع أن يضرب مثلاً يريك كيف انتحلت الشعوبية شعراً جاهلياً . . »[٣] ، وكذلك قال الأستاذ محمد لطفى جمعة[٤]: « لانجد فى هذا الفصل ما يدل على انتحال الشعر الجاهلى » ، وأما الشيخ محمد الخضرى فذهب إلى أن حديث الدكتور فى هذا الفصل عن الشعوبية ونحل الشعر الجاهلى قائم على الفرض والتخيل لا على الحقائق ، وبعد أن رد عليه قال[٥]: « ومتى كان الأمر كذلك

---

(١) ص : ٥٣ .
(٢) ص : ٢٤٧ .
(٣) ص : ٢٤٩ .
(٤) ص : ٢٤٨ .
(٥) ص : ٥٤ .

ضعف مقدار هذا التخيل وسقط الفرض من أساسه » .

٥ ــ الرواة ونحل الشعر :

أشار السيد محمد الخضر حسين إلى ما فى حديث الدكتور فى هذا الفصل ــ وفى غيره من الفصول ــ من تعميم ومبالغة ، وذلك حين قال الدكتور إن الرواة « بين اثنتين : إما أن يكونوا من العرب ، فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب ، وإما أن يكونوا من الموالى فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالى . . . » وعقب عليه السيد محمد الخضر حسين بقوله[1] : « ويريد من التأثر ــ بطبيعة السياق ــ الوجه الذى يحمل على صنع الشعر وعزوه إلى الجاهلية ، ومعنى هذا نفى أن يكون لطائفة من الرواة خطة ثابتة وهى ألا يتأثروا بشىء من هذه الأسباب تأثراً يستهينون معه بمويقة الافتراء على الناس كذباً . وهذه المبالغة لا تأويل لها إلا أن المؤلف يحب أن يكون هذا الشعر الجاهلى منحولاً » . ثم تعرض لما تعرض له الدكتور من ذكر حماد الراوية وخلف الأحمر ، وقال إنهما ليسا « مرجع الرواية كلها ولا أن الطعن فيهما طعن فى الرواية جميعاً »[2] . ومع ذلك فقد ذكر بعض الروايات التى تطعن فى حماد وخلف ونقدها وبيّن ضعف بعضها . ثم ذكر أن الدكتور رمى أبا عمرو الشيبانى بالكذب والوضع ، مع أن أحداً من القدماء لم يرمه بذلك حتى إن خصومه قد وثقوه ، ولم يكتف الدكتور بذلك بل قال عنه : " وأكبر الظن أنه كان يأجر نفسه للقبائل يجمع لكل واحدة منها شعراً يضيفه إلى شعرائها" فقال السيد محمد الخضر حسين إن إيجار عالم كأبى عمرو الشيبانى لا يمكن أن يكون قد حدث من غير أن يتنبه له القدماء ويشيروا إليه[3] ، وأن الدكتور لم يبن حكمه هذا إلا على الظن والتخيل .

---

(١) ص : ٢٦٤ ــ ٢٦٥ .
(٢) ص : ٢٦٧ .
(٣) ص : ٢٧٤ ــ ٢٧٥ .

أما الأستاذ محمد لطفى جمعة فقد رد عليه من وجه آخر وذلك قوله [١]:
« وإن كان بعض المتعاصرين والأنداد من الرواة طعن بعضهم فى بعض ، فليس فى الطعن حجة أو دليل على صحة التهمة ، لأن اتحاد الحرفة والمنافسة فى الشهرة والمزاحمة على نيل الحظوة قد تدفع ببعض الرواة إلى الحسد والغيرة ، لهذا قال الأقدمون " إن المعاصرة حجاب "، حتى إن رواة ثقات كالأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد كانوا يتطاعنون ويضعّف كل منهم رواية صاحبه ، ولكن المحققين ينزهونهم عن الكذب . . . فلا يجوز إذن أن نأخذ بما يقوله الرواة بعضهم فى بعض ، وقد عقد ابن جنى فصلا فى كتابه « الخصائص » على ما يكون من قدح أكابر الأدباء بعضهم فى بعض وتكذيب بعضهم بعضاً ، كرواية المفضل الضبى فى حق حماد ، وهى لم تمحص ولم تنتقد وإن صح إسنادها فوليدة أحقاد معاصرة ، فإن كلام الأقران بعضهم فى بعض لا يقدح فى العدالة ، وهذا رأى علماء الحديث وجاراهم فيه أهل الأدب حتى قالوا : إن المعاصرة حجاب، كما قدمنا » .

---

(١) ص : ٢٧١ — ٢٧٢ .

الفصل الخامس

توثيق الرواة وتضعيفهم

١

إن كان شيء أولى بالشك ، وأحرى بالتوقف ، وأجدر بالبحث والتمحيص ، فهو هذه الأخبار والروايات المتناثرة فى صفحات الكتب العربية ، التى تدور حول بعض رواة الشعر : تتهمهم بالوضع والنحل ، وترميهم بالكذب والافتعال . وسنقصر حديثنا فى هذه الصفحات على تلك الأخبار والروايات ، وعلى ما فيها من أحكام على الرواة أنفسهم : فيها توثيق لهم حيناً ، وتجريح وتضعيف فى أكثر الأحيان ؛ وذلك لأن بحثنا إنما هو مصادر الشعر الجاهلى ، والرواية مصدر أصيل من مصادر هذا الشعر ، أو هى المصدر الأصيل إذا أخذناها بمعناها الواسع الذى وضحناه فى فصل سابق . أما ما بسطنا فيه القول من دواعى الشك فى الشعر الجاهلى وأسباب نحله ، فحسبنا ما قدمنا من آراء المؤيدين والمفندين .

ولا بد لنا ، حتى يستقيم بين أيدينا وجه البحث وندخل فيه من بابه ، من أن نشير إلى قيام مدرستين فكريتين مختلفتين ، قامت إحداهما فى الكوفة ، وقامت الأخرى فى البصرة . وقد أدى الخلاف بين هاتين المدرستين إلى أن يتعصب علماء كل مدرسة لمدرستهم ، وأن يجرّحوا هم وتلاميذهم علماء المدرسة الأخرى وتلاميذها ويضعّفوهم ويرموهم بالوضع والكذب والتزيد . ولسنا نحب أن نوسع مجال البحث فنعرض للقبائل العربية التى استوطنت كل مصرٍ من هذين المصرين ، وما أدى إليه ذلك من عصبية قبلية قد يكون لها أثر فيما نحن بسبيله من بحث ، ولا نريد كذلك أن نعرض للاتجاه السياسى فى البصرة والكوفة منذ زمن عثمان وعلىّ ثم فى

زمن بنى أمية ، فإن ذلك كله سيقودنا إلى إطالة نحن فى غنى عنها فى هذا المجال . ولكننا نحب أن نبين فى وضوح وجلاء، الطابع الفكرى المميز الذى تفردت به كل من البصر والكوفة فى الفقه ، واللغة والنحو ، والشعر والأخبار .

أما الكوفة فيبدو أنها كانت أسبق من البصرة إلى العناية بالحديث والفقه ، وذلك لأنه « هبط الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة ، وسبعون من أهل بدر »[١] ؛ وكان فيها أيضاً « ستون شيخاً من أصحاب عبد الله (بن مسعود) »[٢] . وكان فى بنى ثور الذين نزلوا الكوفة « ثلاثون رجلاً مافيهم رجل دون الربيع بن خُثَيم »[٣] وكان من أثر نشاط حركة الفقة والفتيا فى الكوفة أن شهد لها بعض علماء المدينة — وهم من مدرسة فى الحديث مخالفة — فمن ذلك ماروى عن « عبد الجبار ابن عباس عن أبيه قال : جالست عطاء فجعلت أسائله ، فقال لى : ممن أنت؟ فقلت : من أهل الكوفة ؛ فقال عطاء : ما يأتينا العلم إلا من عندكم »[٤] . بل لقد شهد لهم بالتقدم بعض علماء البصرة ، فقد : « قال رجل للحسن : يا أباسعيد ، أهل البصرة أو أهل الكوفة ؟ قال : كان عمر يبدأ بأهل الكوفة ، وبها بيوتات العرب كلها وليست بالبصرة »[٥] . « وقال مسعر : قلت لحبيب بن أبى ثابت : هؤلاء أعلم أم أولئك ؟ قال : أولئك (يعنى أهل الكوفة) »[٦] .

ومع ذلك فقد كان الحديث وروايته فى الحجاز أسبق ، وأقدم من الكوفة « فأكثر الصحابة كانوا بالمدينة ، وهم أعرف الناس بحديث رسول الله ، وأخبرُ بقوله وعمله ، وحتى من رحل منهم إلى العراق وسائر الأمصار فإنما كانوا عارية

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ٦ : ٤ — ٥ .
(٢) المصدر السابق : ٥ .
(٣) المصدر السابق : ٥ .
(٤) المصدر السابق : ٥ .
(٥) المصدر السابق : ٦ .
(٦) المصدر السابق : ٦ .

من الحجاز »[1] . وقد كان علماء المدينة يتمسكون بالحديث تمسكاً كبيراً ، ويلجأون إليه — بعد القرآن — فيما يحزبهم من أمر أو يحتاجون إليه من نص ، ولا يكادون يتجاوزونه إلى الاجتهاد وإبداء الرأى والفتيا . وقد ساعدهم على ذلك كثرة ما بين أيديهم من أحاديث ، وبقاء الحالة الاقتصادية والاجتماعية على ما كانت عليه فى عهد رسول الله ومن بعده الصحابة ، أو قريبة من ذلك ، فلم يصبها من التعقيد والتطور ما أصاب حياة المسلمين فى العراق أو الشام ، ولذلك كانوا يجدون لكل أمر من أمورهم حديثاً من أحاديث رسول الله يقضون به فى ذلك الأمر .

أما الحياة فى الكوفة فقد كانت على غير حياة المدينة ، فقد نزل المسلمون فيها بيئة جديدة ، فيها أخلاط من أجناس شتى بعضها له ماض عريق فى الحضارة والحياة الفكرية والاجتماعية ، ولذلك كانت حياة الكوفة ، إذا قيست بحياة المدينة ، معقدة ، جد فيها من المسائل الاقتصادية والاجتماعية ما لم يكن معروفاً فى المدينة . ولذلك اضطر علماء الكوفة حينما يعرض لهم أمر من أمور حياتهم لا يجدون فيه نصًّا واضحاً فى القرآن أو الحديث — إلى أن يجتهدوا ويفتوا برأيهم ، وهذا الاجتهاد والإفتاء بالرأى هو " القياس " . وأصل القياس أن يُعلم حكم فى الشريعة لشىء فيقاس عليه أمر آخر لاتحاد العلة فيهما ، ولكنهم توسعوا فى معناه أحياناً فأطلقوه على النظر والبحث عن الدليل فى حكم مسألة عرضت لم يرد فيها نص ، وأحياناً يطلقونه على الاجتهاد فيما لا نص فيه ، وبعبارة أخرى جعلوه مرادفاً للرأى ، ويعنون بالرأى والقياس بهذا المعنى أن الفقيه من طول ممارسته للأحكام الشرعية تنطبع فى نفسه وجهة الشريعة فى النظر إلى الأشياء ، وتمرن ملكاته على تعرف العلل والأسباب ، فيستطيع إذا عرض عليه أمر لم يرد فيه نص ، أن يرى فيه رأيا قانونيًّا متأثراً بجو الشريعة التى ينتمى إليها ، وبأصولها وقواعدها التى انطبعت

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ٢ : ١٥١ .

فيه من طول مزاولتها ، ومن أجل هذا ذموا الرأى الذى يصدر ممن ليس أهلاً للاجتهاد . . . » . (١)

وخلاصة ذلك أنه كانت هناك مدرستان، الأولى: مدرسة الحديث، وهى فى الحجاز وخاصة فى المدينة ، وعلى رأسها مالك بن أنس وتلاميذه . والثانية : مدرسة الرأى ، وهى فى العراق وخاصة فى الكوفة وعلى رأسها أبو حنيفة . وتعصب علماء كل مدرسة لمدرستهم حتى لقد كاد أبو حنيفة أن يفضل أحد التابعين من علماء الكوفة على صحابى جليل هو عبد الله بن عمر ، فقد قال مرة لمناظره « إبراهيم (النخعى — كوفى) أفضل من سالم (بن عبد الله بن عمر) ، ولولا فضل الصحبة لقلت علقمة أفضل من ابن عمر » . وأخذ الحجازيون يطعنون على علماء الكوفة ويعيبونهم ويرمونهم بالتزيد فى الحديث الصحيح والإكثار من الموضوع ، فقال مالك : « إذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شجاعته » ، وكان مالك يسمى الكوفة « دار الضرب » يعنى أنها تصنع الأحاديث وتضعها كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير ، وقال ابن شهاب : يخرج الحديث من عندنا شبراً فيعود فى العراق ذراعاً(٢) .

وقد سقنا ما تقدم لنخلص منه إلى أمرين ؛ الأول : أن الطابع الذى يميز أهل الكوفة فى الفقه أنهم « أهل الرأى » ، وأنهم لا يلجأون إلى الرأى إلا إذا عرض لهم عارض لم يجدوا له نصاً فى الكتاب أو الحديث ، ومعنى ذلك أنهم قد عنوا بالحديث وجمعه وروايته واستقصائه عناية كبيرة لأنه مصدر أساسى من مصادر الفقه والتشريع ، ولكنهم بعد ذلك كانوا أكثر حرية من غيرهم وأكثر جرأة على استخدام العقل ، فكانوا يقولون برأيهم ، حيث يتوقف غيرهم ، إذا لم يجدوا نصاً فى القرآن أو الحديث . والأمر الثانى : أن المدرسة الأخرى وهى مدرسة أهل الحديث فى المدينة قد اتهمت مدرسة الكوفة بوضع الأحاديث والتزيد فيها ،

---

(١) ضحى الاسلام : ١٥٣ — ١٥٤ .
(٢) انظر المرجع السابق ٢ : ١٥٢ .

وقد يكون ما استجد فى حياة الكوفة مما لم يجدوا له ذكراً أو أصلاً فى الحديث حافزاً لهم على الوضع أو التزيد رغبة فى أن يدعموا رأيهم بحديث نبوى ؛ ولكن أغلب ما أنكره أهل المدينة على أهل الكوفة مرده إلى أن بعض التابعين وتابعى التابعين فى الكوفة قد أخذوا الأحاديث عن الصحابة الذين نزلوا الكوفة ، فكان هؤلاء الصحابة يحدثون بأحاديث لم يسمع بعضها علماء المدينة ممن كان فيها من الصحابة فجهلوها. وليس كل ما كان يحدّث به صحابى كان يحدث به غيره ، بل إن بعض الصحابة كان يحدّث بحديث نسخه حديث آخر لم يبلغه غيره من الصحابة [1] . فلم يكن مرد اتهام الكوفيين بالوضع إلى أنهم وضعوا كل ما اتُّهموا به ، ولم يكن مرده كله إلى عصبية أهل الحديث لمدرستهم على مدرسة الرأى ، وإنما كان بعض هذا الاتهام مرده إلى أنهم وضعوا حقًّا ، وكان مرد بعضه إلى العصبية ، ثم كان مرد بعضه الآخر إلى اختلاف مصادر الرواية ، أى اختلاف الصحابة الذين أخذ عنهم علماء كل مدرسة من التابعين وتابعيهم .

• • •

أما فى اللغة والنحو فقد كانت البصرة أسبق إلى العناية بهما ثم تبعتها الكوفة ، فقامت فى المصرين مدرستان متمايزتان : مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة . «وربما كان أهم الفروق الأساسية بين المدرستين أن مدرسة البصرة رأت أن أهم غرض وضع قواعد عامة للغة . . . تلتزمها وتريد أن تسير عليها فى دقة وحزم ؛ وإذ كانت اللغات لا تلتزم القواعد العامة دائماً بل فيها مسائل لا يمكن أن تجرى على القاعدة ، وخصوصاً اللغة العربية التى هى لغات قبائل متعددة تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً . . . أراد البصريون تمشياً مع غرضهم أن يهدروا الشواذ ، فإذا ثبتت صحتها قالوا إنها تحفظ ولا يقاس عليها. بل جرؤوا على أكثر من ذلك فخطّأوا بعض العرب فى أقوالهم إذا لم تجر على القواعد . . فهم فى الواقع أرادوا أن ينظموا اللغة بإهدار بعضها ، وأرادوا أن يكون ما سمع من العرب مخالفاً لهذا

(١) انظر المرجع السابق : ١٥٨ .

التنظيم مسائل شخصية جزئية يتسامحون فيها نفسها ولا يتسامحون فى مثلها والقياس عليها حتى لا تكثر فتفسد القواعد والتنظيم ، هذا إذا لم يتمكنوا من أن يؤولوا الشاذ تأويلاً يتفق وقواعدهم ولو بنوع تكلف . أما الكوفيون فلم يروا هذا المسلك ، ورأوا أن يحترموا كل ما جاء عن العرب ، ويجيزوا للناس أن يستعملوا استعمالهم ، ولو كان الاستعمال لا ينطبق على القواعد العامة ، بل يجعلون هذا الشذوذ أساساً لوضع قاعدة عامة . . . فهم أكثر تجويزاً للوجوه المختلفة فى المسائل...[١] »

وكان من أثر هذا الخلاف فى المنهجين أن تعصب كل فريق لمدرسته ، وأخذ يتهم ويضعف علماء المدرسة الأخرى ، وخاصة البصريين الذين كانوا يرون أنهم أخذوا اللغة عن العرب الخلّص وأن الكوفيين أخذوها عن الأعراب الذين فسدت لغتهم وسليقتهم . قال الرياشى — وهو بصرى[٢] : «إنما أخذنا اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وهؤلاء أخذوا اللغة من أهل السواد أكلة الكواميخ والشواريز » . وافتخر البصريون بأنهم لم يأخذوا عن الكوفيين فى هذا الميدان شيئاً ، وأن الكوفيين هم الذين كانوا يأخذون عن البصريين ، فقال أبو سعيد[٣] : « لا أعلم أحداً من علماء البصريين فى النحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة شيئاً من علم العرب إلا أبا زيد فإنه روى عن المفضل الضبى ..» ، وقال أبو زيد[٤] : « قدم الكسائى البصرة فأخذ عن أبى عمرو ويونس وعيسى بن عمر علماً كثيراً صحيحاً ، ثم خرج إلى بغداد فقدم أعراب الحطمة فأخذ عنهم شيئاً فاسداً فخلط هذا بذاك فأفسده . . » . وقال أبو الطيب اللغوى[٥] : « وكذلك أهل الكوفة كلهم يأخذون عن البصريين ولكن أهل البصرة يمتنعون عنهم لأنهم لا يرون الأعراب الذين يحكون عنهم حجة » . وربما كان من أوضح الأمثلة التى تدل

---

(١) ضحى الإسلام ٢ : ٢٩٤ — ٢٩٥ . وانظر أيضاً كتاب « العربية » ليوهان فك ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ص : ٦١ — ٦٣ .

(٢) ابن النديم ، الفهرست : ٨٦ .

(٣) المصدر السابق : ٨١ .

(٤) السيرافى ، أخبار النحويين البصريين : ٥٦ .

(٥) مراتب النحويين ، ورقة : ١٤٦ .

على مدى ما جرّت إليه هذه المنافسة بين المدرستين من خصومات واتهامات — ما قاله أبو حاتم السجستانى[١] : « لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب ، ولولا أن الكسائى دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حجج ، ولا يملك إلا حكايات عن الأعراب مطروحة لأنه كان يلقنهم ما يريد ، وهو على ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن، وهو قدوتهم وإليه يرجعون. . » وقال أبو حاتم أيضاً[٢]: « فإذا فسرت حروف القرآن المختلف فيها، أوحكيت عن العرب شيئاً فإنما أحكيه عن الثقات عنهم مثل أبى زيد والأصمعى وأبى عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم ، ولا ألتفت إلى رواية الكسائى والأحمرى والأموى والفراء ونحوهم ، وأعوذ بالله من شرهم ! ! »

وقد بادلهم الكوفيون اتهاماً باتهام وخصومة بخصومة ، فمن أمثلة ذلك أنه « لما مات المازنى خلفه أبو العباس المبرد ، وبقى ذكره ببغداد وسامرا لا يغض أحد منه إلى أن ذكره ابن الأنبارى فى بعض مصنفاته ، وأراد أن يضع منه ، ويرفع من صاحبه أبى العباس ، أحمد بن يحيى ثعلب ، جارياً على عادته فى العصبية للكوفيين على البصريين »[٣] . ومن ذلك أيضاً أن ابن الأعرابى الكوفى « كان يزعم أن الأصمعى وأبا عبيدة لايحسنان قليلا ولا كثيراً»[٤] ، وأنه كان يقول فى كلمة رواها الأصمعى « سمعت من ألف أعرابى خلاف ما قاله الأصمعى»[٥]. وقال ثعلب « انتهى علم اللغة والحفظ إلى ابن الأعرابى » . . . والشواهد على ذلك كثيرة وكلها تكشف عن مدى ما قادت إليه هذه الخصومة المنهجية من تبادل الاتهام والتضعيف .

ويعنينا من كل ذلك الأمران اللذان أشرنا إليهما عند حديثنا عن الحديث والفقه ، وأولهما : أن الكوفيين أكثر حرية فى منهجهم وأكثر جرأة حيث يتقيد

---

(١) مراتب النحويين : ١٢١ .
(٢) المصدر السابق : ١٤٧ .
(٣) ياقوت ، إرشاد ٥ : ١١٥ .
(٤) المصدر السابق ١٨ : ١٩٠ .
(٥) المصدر السابق ١٨ : ١٩٠ .

غيرهم ويتوقف . ولسنا بسبيل المفاضلة بين المنهجين ، ولكنا لا نملك إلا أن نشير إلى أن مذهب البصريين بما فيه من ميل شديد إلى « التقعيد » و « التقنين » أقرب إلى الطريقة التعليمية ومذهب المعلمين والتلاميذ ، أما مذهب الكوفيين فهو أقرب إلى فهم طبيعة اللغة فهماً صحيحاً ، وهو بذلك مذهب العلماء لا المعلمين . ونحب أن نشير إلى أن هذا المنهج الذى اتبعه الكوفيون بعدُ كان موجوداً فى البصرة أيضاً مع وجود المذهب الثانى ، وكانت هاتان النزعتان فى البصرة فى أيامها الأولى ، فهم يقولون : إن ابن أبى إسحق الحضرمى وتلميذه عيسى بن عمر كانا أشد ميلاً للقياس ، وكانا لا يأبهان بالشواذ ، وكانا لا يتحرجان من تخطئة العرب ؛ وكان أبو عمرو بن العلاء وتلميذه يونس بن حبيب البصريان أيضاً على عكسهما : يعظمان قول العرب ويتحرجان من تخطئتهم ، فغلبت النزعة الأولى على من أتى بعدُ من البصريين ، وغلبت النزعة الثانية على من أتى بعدُ من الكوفيين ...»[1]

والأمر الثانى فى اللغة والنحو كالأمر الثانى الذى ذكرناه فى الحديث والفقه ، وذلك أن اتهام البصريين للكوفيين بوضع الشواذ ونحلها وتضعيفهم إياهم ، لم يكن كله لأن الكوفيين كانوا حقًّا يضعون وينحلون ، وإنما كان بعضه لهذه العصبية التى قامت بين المدرستين ، وكان بعضه لاختلاف المصادر التى كان يأخذ عنها كل فريق ، واختلاف المنهجين فى استقاء مادة اللغة ، فقد كان البصريون يضيقون على حين كان الكوفيون يتوسعون .

فإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الشعر وروايته ، وجدنا أن الأمرين اللذين أشرنا إليهما فى الحديث والفقه من جانب ، وفى اللغة والنحو من جانب آخر — قائمان فى الشعر أيضاً . فقد اتصف الكوفيون هنا بما اتصفوا به هناك من أنهم أكثر حرية وأكثر جرأة ، وأنهم قد توسعوا فى الأخذ عن مصادر أسقطها البصريون ، ومن هنا كثرت رواية الكوفيين فاتهمهم البصريون بالتزيد والوضع .

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ٢ : ٢٩٦ ، وانظر طبقات فحول الشعراء : ١٥ .

قال ابن سلام فى حديثه عن الأسود بن يعفر بعد أن أورد قصيدة له[١]: « وله شعر كثير جيد ، ولا كهذه . وذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول : له ثلاثون ومئة قصيدة ؛ ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريباً منه . وقد علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروى ويتجوزون فى ذلك بأكثر من تجوزنا » . وقال أيضاً[٢]: « وأسمعنى بعض أهل الكوفة شعراً زعم أنه أخذه عن خالد بن كلثوم يرثى به حاجب بن زُرَارة . فقلت له : كيف يروى خالد مثل هذا وهو من أهل العلم ، وهذا شعر متداع خبيث ؟ فقال : أخذناه من الثقات . ونحن لا نعرف هذا ولا نقبله ». وقال أبو الطيب اللغوى[٣]: « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله ، وذلك بين فى دواوينهم ». وقال الثورى[٤]: « اتكل أهل الكوفة على حماد وجناد ، ففسدت رواياتهم من رجلين ، كانا يرويان ولا يدريان ، كثرت رواياتهما وقل علمهما» . ومما ذكروه فى تعليل كثرة رواية الشعر فى الكوفة قصة اكتشاف الأشعار التى نسخت للنعمان فى الطنوج فقال ابن جنى بعد أن أورد هذه القصة[٥]: « فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة » .

ونحب أن نعيد ما قررناه سابقاً من أن اتهام البصريين للكوفيين بوضع الشعر ونحله لم يكن مرده كله إلى أن الكوفيين كانوا يضعون وينحلون حقاً ، وإنما كان مرد بعضه إلى هذه العصبية وما سببته من منافسات وخصومات ، ثم كان مرد بعضه إلى اختلاف مصادر الفريقين وإلى اختلاف منهجيهما ، فقد توسع الكوفيون على حين ضيق البصريون .

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ١٢٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٣ .

(٣) مراتب النحويين : ١١٩ .

(٤) ياقوت ، إرشاد : ٧ : ٢٠٧ .

(٥) الخصائص : ٣٩٢ — ٣٩٣ .

وبعد ؛

فقد سقنا هذا الحديث كله لنصل إلى ما بدأنا به حديثنا حينما قلنا إنه إنْ كان شيء أولى بالشك ، وأحرى بالتوقف ، وأجدر بالبحث والتمحيص ، فهو هذه الأخبار والروايات المتناثرة فى صفحات الكتب العربية ، التى تدور حول بعض رواة الشعر : تتهمهم بالوضع والنحل ، وترميهم بالكذب والافتعال . وأحسب أننا نستطيع الآن أن نتبين قيمة قولنا هذا بعد الذى بيّناه من أمر هذه العصبية بين البصرة والكوفة ، وهذا الخلاف فى المصادر التى استقى كل فريق مادته منها ، ثم هذا الخلاف فى المنهج الذى اتبعته كل مدرسة ، وما كان لكل ذلك من أثر فى اتهام كل فريق الآخر بالوضع والنحل ، ورميه بالكذب والتزيد . على أن هذا الحديث العام — على ما فيه من خطر وقيمة — لا تتكشف لنا جوانبه إلا حين ندعمه بالحديث عن بعض الرواة ، وعرض الأخبار والروايات التى تدور حولهم .

٢

وسنبدأ بالحديث عن حماد ثم نتلوه بالحديث عن خلف ، فقد نالهما من الاتهام بالوضع والكذب والنحل ما لم ينل غيرهما . ولعل خير ما نصنع أن نعرض الأخبار والروايات التى توثّق حماداً وتضعفه ، ونجعلها أقساماً يجتمع كل قسم منها فى قَرَن :

١ — المفضل وحماد :

(ا) روى أبو الفرج [1] عن جماعة من الرواة أنهم كانوا فى دار أمير المؤمنين المهدى بعيساباذ ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب ، فدعا بالمفضل الضبى الراوية فدخل ، فمكث مليًّا ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعاً ، وقد

(١) الأغانى ٦ : ٨٩ — ٩١ .

بان فى وجه حماد الانكسار والغم ، وفى وجه المفضل السرور والنشاط ، ثم خرج حسين الخادم معهما فقال : يا معشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره وأبطل روايته لزيادته فى أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته ، فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل . فسألنا عن السبب ، فأخبرنا أن المهدى قال للمفضل لما دعا به وحده : إنى رأيت زهير بن أبى سلمى افتتح قصيدته بأن قال :

دَعْ ذَا وَعَدِّ القَوْلَ فى هَرِمٍ

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذى أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ما سمعت يا أمير المؤمنين فى هذا شيئاً إلا أنى توهمته كان يفكر فى قول يقوله ، أو يروّى فى أن يقول شعراً فعدل عنه إلى مدح هرم ، وقال : دع ذا ، أو كان مفكراً فى شىء من شأنه فتركه وقال : دع ذا ، أى : دع ما أنت فيه من الفكر وعدّ القول فى هرم . فأمسك عنه ، ثم دعا بحماد فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل ، فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين . قال : فكيف قال ؟ فأنشده :

لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّــةِ الحَجْرِ ... أَقْوَيْنَ مُذْ حِجَجٍ وَمُذْ دَهْرِ
قَفْرٌ بِمُنْدَفَعِ النَّحَائِتِ مِنْ ... ضَفْوَى أُولَاتِ الضَّالِ والسِّدْرِ
دَعْ ذَا وَعدِّ القَوْلَ فى هَــرِمٍ ... خَيْرِ الكُهُولِ وَسَيِّدِ الحَضْرِ

قال : فأطرق المهدى ساعة ؛ ثم أقبل على حماد فقال له : قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لا بد من استحلافك عليه . ثم استحلفه بأيمان البيعة وكل يمين محرجة ليصدقنه عن كل ما يسأله عنه . فحلف له بما توثق منه . قال له : أصدقنى عن هذه الأبيات ومن أضافها إلى زهير . فأقر له حينئذ أنه قائلها . فأمر فيه وفى المفضل بما أمر به من شهرة أمرهما وكشفه .

(ب) وروى أبو الفرج أيضاً [١] أن ابن الأعرابى قال : سمعت المفضل الضبىّ يقول : قد سُلِّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً . فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئ فى روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردُّون من أخطأ إلى الصواب ، لا ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ، ويُحمَل ذلك عنه فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك!» .

٢ ــ الأصمعى وحماد :

روى أبو الفرج [٢] أن الرياشى قال ، قال الأصمعى : كان حماد أعلم الناس إذا نصح . وزاد ياقوت على ذلك يشرح قول الأصمعى [٣] : يعنى إذا لم يزد وينقص فى الأشعار والأخبار ، فإنه كان متهماً بأنه يقول الشعر وينحله شعراء العرب .

وروى أبو الطيب اللغوى [٤] أن أباحاتم السجستانى قال ، قال الأصمعى : جالست حماداً فلم أجد عنده ثلثمائة حرف ، ولم أرض روايته ، وكان قديماً . وذكر أبو الطيب أن الأصمعى روى عن حماد شيئاً من الشعر [٥] ؛ وأن أبا حاتم قال ، قال الأصمعى : كل شىء فى أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتفاً سمعناها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء .

٣ ــ أبو عمرو بن العلاء وحماد :

روى أبو الفرج [٦] أن أبا عمرو الشيبانى قال : ما سألت أبا عمرو بن العلاء

---

(١) الأغانى ٦ : ٨٩ .
(٢) المصدر السابق ٦ : ٧٠ .
(٣) إرشاد ١٠ : ٢٦٥ .
(٤) مراتب النحويين ، ورقة : ١١٨ .
(٥) المصدر السابق : ١١٦ .
(٦) الأغانى ٦ : ٧٣ .

قط عن حماد الراوية إلا قدّمه على نفسه ، ولا سألت حماداً عن أبي عمرو إلا قدمه على نفسه .

٤ — ابن سلاّم وحماد :

قال ابن سلام[١] « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به : كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار ، أخبرني أبوعبيدة عن يونس قال: قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة ، وهو عليها، فقال : ما أطرفتني شيئاً. فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مديح أبي موسى . فقال . ويحك ، يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به، وأنا أروى شعر الحطيئة ! ولكن دعها تذهب في الناس » .

وقال ابن سلام أيضاً : وسمعت يونس يقول : العجب لمن يأخذ عن حماد، كان يكذب ويلحن ويكسر .

٥ — خلف الأحمر وحماد :

ذكر أبو الطيب اللغوي حماداً [٢] فقال إنه كان من أوسع الكوفيين رواية ، « وقد أخذ عنه أهل المصرين ، وخلف الأحمر خاصة » .

وذكر أيضاً [٣] أن أهل الكوفة قرأوا أشعارهم على خلف ، « وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه » .

ونقل ياقوت [٤] أن خلفاً الأحمر أول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك أنه جاء إلى حماد الراوية فسمع منه . . .

وذكر أبو الفرج [٥] أن أبا عبيدة قال ، قال خلف : كنت آخذ من

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٤٠ — ٤١ .

(٢) مراتب النحويين : ١١٦ .

(٣) المصدر السابق : ٧٦ .

(٤) إرشاد ١١ : ٦٨ .

(٥) الاغاني ٦ : ٩٢ .

حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك منى ويدخله فى أشعارها ؛ وكان فيه حق .

٦ — حماد ينتحل الشعر الجاهلى ويدعيه لنفسه :

ذكر أبو الفرج [١] عن رواته أن حماداً الراوية قدم على بلال بن أبى بردة البصرة ، وعند بلال ذو الرمة ، فأنشده حماد شعراً مدحه به . فقال بلال لذى الرمة : كيف ترى هذا الشعر ؟ قال : جيداً وليس له. قال : فمن يقوله ؟ قال : لا أدرى إلا أنه لم يقله . فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازه ، قال له : إن لى إليك حاجة . قال : هى مقضية . قال : أنت قلت ذلك الشعر ؟ قال : لا . قال : فمن يقوله ؟ قال : بعض شعراء الجاهلية ، وهو شعر قديم وما يرويه غيرى . قال : فمن أين علم ذو الرمة أنه ليس من قولك ؟ قال : عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام .

وبعد ؛

فهذه خلاصة شاملة لما فى المصادر العربية من أخبار حماد الراوية ، وهى تميل فى أكثرها إلى النيل منه وتضعيف روايته واتهامه بالوضع والنحل . ولكن كل خبر من هذه الأخبار يحمل فى تضاعيفه ما يستوقف الباحث ويسترعى انتباهه ويحمله على التقصى فى البحث والنقد . ومن أجل ذلك سنعود إلى هذه الأخبار خبراً خبراً نستنطقه لعله يكشف لنا عن خبىء فيه ينتهى بنا إلى يقين أو ما يشبه اليقين .

١ — المفضل وحماد :

(١) أما الخبر الأول ففيه أمران[٢] ، يدعم ثانيهما أولهما ، وينتهيان بنا إلى أن نشك فى هذا الخبر شكًّا يكاد يؤدى إلى رفضه . فالأمر الأول : أن الرواة

---

(١) الأغانى ٦ : ٨٨ .

(٢) انظر ما قدمناه من رأى ليال فى هذا الخبر فى الفصل الثالث من هذا الباب .

قالوا إنهم كانوا فى دار أمير المؤمنين المهدى ، وأن حسيناً الخادم قال : إن أمير المؤمنين يعلمكم ... فقد جرت هذه القصة إذن والمهدى خليفة ؛ أى بعد سنة ١٥٨ هـ ، وذلك لأن المهدى بويع بالخلافة فى آخر ذى الحجة من سنة ١٥٨ ولم يبق على انقضائها إلا إحدى عشرة ليلة [١] . ولكن حماداً توفى قبل أن يتولى المهدى الخلافة بنحو ثلاث سنوات. فقد ذكر ياقوت أن حماداً توفى سنة ١٥٥ [٢] وذكر ابن النديم أنه توفى سنة ١٥٦ [٣] . والأمر الثانى : أن الرواة ذكروا أنهم كانوا فى دار المهدى فى عيساباذ . ولكن المهدى لم يبن داره فى عيساباذ إلا بعد وفاة حماد بنحو تسع سنوات ، قال الطبرى فى حوادث سنة ١٦٤ [٤] « وفيها بنى المهدى بعيساباذ الكبرى قصراً من لبن إلى أن أسس قصره الذى بالآجر الذى سماه قصر السلامة ، وكان تأسيسه إياه فى يوم الأربعاء فى آخر ذى القعدة » .

(ب) أما الخبر الثانى فهو عندنا ضعيف منهم كذلك ؛ وذلك لأن فيه أن حماداً « رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويحمل عنه ذلك فى الآفاق » . فقد كان حماد إذن شاعراً ، وأى شاعر ! كان شاعراً ذا قدرة على تصريف وجوه القول وفنون الشعر ، بل لقد كان شاعراً جُمعت فيه الشعراء ، إذا قال قصيدة بلغت من القوة والمتانة ومن الفحولة والجزالة ، بل بلغت من الفن الشعرى، منزلة تجعلها حقيقة بأن تكون من شعر امرئ القيس أو النابغة أو طرفة أو سائر شعراء الجاهلية ، بحيث تُنسب إلى أى شاعر من هؤلاء الشعراء وتدخل فى شعره ويُحمل ذلك فى الآفاق ! وهذا وحده ، فى الفن ، باطل ؛ ولكنه باطل من وجه آخر ، وهو أن حماداً لم يُعرف بقول الشعر ، ولم نجد بين أيدينا مصدراً واحداً من هذه

---

(١) الطبرى ، تاريخ (سنة ١٥٨)، وقد أورد كذلك خبراً آخر لايكاد يفترق عن هذا، وهو أن المهدى بويع له بالخلافة لست ليال خلون من ذى الحجة سنة ١٥٨ .

(٢) إرشاد ١٠ : ٢٦٦ .

(٣) الفهرست : ١٣٥ .

(٤) تاريخ الطبرى (سنة ١٦٤) .

الكتب العربية ذكر لنا أن حماداً قال شعراً أو خلّف ديواناً رواه عنه غيره . ولو كان له شعر لحرصوا على ذكره لأنهم عُنوا بتسجيل الشعراء وشعرهم ودواوينهم أولاً ، ولأن ذلك كان يقوّى من رأى من اتهمه بالوضع والنحل ثانياً . فكيف لم يذكروا شعر حماد وديوانه ، وهم يذكرون أن « خلف ديوان شعر حمله عنه أبو نواس » [١] ؟ ثم ، أيكون المرء شاعراً ، فى مثل هذه المنزلة من الفحولة والشاعرية ، فيصرف كل شعره إلى غيره وينحله إياه ، ويضن على نفسه بأن ينسب إليها بعضه ؟ ولسنا فى حاجة إلى إطالة القول وبين أيدينا خبر آخر إن لم يكن ذا دلالة قاطعة على أن حماداً لم يكن يحسن قول الشعر ، فهو على أقل تقدير مما يستأنس به فى هذه السبيل ؛ وذلك أن حماداً حين أراد أن يمدح بلال ابن أبى بردة ، لم يستطع أن ينظم شعراً فى مدحه ، وإنما انتحل لنفسه شعراً جاهلياً قديماً ووجهه فى مدح بلال ، ولم يكتشف ذلك إلا ذو الرمة حينما سمع حماداً ينشده ، ثم اعترف به حماد [٢] .

ومما يدعم هذا الذى نذهب إليه ويكشف عن مقدار التخبط الذى وقعت فيه هذه الأخبار والروايات ، ما ذكره ابن سلام ، قال « سمعت يونس يقول : العجب لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر » . فكيف يكون حماد بهذا القدر من الشاعرية الفذة التى حاولت الرواية أن تصوره بها ثم يكون بعد ذلك يكسر الشعر ولا يقيم وزنه ؟ لا شك أن أحد هذين الخبرين موضوع ، ولعلهما كليهما كذلك [٣] .

فإذا كان الأمر على ما بينا ، وكان هذان الخبران موضوعين ، فإن لهما مع ذلك دلالة لا يصح أن نغفلها ، وهى أن بين المفضل وحماد منافسة شديدة

---

(١) ياقوت ، إرشاد ١١ : ٦٨ .

(٢) الأغانى ٦ : ٨٨ .

(٣) انظر أيضاً كتاب « العربية » تأليف يوهان فك ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ص : ٦٢ — ٦٣ .

وربما بلغت حد الخصومة والاتهام ، ثم استغلها تلاميذ المفضل ورووا عنها الأخبار : يتهمون حماداً ويقوّون من مكانة أستاذهم المفضل فتقوّى بذلك مكانتهم. أما المنافسة بينهما فلعلها كانت لأن المفضل — على ما يروون من أنه كان ثقة كثير الرواية للشعر — كان لا يحسن شيئاً من الغريب ولا من المعانى ولا تفسير الشعر ، وإنما كان يروى شعراً مجرّداً[١] . أما حماد فقد تقدم أنه كان عالماً « بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم »[٢]، وكان « من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها »[٣] . فكان حماد إذن يروى ما لم يكن يرويه المفضل، ويعرف ما لم يكن يعرفه، فاتهمه بالتزيد بل اتهمه بالوضع والنحل . ولا ينبغى أن ننسى أن حماداً كان أمويَّ الهوى وكانت « ملوك بنى أمية تقدمه وتؤثره وتستزيره، فيفد عليهم ، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها ، ويجزلون صلته . . . »[٤] وجاءه يوماً صديقه مطيع بن إياس يدعوه إلى مجلس جعفر ابن أبى جعفر المنصور ، فقال له حماد[٥]: « دعنى ، فإن دولتى كانت مع بنى أمية وما لى عند هؤلاء خير . . . » أما المفضل فقد كان عباسى الهوى ، وقد قربه المنصور وألزمه ابنه المهدى يؤدبه ؛ وللمهدى صنع المفضليات .

ونحسب أن ما بسطناه من وجوه هذه المنافسة والخصومة يزيدنا اطمئناناً إلى ما قدمناه فى أمر هذين الخبرين عن المفضل وحماد .

٢ — الأصمعى وحماد :

ولقد كان أمر المفضل وحماد بين رجلين من الكوفة نفسها جمعتهما عصبية بلدية واحدة ، ثم فرقتهما منافسات وخصومات شخصية وسياسية . أما الأمر بين

---

(١) مراتب النحويين : ١١٥ .

(٢) الأغانى ٦ : ٨٩ .

(٣) ياقوت ، إرشاد : ١٠ : ٢٥٨.

(٤) إرشاد ١٠ : ٢٥٨ .

(٥) الأغانى ٦ : ٨٢ .

الأصمعي وحماد فيعود بنا إلى المنافسة بين البصرة والكوفة ، فالأصمعي بصري ، وهذه الأخبار الثلاثة يروى أحدها الرياشي ويروى اثنين منها أبو حاتم، وهما بصريان كذلك . ولم يكن شأن الرياشي وأبي حاتم في عصبيتهما للبصرة على الكوفة شأن الأصمعي ، وذلك لأنهما كانا من أكثر البصريين طعناً على الكوفيين واتهاماً لهم ، وقد مر بنا أن الرياشي قال : إنما أخذنا اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وهؤلاء أخذوا اللغة من أهل السواد وأكلة الكواميخ والشواريز[١] . ومر بنا كذلك تضعيف أبي حاتم للكوفيين وقوله [٢]: « لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب »، وقوله [٣]: « فإذا فسرتُ حروف القرآن المختلف فيها أو حكيت عن العرب شيئاً فإنما أحكيه عن الثقات عنهم مثل أبي زيد والأصمعي وأبي عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم، ولا ألتفت إلى رواية الكسائي والأحمري والأموي والفراء ونحوهم ، وأعوذ بالله من شرهم ! »

فإذا لم يكف هذا الجانب في تضعيف هذه الأخبار ، فإن ما فيها من تناقض ليزيدنا اطمئناناً إلى أنها من هذه الأخبار التي ساقت إليها هذه العصبية والمنافسات . وذلك أن أبا حاتم يروى أن الأصمعي قال « جالست حماداً فلم أجد عنده ثلثمائة حرف ، ولم أرضَ روايته » . أما أنه لم يجد عنده ثلثمائة حرف فأمر لا شأن لنا به في هذا البحث ، وأما أنه « لم يرض روايته » فلا نراه يستقيم مع رواية أبي حاتم نفسه عن الأصمعي أنه قال إنه أخذ شعر امرئ القيس كله عن حماد « إلا نتفاً سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء » . ومما يؤيد هذا الذي نذهب إليه من تزيد التلاميذ على شيوخهم في أخبار منافستهم ، بل وضعهم عليهم أخباراً في ذلك ، أن الأصمعي قال « كان حماد أعلم الناس إذا نصح » ولم يزد على ذلك، فجاء من يفسر قوله هذا ويشرحه فقال: « يعني إذا لم يزد

---

(١) ابن النديم – الفهرست : ٨٦ .

(٢) مراتب النحويين : ١٢١ .

(٣) المصدر السابق : ١٤٧ .

وينقص فى الأشعار والأخبار ، فإنه كان متهماً بأنه يقول الشعر وينحله شعراء العرب» . وكل هذا تفسير لقوله «إذا نصح» . ونحن لا نكاد نطمئن إلى هذا التفسير بعد الذى علمناه من أن الأصمعى أخذ عن حماد «شيئاً من الشعر»، وأنه روى عنه ديوان امرئ القيس وأضاف إليه نتفاً سمعها من الأعراب وأبى عمرو ابن العلاء . والأصمعى مشهور بتشدده وتحريه وأنه «لا يقفى إلا فيما أجمع عليه العلماء، ويقف عما يتفردون به عنه، ولا يجوّز إلا أفصح اللغات، ويلجّ فى دفع ما سواه»[1]، «وأنه، كان لا يفسر شعراً فيه هجاء ... وكان صدوقاً فى كل شىء»[2]، فمن كان هذا منهجه فإنه لا يأخذ إلا عن ثقة أو عمن يعرف أنه ثقة. والذى نراه فى تأويل قوله «إذا نصح» أنه يريد إذا نصح لمن يأخذ عنه وسمحت نفسه فى إعطائه وتعليمه ، وذلك لأن حماداً كان مشهوراً بأنه ضنين برواية الشعر وإنشاده [3] .

٣ — أبو عمرو بن العلاء وحماد :

أما الخبر الذى سقناه عن تقديم أبى عمرو بن العلاء حماداً على نفسه، وتقديم حماد أبا عمرو على نفسه ففيه توثيق لحماد ، وهو — إن صح — يدعم ما ذهبنا إليه من أن رأى العلماء الذين عاصروا حماداً وكانوا من طبقته — إذا ما جُرِّد من العصبية والتحامل — لم يكن كالرأى الذى شاع بعد أن شوهته الأخبار والروايات. ولرأى أبى عمرو فى حماد قيمة خاصة إذ أن أبا عمرو بصرى ، بل رأس علماء البصرة ، وكان ثقة مأموناً حتى عند الكوفيين وقد يضعّف من هذا الخبر أن راويه أبو عمرو الشيبانى وهو كوفى ، ولكن أبا عمرو الشيبانى ثقة، لم يضعفه أحد فيما يروى ، وإن

---

(١) مراتب النحويين : ٨٠ .

(٢) المصدر السابق : ٧٩ .

(٣) نزهة الألباء : ٧٠ .

كانوا نالوا منه لاستهتاره فى الشراب . ومع ذلك فثمة خبر يدعم هذا الخبر وقد رواه عن أبى عمرو رأس من رؤوس علماء البصرة، هو تلميذه الأصمعى قال [١] ، قال أبو عمرو : ما سمع حماد الراوية حرفاً قط إلا سمعته . ومن أجل ذلك كله نميل إلى أن أبا عمرو بن العلاء، ومن فى منزلته من علماء الطبقة الأولى، كانوا يقدرون حماداً حق قدره، وكانوا يوثّقونه ويعدّلونه .

٤ — ابن سلام وحماد :

أما ما رواه ابن سلام عن يونس من أن حماداً وضع القصيدة الميمية فى مدح أبى موسى الأشعرى ونحلها الحطيئة ، فمردود من وجهين ، الأول: أن المدائنى ، وهو بصرى ، وكان معاصراً لابن سلام رد عليه وذكر « أن الحطيئة قال هذه القصيدة فى أبى موسى ، وأنها صحيحة ، قالها فيه وقد جمع جيشاً للغزو . . » [٢] والوجه الثانى : أن العلماء الذين جمعوا ديوان الحطيئة وشرحوه بعد حماد أثبتوا هذه القصيدة فى ديوانه ، ولم يأخذوا بالرأى الذى أورده ابن سلام عن يونس . فهذا ابن حبيب قد روى هذه القصيدة عن ابن الأعرابى وعن أبى عمرو الشيبانى معاً ، وأثبتها السكرى عن ابن حبيب فى شرحه لديوان الحطيئة [٣] .

ويدعم هذين الوجهين أن ابن سلام روى خبر وضع حماد لهذه القصيدة ونحلها الحطيئة عن يونس ، ويونس بصرى ، كابن سلام ، وكلاهما يضعف الكوفيين ويتهمهم بالكذب والوضع والتزيد . فيونس ذكر حماداً فى الخبر الثانى الذى أوردناه وقال : العجب لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر . وقد مر بنا أن ابن سلام قال فى معرض حديثه عن

---

(١) طبقات النحويين واللغويين : ٣١ .

(٢) الأغانى ٢ : ١٧٦ .

(٣) ديوان الحطيئة : ٣٤ — ٣٥ .

الأسود بن يعفر « إن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروى ويتجوزون فى ذلك بأكثر من تجوزنا » . وقال أيضاً فى معرض شعر رواه بعض أهل الكوفة : ونحن لا نعرف هذا ولا نقبله .

ومن أجل هذا كله لا نملك أن نطمئن إلى ما رُوى من أن حماداً وضع تلك القصيدة ونحلها الحطيئة ، ولا نملك أن نطمئن إلى أحكام يونس وابن سلام على حماد .

٥ ــ خلف الأحمر وحماد :

أما الأخبار الأربعة التى أوردناها عن خلف وحماد فثلاثة منها توثق حماداً توثيقاً ما بعده من توثيق ، فقد جاء فى الخبر الأول أن حماداً « أخذ عنه أهل المصرين (البصرة والكوفة) ، وخلف الأحمر خاصة » . وأكد الخبر الثانى ما جاء فى هذا الخبر الأول ، فذكر أن أهل الكوفة قرأوا أشعارهم على خلف بعد وفاة حماد لأن خلفاً « كان قد أكثر الأخذ عنه » . وكذلك جاء فى الخبر الثالث أن خلفاً الأحمر أول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك أنه جاء إلى حماد الراوية فسمع منه . فإذا كان حماد بهذه المنزلة التى تذكرها هذه الأخبار ، وكان أستاذاً لأهل الكوفة ، وبعض أهل البصرة وخاصة خلفاً ــ فكيف يستقيم ذلك مع الخبر الرابع الذى يذكر فيه خلف أن حماداً « كان فيه حمق » ، وأن خلفاً قال : كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك منى ويدخله فى أشعارها . وليس هذا التناقض وحده بين هذا الخبر والأخبار الثلاثة قبله هو الذى يكشف عن زيف هذا الخبر ، بل إنه كذلك ليتناقض مع ما قدمنا من رأى العلماء فى حماد وهو أنه كان عالماً بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فكيف يكون علمه هذا إذا جاز عليه ماتزعمه هذه الرواية من منحول الشعر الذى كان يعطيه إياه خلف ؟ بل ثمة

تناقض ثالث : فقد مر بنا أن حماداً اتهم بأنه — لكثرة علمه بلغات العرب وشعرهم ومذاهب الشعراء ومعانيهم — كان ينظم الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويحمل عنه ذلك فى الآفاق . ولكن هذا الخبر يصور لنا حماداً ثقة فيما يروى لأن خلفاً يعترف بأنه كان يأخذ منه الصحيح من أشعار العرب ؛ ثم إنه يصور لنا حماداً فى صورة الجاهل الأحمق الذى يستجهله حتى تلميذه فيعطيه المنحول من الشعر فيقبله ويجوز عليه !

فنحن إذن — بعد ما عرضنا هذه الأخبار وبينا ما فيها من زيف — نميل إلى أن نعدّ أكثر ما اتهم به حماد موضوعاً ، دعت إلى وضعه عوامل عدة منها : هذه العصبية التى كانت متأججة بين البصرة والكوفة ؛ ومنها : تلك المنافسات والخصومات الشخصية كالتى كانت بين المفضل وحماد ؛ ومنها : العصبية السياسية ، فقد كان حماد أموى الهوى والنزعة ، وكانت دولة بنى أمية قد ولت وأقبلت دولة جديدة تناصبها العداء وتريد أن تمحو محاسنها وآثارها وتحط من قيمة من اشتهر فيها أو نال لديها حظوة ؛ ومنها : أن حماداً كان — باعتراف الرواة — كثير الرواية واسع الحفظ [1] : فكان يروى ما لا يعرفه غيره ، ويحفظ ما لا يحفظون ، فاتهموه بالتزيد والوضع . وقد ساعد على كيل هذا الاتهام له وتضعيفه وتجريحه أنه كان ماجناً مستهتراً بالشراب مفضوح الحال[2] .

---

(١) انظر لذلك الأغانى ٦ : ٧١ ، ٩٢ — ٩٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ٦ : ٨٠ ، ٨٤ .

٣

ولكن الروايات والأخبار التى بين أيدينا لا تقتصر على اتهام حماد الكوفى ، وإنما تتهم كذلك شيخاً من شيوخ البصرة المقدمين ، ورأساً من رؤوس الرواية فيها ، هو خلف الأحمر . وسنعرض هذه الأخبار والروايات فى سمطين : ينتظم أولهما الأخبار التى تتهمه بالوضع والنحل ، وينتظم ثانيهما الأخبار التى توثقه وتعدله . ثم نعقب عليهما بمناقشة الأخبار الأولى ونقدها .

١ — الأخبار التى تتهمه بالوضع والنحل :

(ا) قال محمد بن يزيد (المبرد) [١] : « كان خلف أخذ النحو عن عيسى بن عمر ، وأخذ اللغة عن أبى عمرو ، ولم يُرَ أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ، وكان به يضرَب المثل فى عمل الشعر ؛ وكان يعمل على ألسنة الناس فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذى يضعه عليه ؛ ثم نسك فكان يختم القرآن فى كل يوم وليلة ؛ وبذل له بعض الملوك مالاً عظيماً خطيراً على أن يتكلم فى بيت شعر شكوا فيه فأبى ذلك ، وقال : قد مضى لى فى هذا ما لا أحتاج إلى أن أزيد فيه . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه ، وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد ، فلما تقرَّأ ونسَك خرج إلى أهل الكوفة ، فعرَّفهم الأشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة . فبقى ذلك فى دواوينهم إلى اليوم » .

---

(١) مراتب النحويين : ٧٥ — ٧٦ .

(ب) قال أبو حاتم عن الأصمعى[1] : « كان خلف مولى أبى بردة ابن أبى موسى الأشعرى . . . وكان أعلم الناس بالشعر ، وكان شاعراً ، ووضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً ، وعلى غيرهم ، عبثاً بهم ؛ فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة » .

(حـ) قال أبو حاتم[2] : « ولما قدم الأصمعى من بغداد دخلت إليه ، فسألته عمن بها من رواة الكوفة . قال : رواة غير منقّحين ، أنشدونى أربعين قصيدة لأبى دُؤاد الأيادى قالها خلف الأحمر . وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية ، إليها يرجعون ، وبها يفتخرون » .

(د) وقال أبو عبيدة[3] : « قال خلف : كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك منى ويدخله فى أشعارها ؛ وكان فيه حمق » .

(هـ) قال أبو على القالى[4] : « كان أبو مُحرز أعلم الناس بالشعر واللغة ، وأشعر الناس على مذاهب العرب . حدثنى أبو بكر بن دُريد : أن القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى التى أولها :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّى صُدُورَ مطِيِّكُمْ   فَإِنِّى إلى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمْيَلُ

له ، وهى من المقدمات فى الحسن والفصاحة والطول ، فكان أقدر الناس على قافية » .

(و) وقال ابن عبد ربه[5] : « كان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيحسن وينحله الشعراء ، ويقال إن الشعر المنسوب إلى ابن أخت

---

(١) مراتب النحويين : ٧٥ .
(٢) المرزبانى ، الموشح : ٢٥١ – ٢٥٢ .
(٣) الأغانى ٦ : ٩٢ .
(٤) الأمالى ١ : ١٥٦ .
(٥) العقد ٦ : ١٥٧ .

تأبط شرًّا ، وهو :

إن بالشِّعْبِ إلى جَنْبِ سَلْعٍ　　لَقَتِيلًا دَمُهُ مَا يُطَلُّ

لخلف الأحمر ، وإنما ينحله إياه » . وكان الجاحظ قد ذكر[1]: « وقال تأبط شرًّا أو أبو محرز خلف بن حيان الأحمر :

مُسْبِلٌ بالْحَيِّ أَحْوَى رِفَلٌّ　　وَإِذَا يَغْدُو فَسِمْعٌ أَزَلُّ[2]

وكذلك قال ابن قتيبة إن خلفاً الأحمر هو القائل :

إنَّ بالشِّعْبِ إلى جنْبِ سَلْعٍ　　لَقَتِيلًا دَمُهُ مـا يُطَلُّ

« ونحله ابن أخت تأبط شرًّا . وكان يقول الشعر وينحله المتقدمين[3]» .

٢ ـ الأخبار التي توثّقه وتعدّله :

(ا) قال ابن سلام:[4] « خلف بن حيان ، أبو محرز ، وهو خلف الأحمر ـ اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقه لساناً . كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ، ألا نسمعه من صاحبه » . وقال أبو زيد الأنصاري أيضاً[5] « أتيت بغداد حين قام المهدي محمد ، فوافاها العلماء من كل بلدة بأنواع العلوم ، فلم أر رجلاً أفرس ببيت شعر من خلف » .

---

(١) الحيوان ١ : ١٨٢-١٨٣ .

(٢) السمع : ولد الذئب والضبع . والأزل : الأرسح وهو خفيف العجز . يقول : إنه يسبل إزاره خيلاء وكبراً ويتبختر ذاهباً في الترفه إلى أرفع الدرجة ، أو إنه يسبل شعراً أحوى أي أسود .

(٣) الشعر والشعراء ٢ : ٧٦٥ .

(٤) طبقات الشعراء : ٢١ .

(٥) ابن النديم ، الفهرست : ٨١ .

(ب) قال أبو حاتم[١]: « قال الأصمعي : كأنما جُعل علم لغة ابني نزار، ومن كان من بني قحطان على لغة ابني نزار، بين جوانح خلف الأحمر بمعانيها » .

(حـ) وقال عيسى بن إسماعيل[٢] : « سمعت الأصمعي — وذكر خلفاً الأحمر أبا محرز — فقال : ذهبت بشاشة الشعر بعد خلف الأحمر . فقيل له : كيف وأنت حيّ ؟ فقال : إن خلفاً كان يحسن جميعه وما أحسن منه إلا الحواشي » .

(د) قال أبو عبيدة[٣] : « خلف الأحمر معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة » .

(هـ) وقال أبو علي القالي[٤]: « وكنت أنا كثير التعطف للأصمعي ، فكنت أسأل أبا بكر بن دريد كثيراً عن خلف والأصمعي : أيهما أعلم ؟ فيقول لي : خلف . فلما أكثرت عليه انتهرني ، وقال : أين الثماد من البحور ! »

(و) وقال الرياشي[٥] : « سمعت الأخفش يقول : لم تدرك ها هنا أحداً أعلم بالشعر من خلف والأصمعي . قلت : أيهما كان أعلم ؟ قال : الأصمعي . قلت : لم ؟ قال : لأنه كان أعلم بالنحو » .

٣ — مناقشة ونقد :

(ا) ونحب أن نقف قليلاً عند هذا التناقض الواضح بين أخبار الطائفة الأولى وأخبار الطائفة الثانية : فخلف معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة ؛ والأصمعي يقول بعد موت خلف : ذهبت بشاشة الشعر ،

(١) طبقات النحويين واللغويين : ١٧٩ .
(٢) المصدر السابق : ١٨٠ .
(٣) نزهة الألباء : ٧٠ .
(٤) طبقات النحويين واللغويين : ١٧٩ .
(٥) المصدر السابق : ١٧٩ .

ويقدمه على نفسه ثم يقول عنه كأنما جُعل علم لغة العرب بين جوانح خلف الأحمر بمعانيها . وأبو بكر بن دُرَيْد يفضل خلفاً على الأصمعى ويجعله بحراً والأصمعى ثماداً . ومع ذلك فهذا الأصمعى نفسه يذكر أن خلفاً كان يضع الشعر وأنه وضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً وعلى غيرهم عبثاً بهم ، وأنه وضع أربعين قصيدة ونحلها أبا دؤاد الإيادى . وابن دريد — على تقديمه خلفاً — يذكر أن خلفاً هو قائل القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى . ولرب معترض يقول : إن وصف أخبار الطائفة الثانية خلفاً بالعلم لا تعنى توثيقه فى الرواية ، وبذلك لا تتناقض مع أخبار الطائفة الأولى . وهذا القول مردود من وجهين ؛ الأول : أن من الجائز ألا يعنى الوصف بالعلم أن الموصوف به مُوثَّقٌ فى الرواية لو نُص على ذلك فى الخبر نفسه ، كما جاء فى الخبر (ب) من الطائفة الأولى حيث قال الأصمعى عن خلف : « كان أعلم الناس بالشعر . . . ووضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً » . أما أن يوصَف بالعلم ويوقف عند ذلك ولا يُنصّ على تضعيفه فى الرواية ، فإن فى هذا الإغفال نفسه دليلاً على التوثيق والتعديل ، لأن الكلام حينئذ ملتبس ، ولا بد لإيضاحه من النص على التضعيف والاتهام لو قُصدا . على أن كلامنا هذا يزيد اتضاحه فى الوجه الثانى من وجوه ردنا ، وذلك هو نص ابن سلام الذى أوردناه . فابن سلام ينص على علم خلف بالشعر وينص كذلك على توثيقه فى الرواية ، ثم لا يكتفى بأن يجعل ذلك رأياً خاصاً به وإنما يذكر أن هذا الرأى هو إجماع علماء البصرة ، قال ابن سلام : « اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقه لساناً ، كنا لا نبالى إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه ». ولرأى ابن سلام قيمة خاصة إذ أن ابن سلام هو من نعرف شكاً فى بعض الشعر الجاهلى ، ونصاً على بعض المنحول منه ، وذكراً لبعض الرواة الوضاعين وأخبار

وضعهم . والحق أن ابن سلام لم يكتف بكل هذا الذى قاله فى توثيق خلف ، وإنما أضاف إليه أقوالاً أخرى ذهب فيها إلى أن خلفاً كان ناقداً للشعر الجاهلى ، يميز صحيحه من فاسده ، وينص على المنحول منه ، ويرد كثيراً مما كان يُرْوَى فى زمنه . ومن أجل هذا جاءه خلاد بن يزيد الباهلى — « وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله » — فقال له[1] : « بأى شىء ترد هذه الأشعار التى تُرْوَى ؟ » فقال له خلف : « هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : نعم . قال : أفتعلم فى الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم . قال : فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت » . وهو يصوره أيضاً أنه — فى شكه فى بعض الشعر الجاهلى — لا يقطع ولا يجزم ، وإنما يقول إن هذه الأبيات أو تلك القصيدة « يقال » إنها لفلان ؛ فمن ذلك أن ابن سلام سأله عن بيت من الشعر : من يقوله ؟ فأجابه : « يقال للزبير بن عبد المطلب »[2] .

(ب) وفى أخبار الطائفة الأولى ، وهى التى تتهم خلفاً بالوضع والنحل ، أمر غريب حقّاً : فخلف بصرىّ ، والعلماء الذين يروون أخبار وضعه ونحله بصريون كذلك — مما يكاد يوهم أن هذه الأخبار صحيحة ، فقد شهد بها بصريون على بصرىّ ، وبذلك فهى بعيدة عما ذكرناه آنفاً من أمر العصبية وما تدفع إليه من الاتهام . غير أننا حين ننعم فى هذه الأخبار النظر نجد أنها لا تتهم حقّاً إلا الكوفيين ، وأن خلفاً لا يعدو أن يكون معبراً يجتازونه ليصلوا منه إلى اتهام علماء الكوفة ورواتها . واتخذوا خلفاً وسيلة لذلك لأنه — كما أسلفنا القول — قد أخذ عن حماد الكوفى ، ثم أخذ الكوفيون بعد ذلك عن خلف . فى الخبر (١) « وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه ،

---

(١) طبقات الشعراء : ٨ .

(٢) المصدر السابق : ٢٠٥ .

وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد ، فلما تقرأ ونسلك خرج إلى أهل الكوفة ، فعرفهم الأشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس ؛ فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة . فبقى ذلك فى دواوينهم إلى اليوم » .

وفى الخبر (ح) جعل الرواةُ الأصمعىّ يتهم خلَفاً بالوضع ليصلوا إلى أن رواة الكوفة « رواة غير منقحين ، أنشدونى أربعين قصيدة لأبى دؤاد الإيادى قالها خلف الأحمر . وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية ، إليها يرجعون ، وبها يفتخرون » .

وجعل الرواة ، فى الخبر (د) ، خلفاً يعترف بأنه كان ينحل الشعر ، ليصلوا إلى أنه أعطى هذا الشعر المنحول لحماد الراوية الكوفى ، فقبله ، ورواه ، وأدخله فى أشعار العرب .

ومن أجل هذا نجد أن كثيراً من هذه الأخبار — بالرغم من أن رواتها بصريون يتهمون راوية بصريًّا — قد انتهت إلى غايتها وكشفت بذلك عن عوارها .

(ح) ومما يدلنا على مبلغ تجنى بعض الرواة على خلف ، ومدى ما انتهت إليه هذه الضروب المتعددة من العصبيات والخصومات — أنهم وضعوا شعراً ورجزاً على لسان خلف الأحمر وغيره من العلماء الرواة ، ثم نسبوا إليه أنه وضع ذلك الشعر ونحله القدماء . قال الجاحظ[1] : « ولقد ولَّدوا على لسان خلف الأحمر ، والأصمعى ، أرجازاً كثيرة ؛ فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء ؟ » . ولعل فى هذا ما يكشف لنا عن مدى الثقة التى يجب أن نوليها مثل هذه الروايات والأخبار التى تتهم خلفاً ، وعرضنا طرفاً منها .

---

(١) الحيوان ٤ : ١٨١ — ١٨٢ .

(د) ونحب أن نكشف عن أمر آخر ، يتصل بهذا الذى قالوه من أن خلفاً قال القصيدة اللامية :

إنَّ بالشِّعبِ إلى جَنْبِ سَلْعٍ   لَقَتِيــلًا دَمُــهُ ما يُطَلُّ

ونحلها تأبط شرًّا . فقد اختلف القدماء فى نسبتّها : فنسبها بعضهم ، كأبى تمام فى حماسته(١) ، إلى تأبط شرًّا ، ولم يشر إلى أنها قد تنسب إلى غيره . ونسبها بعضهم إلى الشنفرى(٢) ، ولم يشر كذلك إلى أنها قد تنسب إلى غيره . وقد يتداخل بعض شعر الشنفرى وتأبط شرًّا ، ويُنسب ما قاله أحدهما إلى الآخر لأنهما كانا من اللصوص وصعاليك العرب وفُتّاكهم ، وأكثر ما يتحدثان عنه فى شعرهما متشابه . ونسبها بعضهم إلى ابن أخت تأبط شرًّا قالها فى خاله . ونحن ، فى هذا المقام ، لا يعنينا التثبت من نسبتّها إلى واحد من هؤلاء الثلاثة ، فسواء أكانت لتأبط شرًّا أم لابن أخته أم للشنفرى ، فهى عندنا — هنا — جاهلية صحيحة وليست منحولة . ولكننا نحب أن نقف قليلاً عند أقوال من ذهبوا إلى أنها منحولة . ولنبدأ بما أورده التبريزى ، قال(٣) : « قال النمرىّ (٤) : ومما يدل على أنها لخلف الأحمر قوله فيها : " جلّ حتى دقّ فيه الأجلُّ " فإن الأعرابى لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا . قال أبو محمد الأعرابى (٥) : هذا موضع المثل " ليس بعشك فادرجى " ، ليس هذا كما ذكره ، بل الأعرابى قد يتغلغل إلى أدقّ من هذا لفظاً ومعنى . وليس من هذه الجهة عُرِف أنّ الشعر

(١) ج ١ ص : ٣٤٨ .
(٢) الأغانى ٦ : ٨٦ — ٨٧ ، وأمالى المرتضى ١ : ٢٨٠ .
(٣) شرح الحماسة (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ٢ : ٣١٣ — ٣١٤ .
(٤) أحد شراح حماسة أبى تمام المتقدمين ، قبل التبريزى .
(٥) هو الحسن بن أحمد ، المعروف بالأسود الغندجانى ، علامة نسابة ، عارف بأيام العرب وأشعارها ، من رجال آخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس . (ترجمته فى نزهة الألباء : ٢٣٩ ، ومعجم الأدباء ٧ : ٢٦١ — ٢٦٥) .

مصنوع ، لكنّ من الوجه الذى ذكره لنا أبو الندى [١] ، قال : مما يدل على أن هذا الشعر مولد أنه ذكر فيه سلعاً ، وهو بالمدينة ، وأين تأبط شرًّا من سلع ؟ وإنما قُتل فى بلاد هُذيل ورُمِىَ به فى غار يقال له رخمان». أرأيت إلى إقامة الدليل كيف تكون ؟ لقد أحس الأقدمون أنفسهم بضعف قول من قال إن هذه القصيدة لخلف نحلها تأبط شرًّا أو ابن اخته ، فضوا يعتسفون الطريق إلى دليل يدعمون به هذا القول ، فكان دليلهم ظنًّا وتوهماً لم يغنيا شيئاً . قال بعضهم إن فى هذه القصيدة نصف بيت — نصف بيت فى القصيدة كلها — فيه معنى فلسفى عميق لا يدركه الأعرابى ، وما هو هذا المعنى الفلسفى العميق ؟ قالوا إنه قوله : جل حتى دق فيه الأجلّ . فإذا كشفتَ عن عمق هذا المعنى لم تجده يعنى شيئاً غير قوله : إن وفاة هذا الرجل لأمر عظيم يصغر بإزائه كل عظيم من الأمور . فأى عمق فى هذا القول لا يدركه الأعرابى ومن هو دون الأعرابى [٢] ؛ فلما جاء من دفع هذا القول وردّه لم يلبث أن هوى فى مزلق دونه المزلق الأول . فقال : إن الدليل على أن هذه القصيدة مصنوعة أن الشاعر ذكر سلعاً ، وأن سلعاً جبل فى المدينة ، ولكن الرجل المذكور فى القصيدة قد قتل فى بلاد هُذَيل ! ! أى عجب يربى على هذا العجب ! وماذا يقول أبو الندى — الذى ذهب إلى هذا الرأى ونقله عنه أبو محمد الأعرابى

---

(١) هو محمد بن أحمد ، أبو الندى ؛ كان أبو محمد الأعرابى يكثر من الرواية عنه والاعتماد عليه . (ترجمته فى معجم الأدباء ١٧ : ١٥٩ — ١٦٤) . قال عنه ياقوت (٧ : ٢٦٢) إنه «رجل مجهول لا معرفة لنا به» . وقال : «وكان أبو يعلى بن الهبارية الشاعر يعيره (أى : يعير أبا محمد الأعرابى) بذلك ، ويقول : ليت شعرى ، من هذا الأسود الذى قد نصب نفسه للرد على العلماء ، وتصدى للأخذ على الأئمة القدماء ؟ بماذا نصحح قوله ونبطل قول الأوائل ، ولا تعويل له فيما يرويه إلا على أبى الندى ، ومن أبو الندى فى العالم ؟ لا شيخ مشهور ، ولا ذو علم مذكور . . . ! »

(٢) انظر كتاب المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، تأليف الدكتور عبد الله الطيب ص : ٧٦ — ٧٧ التعليق رقم : ١ .

— لو قيل له : إن سلعاً اسم لعدة مواضع ، ومنها — كما قال الأقدمون أنفسهم — « جبل لهذيل » [١] !!

فإذا شككتَ — كما نشك نحن الآن — فى أمر هذا الخبر الذى يتهم خلفاً بوضع هذه القصيدة ونحلها الشنفرى أو تأبط شرًّا أو ابن أخته ، وإذا رجح لديك — كما رجح لدينا — أن أكثر هذه القصيدة لا يمكن أن يكون موضوعاً مُتكلَّفاً منحولاً لما يظهره فيها النقد الفنى الداخلى من أصالة ، وصدق فنى ، وشخصية صادقة — فقد بقى إذن أن نعرف كيف التبس أمرها على القوم . وقد عثرنا على خبر طريف يوضح لنا الأمر من جميع أطرافه : فقد أورد الخالديان اثنى عشر بيتاً من هذه القصيدة ونسباها للشنفرى ، ثم قالا [٢] « وقد زعم قوم من العلماء أن الشعر الذى كتبنا للشنفرى هو لخلف الأحمر ، وهذا غلط . ونحن نذكر الخبر فى ذلك : أخبرنا الصولى عن أبى العيناء قال : حضرت مجلس العتبى ، ورجل يقرأ عليه الشعر للشنفرى ، حتى أتى على القصيدة التى أولها :

إن بالشِّعْبِ الذِى دُونَ سلْعٍ لَقَتِيــلاً دَمُــهُ مَا يُطَلُّ

فقال بعض من كان فى المجلس : هذه القصيدة لخلف الأحمر . فضحك العتبى من قوله ، فسألناه عن سبب ضحكه فقال : والله ما لآل أبى محرز خلف من هذه القصيدة بيت واحد . وما هى إلا للشنفرى . وكان لها خبر طريف لم يبقَ من يعرفه غيرى . قلنا : وما خبرها ؟ قال . جلسنا يوماً

---

(١) الفيروزبادى ، القاموس (سلع) ؛ وكذلك ياقوت ، معجم البلدان « وسلع جبل فى ديار هذيل » وأنشد ثلاثة أبيات للبريق الهذلى آخرها :

يحط العصم من أكناف شعر ولم يترك بذى سلع حمارا

(٢) حماسة الخالديين (مخطوط فى دار الكتب المصرية رقم ٥٨٧ أدب) ورقة : ١٢٠ — ١٢٢ .

بالمربد ، ونحن جماعة من أهل الأدب ، ومعنا خلف الأحمر ، نتذاكر أشعار العرب ، وكان خلف الأحمر أروانا لها وأبصرنا بها ؛ فتذاكرنا منها صدراً ، ثم أفضينا إلى أشعارنا ، فخضنا فيها ساعة ، فبينا خلف ينشدنا قصيدة له فى روى قصيدة الشنفرى هذه وقافيتها يذكر فيها ولد أمير المؤمنين عليهم الرحمة ، وما نالهم وجرى عليهم من الظلم ، إذ هجم علينا الأصمعى ، وكان منحرفاً عن أهل البيت ، وقد أنشد خلف بعض الشعر ، فلما نظر الأصمعى قطع ما كان ينشده من شعره ودخل فى غيره إلا أنه على الوزن والقافية ، ولم يكن فينا أحد عرف هذا الشعر ولا رواه للشنفرى . فتحيرنا لذلك وظنناه شيئاً عمله على البديهة . فلما انصرف الأصمعى قلنا له : قد عرفنا غرضك فيما فعلت . وأقبلنا نطريه ونقرظه . فقال : إن كان تقريظكم لى لأنى عملت الشعر ، فما عملته والله ، ولكنه للشنفرى يرثى تأبط شرًّا ، ووالله لو سمع الأصمعى بيتاً من الشعر الذى كنت أنشدكوه ما أمسى أو يقوم به خطيباً على منبر البصرة فيتلف نفسى . فادعاء شعر لو أردت قول مثله ما تعذر على — أهون عندى من أن يتصل بالسلطان ، فألحق باللطيف الخبير . قال أبو العيناء : فسألنا العتبي شعرَ خلف الذى ذكر فيه أهل البيت فدافعنا مدة ثم أنشد :

قَدْكَ مِنِّى صَارِمٌ مَا يُفَـلُّ وابْنُ حَزْمٍ عَقْـدُه لَا يُحَلُّ
يَنْثَنِى باللَّوْمِ مِنْ عَاذِلِيـه مَا يُبالِى أَكْثَرُوا أَمْ أَقَلُّوا

(وهى ٤٧ بيتاً أوردها كلها ، ثم قال) : كتبنا هذه القصيدة بأسرها لأنها فى سادتنا عليهم السلام ، ولأنها أيضاً غريبة لا يكاد أكثر الناس يعرفها » .

(هـ) وأمر أخير نختم به حديثنا عن خلف الأحمر . وذلك هو الخبر الذى رووا فيه أنه وضع لأهل الكوفة شعراً كثيراً رووه عنه » فلما تقرّأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة ، فعرّفهم الأشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس . فقالوا له :

أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة، فبقى ذلك فى دواوينهم » .
وقد أشرنا إلى أن راوى هذا الخبر بصرى ممن كان يتعصب على الكوفيين ، وأن الغرض من هذا الخبر توهين رواية الكوفيين للشعر . ونحب فى هذا المكان أن نسأل : مَنْ مِنْ رواة الكوفة أبى أن يقبل من خلف اعترافه: أكلهم أم بعضهم ؟ فإذا كانوا جميعاً لم يقبلوا ذلك ففى الأمر إجماع واتفاق يعزّ مثلهما فى أمر أيًّا كان ؛ وإن كان بعضهم لم يقبل، وبعضهم قبل ، فما هى القصائد التى اعترف بها خلف وأين ذكرها علماء الكوفة الذين قبلوا اعتراف خلف ؟ ولو تركنا أهل الكوفة وتساءلنا عن أهل البصرة : ألم يسمع بعضهم بما اعترف به خلف لأهل الكوفة ؟ فإذا كان أهل الكوفة لم يقبلوا اعترافه ، فهل قبل ذلك أهل البصرة؟ وأين نصُّوا على هذه القصائد التى وضعها ؟ ثم، إذا كان أهل البصرة قد علموا بذلك وقبلوا اعتراف خلف فقد ثبت لديهم إذن أن خلفاً كان يكذب ويضع الشعر وينحله الأقدمين؛ فكيف إذن وثقوه وقبلوا روايته ؟ بل كيف وثقه الأصمعى وابن سلام– وهما من هما – توثيقاً لم يوثقاه أحداً ؟ والجواب على ذلك واضح ، فقد وثقوه لأنه كان ثقة، ولأن هذا الخبر الذى رواه المبرد أو نسب إليه – خبر لم يقبله أحد لأنه مما دعت إليه العصبيات والخصومات . . .

وبعد ؛

فلسنا نقصد إلى الحديث عن سائر العلماء من رواة الشعر ، فإن حديثنا حينئذ لا ينتهى بنا إلى غاية نقف عندها ، ونحن نرى أن فى حديثنا عن حماد وخلف – وهما أشهر من رُمى بالوضع وأكثر من اتهم بالنحل – ما يغنى عن الاستقصاء والإفاضة . غير أننا نحب أن نشير إلى عالم ثالث من رواة الشعر واللغة ، ثقة أىّ ثقة عند الكثيرين ، ومع ذلك لم يعدم من يضطغن عليه فيرميه بالوضع والتزيد : ذلك هو الأصمعى. وسنقتصر على خبرين فيهما تأييد لما ذهبنا إليه من أمر هذه الخصومات والمنافسات والعصبيات وما تدعو إليه من اتهام بالوضع ورمى بالكذب . فقد كان ابن الأعرابى ، وهو كوفى ، ينتقص الأصمعى

— وهو بصرى — ويرميه بمثل ما قدمنا ؛ وكان يصح أن نرى مرد هذا الاتهام إلى العصبية التى أشرنا إلى بيان أمرها ؛ ولكننا نجد خبراً ذا قيمة كبيرة لنا فى هذا المجال يرجع اتهام ابن الأعرابى الأصمعىَّ إلى خصومة شخصية . قالوا(١) : « كان أول من أغرى ابن الأعرابى بالأصمعى أن الأصمعى أتى ولد سعيد بن سَلْم الباهلى ، فسألهم عما يروونه من الشعر ، فأنشده بعضهم القصيدة التى فيها :

سَمِينُ الضوَاحِي لَمْ تُؤَرِّقْهُ ـ ليْلَةٌ وأَنْعَمَ ـ أبكارُ الهُمُومِ وَعُونُهَا(٢)

فقال الأصمعى : من روّاك هذا الشعر؟ قال : مؤدب لنا يعرف بابن الأعرابى . فقال : أحضروه . فأحضروه ، فقال له : هكذا روّيتهم هذا البيت برفع «ليلة»؟ قال : نعم . فقال الأصمعى : هذا خطأ ، إنما الرواية « ليلةً » بالنصب ، يريد : لم تؤرقه أبكار الهموم وعونها ليلةً من الليالى . فقال الأصمعى لسعيد : من لم يحسن هذا القدر فليس موضعاً لتأديب ولدك ! فنحّاه سعيد . فكان ذلك سبب طعن ابن الأعرابى على الأصمعى » .

وأما الخبر الثانى فهو حديث لأبى الطيب اللغوى فيه بيان جوانب كثيرة من حديثنا الذى قدمناه ، قال فى معرض حديثه عن الأصمعى(٣) : « فأما ما يحكيه العوام وسُقّاط الناس من نوادر الأعراب ، ويقولون : هذا مما افتعله الأصمعى ، ويحكون أن رجلاً رأى عبد الرحمن ابن أخيه فقال : ما فعل عمك ؟ فقال : قاعد فى الشمس يكذب على الأعراب . فهذا باطل ، ما خلق الله منه شيئاً ، ونعوذ بالله من معرة جهل قائليه وسقوط الخائضين فيه . وكيف يقول ذلك عبد الرحمن ولولا عمه لم يكن شيئاً ؟ وكيف يكذّب عمه وهو لا يروى شيئاً إلا عنه ؟ وأنّى يكون الأصمعى كما زعموا وهو لا يفتى إلا فيما أجمع عليه العلماء ويقف عما يتفردون

---

(١) السيوطى ، المزهر ٢ : ٣٢٢ و ٣٨٠ .
(٢) الضواحى : ما بدا من الجسد . وأنعم : زاد فى هذه الصفة .
(٣) مراتب النحويين ورقة: ٨٠ — ٨٣ .

به عنه ولا يجوّز إلا أفصح اللغات ويلجّ فى دفع ما سواه . . ؟ . . وكان أبوزيد وأبو عبيدة يخالفانه ويناوئانه كما يناوئهما ، فكلهم كان يطعن على صاحبيه بأنه قليل الرواية ولا يذكره بالتزيد ؛ وكان أبو زيد أقلهم طعناً على غيره ؛ وكان أبو عبيدة يطعن على الأصمعى بالبخل وضيق العطن ؛ فكان الأصمعى إذا ذكر أبا عبيدة قال : ذاك ابن الحائك . . . فانظر إلى هذا الإنصاف بينهم مع شدة المنافسة ، ثم لا يتهم أحدهم صاحبه بالكذب ولا يقرفه بالتزيد ، لأنهم يبعدون عن ذاك . . . . »

وقد ذهب ابن جنى إلى مثل ذلك ، فقد عقد فصلاً عنوانه « باب فى صدق النقلة وثقة الرواة والحملة » قال فيه : « هذا موضع من هذا الأمر لا يعرف صحته إلا من تصور أحوال السلف ، وعرف مقامهم من التوقير والجلالة » ، ثم ذكر من أخلاق بعض الرواة العلماء مثل أبى عمرو بن العلاء والأصمعى وأبى زيد وأبى عبيدة وأبى حاتم — ما يوثقهم به ويدفع عنهم ما رُموا به . وقد قال عن الأصمعى : « وهذا الأصمعى ، وهو صناجة الرواة والنقلة ، وإليه محط الأعباء والثقلة ... كانت مشيخة القراء وأماثلهم تحضره وهو حدَث لأخذ قراءة نافع عنه ؛ ومعلوم قدر ما حذف من اللغة فلم يثبته ، لأنه لم يقوَ عنده إذ لم يسمعه . وأما إسفاف من لا علم له ، وقول من لا مُسكة به : إن الأصمعى كان يزيد فى كلام العرب ويفعل كذا ويقول كذا — فكلام معفو عليه ، غير معبوء به . . . » ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عما قدمنا من أمر العصبية بين البصرة والكوفة والخصومات التى نشأت بين العلماء الرواة ، فيرى فيها رأياً لا بأس من إيراده ، إذ يرى فى هذا الاتهام الذى كانوا يتبادلونه دليلاً على مدى تحريهم الدقة وتشددهم فى الرواية ، قال : « فإن قلت : فإنا نجد علماء هذا الشأن من البلدين ، والمتحلّين به من المصرين ، كثيراً ما يهجّن بعضهم بعضاً ، فلا يترك له فى ذلك سماء ولا أرضاً . قيل : هذا أدل دليل على كرم هذا الأمر ونزاهة هذا العلم ؛ ألا ترى إذا سبق إلى أحدهم ظنّة ، أو توجهت نحوه شبهة ، سُبّ

بها ، ويُسْرِىَ إلى الله منه لمكانها . ولعل أكثر ما يرى بسقطة فى رواية ، أو غمزة فى حكاية ، محمىّ جانب الصدق فيها ، برىء عند الله من تبعتها ؛ لكن أخذت عنه إما لاعتنان شبهة عرضت له ، أو لمن أخذ عنه ، وإمَّا لأن ثالبه ومتعيِّبه مقصر عن مغزاه ، مغضوض الطرف دون مداه ؛ وقد عرض الشبهة للفريقين ، ويعترض على كلا الطريقين . فلولا أن هذا العلم فى نفوس أهله والمتفيئين بظله كريم الطرفين . . . لما تسابُّوا بالهجنة فيه ، ولا تنابزوا بالألقاب فى تحصين فروجه ونواحيه . . . وإذا كانت هذه المناقضات والمنافسات موجودة بين السلف القديم . . . ثم لم يكن ذلك قادحاً فيما تنازعوا فيه ، ولا عائداً بطرف من أطراف التبعة عليه جاز مثل ذلك أيضاً فى علم العرب الذى لا يخلص جميعه للدين خلوص الكلام والفقه له ، ولا يكاد يعدم أهله الأنس به والارتياح لمحاسنه » .

٤

ومع ذلك كله فنحن لا نذهب — ولا يصح لأحد أن يذهب — إلى أن جميع ما فى تضاعيف الكتب العربية من شعر منسوب إلى الجاهلية — صحيح مبرّأ من الوضع والنحل ، ولكننا أردنا فى حديثنا الذى قدمناه أن نفحص مواطئ أقدامنا حتى نمضى فى يقين وثقة ، ونصدر عن بصيرة وهدى ، وأن نضع فى الطريق أعلاماً ، حتى لا نضل فيها ولا تعمى علينا معالمها . وقد قادنا البحث إلى أن هذا الشعر المنسوب إلى الجاهلية على ثلاثة أضرب :

١ — فضرب موضوع منحول ، إما على وجه اليقين القاطع وإما على وجه الترجيح الغالب . وأكثر شعر هذا الضرب ما وضعه القُصَّاص ليُحَلُّوا به قصصهم ، أو يكسبوه فى نفوس السامعين والقارئين شيئاً من الثقة ، وما وضعه هؤلاء القصاص على لسان آدم وغيره من الأنبياء أو على لسان بعض العرب البائدة ، وما وضعه

بعض الرواة ليثبتوا به نسباً أو يدلّوا به على أن لبعض العرب قدمة وسابقة . وقد أشرنا إلى بعض هذا الحديث فى فصل مضى ، وأشار إليه غيرنا فى مواطن متفرقة ، بحيث لا تحتاج إلى إعادة القول فيه ؛ إذ أننا نراه أيسر هذه الضروب الثلاثة وأهونها لسهولة انكشافه ويسر افتضاحه ، بحيث لا يكاد يعمى على أحد .

٢ — وضرب صحيح لاسبيل إلى الشك فيه أو الطعن عليه . وذلك هو الذى أجمع العلماء الرواة على إثباته بعد أن تدارسوا هذا الشعر وفحصوه ومحصوه . وقد مر بنا أن القدماء كانوا يميزون الراوية من العالم بالرواية والشعر ، فيأخذون قول الأول فى حذر واحتياط ، ولا يقبلون منه إلا ما يطمئنون إلى صحته ، ثم يأخذون قول الثانى واثقين مطمئنين إلا أن يظهر لهم من وجوه النقد ما يضعف من ثقتهم واطمئنانهم . وقد فصلنا القول فى أمر هؤلاء العلماء بالرواية والشعر ، وكيف كانوا — على اختلاف مدارسهم — يجدّون فى الجمع والاستقصاء ، ثم فى البحث والتمحيص حتى يميزوا الموضوع من الصحيح ، فلا يحفلوا بالموضوع ويسقطوه من مروياتهم وكتبهم ، أو يثبتوه وينبهوا عليه . ويحسن بنا أن نذكّر بثلاثة أخبار كنا قد قدمناها شاهدة على ما نقول . الأول : أن خلفاً الأحمر كان رأساً من رؤوس الرواية ، أخذ عنه البصريون جميعاً ، وكان من هؤلاء العلماء الذين لايقبلون من الشعر إلا ما ميزوا صحته ، ولا يروون منه إلا ما اطمأنوا إلى أنه غير موضوع ؛ حتى لقد جاءه يوماً خلاد بن يزيد الباهلى ، « وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله» ، فقال له : « بأى شىء تردهذه الأشعار التى تروى؟ قال له : هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : نعم . قال : أفتعلم فى الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم . قال : فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت »[1] وحتى لقد قال له قائل يوماً[2] « إذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه فما أبالى ما قلت فيه أنت وأصحابك . قال له :

---

(١) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء : ٨ .

(٢) المصدر السابق : ٨ .

إذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته ، فقال لك الصراف إنه ردىء ، هل ينفعك استحسانك له ؟ » .

ومن هؤلاء العلماء الرواة الذين جدُّوا فى فحص الشعر الجاهلى ودراسته وروايته وتمييز موضوعه من صحيحه : أبو عبيدة معمر بن المثنى . فقد أتى — هو وابن نوح العطاردى — ابنَ داوود بن متمم بن نويرة لما قدم البصرة . فسألاه عن شعر أبيه متمم ، وقاما له بحاجته ، فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويضعها لهما ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التى ذكرها متمم ، والوقائع التى شهدها . فلما توالى ذلك علما أنه يفتعله [1] . وقد قدمنا فى الفصل الثانى من هذا الباب بعض تحقيقات أبى عبيدة فى كتاب الخيل .

وقد بلغ رواة الشعر وعلماؤه من التحقيق والتمحيص ، وتمييز منحوله ، والنصّ على الموضوع منه ، منزلةً جعلت بعض العلماء يفضلونهم على رواة الحديث ، فقد قال محمد بن سلام [2] « حدثنى يحيى بن سعيد القطان قال : رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون : هذا مصنوع » .

وإذا ما سألنا — كما سأل خلاد بن يزيد الباهلى خلفاً الأحمر — عن مقاييس هؤلاء العلماء الرواة فى نقد الشعر وتمييز صحيحه من منحوله — ظنَنّا بادئ الرأى أنه لم يكن لهؤلاء القوم مقاييس ثابتة معروفة ، وأنهم ، إذا ما أجابونا عن هذا السؤال ، سيفرُّون من الإجابة الشافية كما فرَّ منها خلف حينما قال لخلاد إنه إذا كان يعلم أن فى الشعر ما هو مصنوع ، وإذا كان يعلم أن فى الناس من هو أعلم بالشعر منه ، فعليه ألا ينكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما يعلم . وكذلك حين شبَّه الناقد للشعر بالصراف من غير أن يذكر لنا مقياساً واضحاً . ولكننا

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٤٠ .

(٢) ذيل الأمالى : ١٠٥ .

ـ حين نتعمق البحث ونستقصيه ـ لا نلبث أن نكتشف أنه كانت بين أيديهم ثلاثة مقاييس :

(ا) ذوقهم الشعرى الذى اكتسبوه عن علم ودراية بعد طول معاناة ودرس لهذا الشعر ، شأنهم فى ذلك شأن الصراف الذى أشار إليه خلف ، والذى لايكاد الدرهم يقع بين يديه حتى يميزه لكثرة ما مرن على هذا الضرب من المعاناة والمعرفة . ولكنهم لم يكونوا يستخدمون هذا المقياس وحده ، وإنما كانوا يدعمونه ويُقوُّونه بأحد المقياسين التاليين .

(ب) إجماع الرواة : ولكن هل وقع هذا الإجماع فى شىء من الشعر الجاهلى ؟ أجل ، لقد وقع فى كثير منه ولم يختلفوا إلا فى بعضه ، وقد بيناً طرفاً من ذلك فيما مضى ، وسنبين طرفاً آخر منه فى هذا الفصل وما سيتلوه من فصول . ويتبين لنا مدى إجلالهم لإجماع الرواة فى مثل قول ابن سلام [١] « وقد اختلفت العلماء فى بعض الشعر كما اختلفت فى بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه » وقوله فى إجماعهم على الموضوع من الشعر [٢] « وليس لأحد ـ إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه ـ أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » . ومن هنا أوردوا ما أجمع عليه العلماء على أنه صحيح لا سبيل إلى الطعن فيه ، فقال ابن سلام[٣] « وأجمع الناس على أن الزبير بن عبد المطلب شاعر ، والحاصل من شعره قليل ، فمما صح عنه قوله : . . . » وأورد الواقدى أبياتاً بعد أن قال[٤] « وهى ثبت لم أرَ أحداً يدفعها ». وأورد رجزاً فى موطن آخر وقال[٥] : « ما رأيت من أصحابنا أحداً يدفعه » . وإجماع الرواة الثقات هو الذى ذكره

---

(١) طبقات الشعراء : ٦ .
(٢) المصدر السابق : ٦ .
(٣) المصدر السابق ٢٠٥ .
(٤) المغازى : ١٥٠ .
(٥) المصدر السابق : ٢٧٧ .

الجاحظ فى قوله[١] : « فالعلماء الذين اتسعوا فى علم العرب ، حتى صاروا إذا أخبروا عنهم بخبر كانوا الثقات فيما بيننا وبينهم ، هم الذين نقلوا إلينا . وسواء علينا جعلوه كلاماً وحديثاً منثوراً ، أو جعلوه رجزاً أو قصيداً موزوناً » .

(ح) والمقياس الثالث الذى كان يعتمد عليه العلماء فى القرنين الثالث والرابع ويزنون به هو : وجود الشعر فى ديوان الشاعر أو ديوان القبيلة ، فقد دوّن هذه الدواوين الثقاتُ من العلماء الرواة ، ولذلك قبلوا ما جاء فيها حين يجىء فى صورة اليقين والقطع ، وأما ما ذكره هؤلاء العلماء أنفسهم فى تلك الدواوين على أنه مما يُشك فيه أو يتوقف عنده ، فقد كانوا ينقلونه كما ذكروه بألفاظهم ، وقد يبيحون لأنفسهم بحثه والنظر فيه . ومما يدل على مدى ثقتهم بما دونه العلماء فى الدواوين الشعرية أن أبا الفرج ذكر شعراً لامرئ القيس وقال[٢] : « وهى قصيدة طويلة وأظنها منحولة » ثم قدم لظنه هذا بسببين الأول : « لأنها لا تشاكل كلام امرئ القيس » ، وهو نقد داخلى ، والثانى : لأنه « ما دونها فى ديوانه أحد من الثقات » ، وهو هذا النقد الخارجى الذى نحن بسبيله ، وكذلك أورد أبو الفرج أشعاراً لدُرَيد بن الصمة رواها ابن الكلبى ، ثم قال أبو الفرج إنها « موضوعة كلها » ، واستدل على ذلك بقوله[٣] : « ما رأيت شيئاً منها فى ديوان دريد بن الصمة على سائر الروايات » . وأورد الآمدى أبياتاً نسبها إلى امرئ القيس بن مالك الحميرى ، ثم قال[٤] : « وهى أبيات تُروَى لامرئ القيس بن حُجر الكندىّ ، وذلك باطل ، إنما هى لامرئ القيس هذا الحميرى » ، ثم يقدم على ذلك دليله وهو أن هذه الأبيات مذكورة فى ديوان القبيلة ، قال : « وهى ثابتة فى أشعار حمير » .

---

(١) الحيوان ٤ : ١٨٤ .
(٢) الأغانى ٩ : ٩٧ .
(٣) المصدر السابق ١٠ : ٤٠ .
(٤) المؤتلف والمختلف : ١٢ .

فإذا ما استخدم العلماء هذه المقاييس الثلاثة ، أو اكتفوا ببعضها — وكثيراً ما يكون الثانى أو الثالث — اطمأنوا إلى ما يوردون ، وثبتت عندهم صحته وقدمه . فمن ذلك أنك ترى أبا عبيدة يورد شعراً جاهلياً ويصفه بقوله إنه[١] « الشعر الثابت الذى لا يُرَدُّ » . ومن ذلك أيضاً أن الواقدى يورد شعراً لحسان ويصفه بقوله[٢]: « ثبت قديمه » . وأن الجاحظ يطمئن إلى أنه يستشهد على بعض الأخبار « بالشاهد الصادق »[٣] و « بالأشعار الصحيحة »[٤] ، ويصف بعض ما يذكر من أشعار العرب وأخبارهم بأنها « أشعارهم المعروفة وأخبارهم الصحيحة »[٥] .

٣ — وأما الضرب الثالث من ضروب الشعر الجاهلى ، فهو المختلف عليه ، الذى قال عنه ابن سلام « وقد اختلفت العلماء فى بعض الشعر ، كما اختلفت فى بعض الأشياء » . وفى هذا الضرب الثالث نقاط ينبغى أن ننبه عليها لنحيط بالموضوع من أطرافه .

(١) أولها أن هذا الضرب يبدو — للقارئ العابر للكتب العربية — عظيماً كبير القدر ، وذلك لكثرة ما يقرأ من النص على أن هذا البيت موضوع وأن تلك الأبيات منحولة ، ولكثرة ما يمر به من اتهام للرواة بالوضع والكذب والتزيد . ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها عند من ينعم النظر ويستقصى فى البحث — أن هذا الضرب ليس بالكثرة التى يبدو بها ، وسيمر بنا فى الباب التالى عند حديثنا عن الدواوين أن الراوية العالم من الطبقة الثانية أو الثالثة ، يروى ديوان شاعر عن راويتين أو ثلاثة من الطبقة الأولى ، فيورد كثيراً من قصائد الديوان والإجماع منعقدٌ على صحتها ، ثم يشير فى قصائد قليلة إلى أن هذه القصيدة قد رواها فلان

---

(١) النقائض : ٢٣٨ .
(٢) المغازى : ٢٨٢ .
(٣) البيان والتبيين ٢ : ٤ .
(٤) الحيوان ٢ : ١٠٧ .
(٥) المصدر السابق ٢ : ٣٢٠ .

ولم يروها فلان ، أو أن تلك القصيدة قد تُنسب إلى فلان وهو غير صاحب الديوان . وقد يجمع هذا الراوية — الذى قلنا إنه من الطبقة الثانية أو الثالثة — أبياتاً متفرقة ومقطعات صغيرة يضمها عنوان هو « المنحول من شعر فلان » . وهو يقصد بالمنحول ما لم يروه هؤلاء الرواة العلماء الذين رووا هذا الديوان . فإذا ما أحصيت هذه الأبيات التى نص فى تضاعيف الديوان أنها مما رواه فلان دون فلان ، وضممتَ إليها ما جُمع فى آخر الديوان بعنوان « المنحول من شعره » وجدتها كلها لا تكاد تعد شيئاً مذكوراً إذا قيست بالقصائد التى أجمع الرواة على صحتها — وسنبين تفصيل الأمر حينما نتحدث عن هذا الموضوع فى حينه .

أما ما يمر به القارئ من كثرة الروايات التى ترمى الرواة بالوضع والكذب والتزيد ، فقد تحدثنا عنها حديثاً مفصلاً . ولكننا نحب هنا أن نزيد أمراً جديداً ، وهو أن هذا القدح وذلك التهجين لم يمنعا العلماء والرواة من الأخذ عن بعضهم ، فكأنما كان المقصود بأكثر هذا القدح والتهجين النيلَ من الرواة أنفسهم — لأسباب قد بيّناها — دون أن ينال ذلك مما يروون من شعر . وقد مر بنا طرف من اتهام البصريين للكوفيين وإسقاطهم رواياتهم ورميهم بالكذب والوضع والنحل ، ولكن ذلك لم يحُلْ بين البصريين والأخذ عن الكوفيين بل إن رأسين من رؤوس الرواية البصرية قد أخذوا عن أكثر الكوفيين حظًّا من الاتهام ، ونقصد خلفاً الأحمر والأصمعى وأخذهما عن حماد الراوية — كما قدمنا — بل إن اتهام البصريين لخلف نفسه — وقد عرضنا هذا الاتهام وفندناه — لم يمنعهم من الأخذ عنه ، ولم يحلْ دون أن يكون خلف « معلم أهل البصرة » ! ! والأمثلة على ذلك كثيرة . ولكننا نحب أن نشير إلى مثل أخير يكشف لنا عن حقيقة هذا الاتهام ، وكيف أن المقصود منه الزراية بالشخص نفسه والنيل منه فى حياته للأسباب التى ذكرناها ، حتى إذا مات ، وانتفت تلك الأسباب ، عاد الذى أزرى به ونال منه وهجنّه ، فإذا به يقر له بالعلم ويوثقه . فهذا أبو محمد يحيى بن مبارك اليزيدى يتعصب للبصريين على الكوفيين ، وقد نظم قصيدة يمدح

نحوي البصرة ويهجو الكوفيين ، وخاصة الكسائي ، ويعيب مذهبهم ، قال فيها بعد أن مدح نحاة البصرة [١] :

وَقُلْ لِمَنْ يطْلُبُ عِلْماً ألا ... نادِ بأعْلَى شَرَفٍ نَادِ :
يا ضَيْعَةَ النَّحْوِ بهِ مُغْرِبٌ ... عَنْقَاءُ أوْدَتْ ذَاتُ إصْعَادِ
أفْسدَهُ قَوْمٌ وَأزْرَوْا بِهِ ... مِنْ بَيْنِ أغْتَامٍ وَأوْغَادِ
ذَوِى مِرَاءٍ وَذَوِى لُكْنَةٍ ... لِئَامِ آباءٍ وَأجْدَادِ
لَهُمْ قِياسٌ أحْدَثُوهُ هُمُ ... قِياسُ سَوْءٍ غَيْرُ مُنْقادِ
فَهُمْ مِنَ النَّحْوِ – وَلَوْ عُمِّرُوا ... أعْمَارَ عَادٍ – فى أبِى جَادِ
أمَّا الكِسائىُّ فَذَاكَ امْرُؤٌ ... فِى النَّحْوِ حَارٍ غَيْرَ مـراد[٢]
وَهْو لِمَنْ يَأْتِيهِ جَهْلاً بِهِ ... مِثْلُ سَرابِ البِيدِ لِلصَّادِى

وهجا الكسائي وأصحابه من الكوفيين بقصيدة أخرى منها [٣] :

كُنَّا نَقِيسُ النَّحْوَ فِيما مَضَى ... عَلَى لِسَانِ العَرَبِ الأُوَلِ
فَجَاءنَا قَوْمٌ يَقِيسُونَهُ ... عَلَى لُغَى أشْيَاخِ قُطْرُبُلِ
فَكُلُّهُمْ يعْمَلُ فى نَقْضِ ما ... بِهِ يُصَابُ الحَقُّ لاَ يَأْتَلِى
إنَّ الكسائىَّ وَأشْيَاعَهُ ... يَرْقَوْنَ فى النَّحوِ إلَى أسْفَلِ

فإذا ما بحثتَ عن سبب هذا الهجاء ، ولم تكتف بهذه العصبية البصرية ، وجدتَ أن بين اليزيدى والكسائى خصومة شخصية ومنافسة ، وذلك لأن اليزيدى « كان مؤدب المأمون ، والكسائى مؤدب أخيه محمد الأمين ، وبينه وبين الكسائى مقارضة بسبب تأديبهما الأخوين » [٤] . ومن أجل هذا كان كل همه فى أن

(١) السيرافى ، أخبار النحويين البصريين : ٤١ — ٤٤ .
(٢) مراد : هكذا فى الأصل ، ولعل صوابها : حار غير مزداد ، أى ينقص ولا يزيد ، والحرى : النقصان بعد الزيادة .
(٣) السيرافى : ٤٠ .
(٤) المصدر السابق : ٤٤ — ٤٥ .

يعيبه وينال منه ، فلما مات الكسائى وانقضت تلك المنافسة والخصومة ــ عاد اليزيدى واعترف للكسائى بالعلم ، فقال ، فى أبيات ، يرثيه ويرثى محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة [١] :

وَأَقْلَقَنِى مَوْتُ الكِسَائِىِّ بَعْدَهُ ... وَكَادَتْ بِىَ الْأَرْضُ الفَضَاءُ تَمِيدُ
فَأَذْهَلَنِى عَنْ كُلِّ عَيْشٍ وَلَذَّةٍ ... وَأَرَّقَ عَيْنِى والْعُيُونُ هُجُودُ
هُما عالِمَانَا أَوْدَيَا وتُخُرِّمَا ... وَمَا لَهُمَا فى الْعالَمِينَ نَدِيدُ

(ب) وأمر آخر جدير بالعناية ، وهو أن كثيراً من النص على « النحل » لا يعنى أن هذا الشعر منحول موضوع حقًّا ، وإنما غاية ما يعنى أن هذا الراوية العالم يذهب إلى أن هذا الشعر منحول ، بينما يذهب غيره إلى أنه صحيح . فمرد الأمر إذن إلى خلاف فى الحكم والرأى ، مرجعه إلى اختلاف المصادر التى كان يأخذ عنها الرواة ، وإلى اختلاف المناهج التى كان يحتكم إليها العلماء . وسنضرب لذلك بعض الأمثلة :

١ ــ فقد مر بنا أن ابن سلام روى عن أبى عبيدة عن يونس بن حبيب أن حماداً الراوية قال قصيدة فى مدح أبى موسى الأشعرى ، وأنشدها بين يدى بلال بن أبى بردة بعد أن نحلها الحطيئة[٢] . ولكن المدائنى ، وهو بصرى مثل هؤلاء الثلاثة ، يخالفهم فى الرأى ، وقد ذكر « أن الحطيئة قال هذه القصيدة فى أبى موسى ، وأنها صحيحة ، قالها فيه وقد جمع جيشاً للغزو »[٣] .

٢ ــ وقد ذكر أبو خليفة الفضل بن الحباب أنه رُوى لعباس بن مرداس بيت فى عدنان ، قال [٤] :

---

(١) السيرافى : ٤٦ .
(٢) طبقات الشعراء : ٤١ .
(٣) الأغانى ٢ : ١٧٦ .
(٤) طبقات الشعراء : ١٠ ــ ١١ .

وعَكٌّ بن عدْنَانَ الَّذِينَ تَلَعَّبُوا بِمَذْحِجَ ، حتى طُرِّدُوا كلَّ مَطْرَدِ

ثم قال « والبيت مريب عند أبي عبد الله » يعنى ابن سلام . ولعل ابن سلام ارتاب فى البيت لذكره عدنان « ولم يذكر عدنان جاهلى غير لبيد بن ربيعة » . بينما أورده ابن هشام على أنه صحيح غير مريب ، وذكر أنه أخذه عن أبى محرز خلف الأحمر وعن أبى عبيدة [١] . وكذلك أورده أبو عبد الله المصعب الزبيرى على أنه صحيح ولم يشر إلى ارتيابه فيه كما أشار إلى ارتيابه فى غيره من الأبيات التى تذكر الأنساب[٢] .

٣ — وقد أورد المصعب الزبيرى أبياتاً من الرجز تجعل نسب قضاعة فى حمير لا فى معدّ [٣] ، وذهب إلى أن هذه الأبيات موضوعة فقال « وزوروا فى ذلك شعراً » . وأورد الأبيات أيضاً أبو الفرج وروى عن مؤرج بن عمرو أنه قال[٤] : « هذا قول أحدثوه بعدُ وصنعوا شعراً ألصقوه به ليصححوا هذا القول .. وهذا شىء قيل فى آخر أيام بنى أمية » . ومع ذلك فابن هشام — الذى ولد بعيد أيام بنى أمية ، والذى تعقب ابن إسحق فيما أورد من الشعر ونقده وأسقط بعضه لأنه لم ير « أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها » — ابن هشام هذا يورد الأبيات السابقة على أنها صحيحة ، وعلى أنه يستدرك بها ما فات ابن إسحق ذكره[٥] .

٤ — وأورد ابن هشام قصيدة لأبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى ، آخرها قوله [٦] :

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لاَ قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاَ

---

(١) السيرة ١ : ٩ .
(٢) نسب قريش : ٥ .
(٣) المصدر السابق : ٥ .
(٤) الأغانى ٨ : ٩١ .
(٥) السيرة ١ : ١١ — ١٢ .
(٦) المصدر السابق : ٦٧ — ٦٩ .

وقال ابن هشام إن هذه القصيدة تُروَى لأمية بن أبى الصلت ، وبعد أن أورد الأبيات مع هذا البيت الأخير قال « هذا ما صح له مما روى ابن إسحق منها ، إلا آخرها بيتاً . . . فإنه للنابغة الجعدى » . ولكن ابن سلام يذهب إلى غير هذا المذهب فقد عرض لهذا البيت وقال [1] « ترويه عامر للنابغة ، والرواة مجمعون أن أبا الصلت بن أبى ربيعة قاله » . وقد أتى به مثلاً على أن الشاعر قد يستزيد فى شعره بيتاً قاله مَنْ قبله كالمتمثل حين يجىء موضعه من غير أن يقصد اجتلابه أو سرقته .

٥ — وقد قال الرياشى [2] : « يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن قميئة وغيره » . ولكن ابن سلام ينفى ذلك ويقول [3] : « وبنو قيس تدعى بعض شعر امرئ القيس لعمرو بن قميئة ، وليس ذلك بشىء » .

(ح) ومما قد يوهم بالنحل والوضع أيضاً اختلاف الرواة فى نسبة الشعر ، فتراهم ينسبون بعضه إلى شاعرين أو ثلاثة شعراء جاهليين ؛ والأمثلة على ذلك كثيرة جداً لا يعنينا إلا ما سنذكره بعد أن نورد مثلين عليها : الأول — أن الأبيات التى فى وصف المطر ومنها :

دانٍ مُسِفٌّ فُوَيْقَ الْأَرْضِ هَيْدَبُهُ يَكَادُ يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ بالرَّاح

نسبها يونس بن حبيب لعبيد بن الأبرص ، وعلى ذلك كان إجماع أهل البصرة [4] « فلما قدم المفضل صرفها إلى أوس بن حَجر » . والثانى — أن القصيدة التى منها :

مِنْ سبَإِ الحَاضِرِينَ مأْرِبَ إِذْ يَبْنُونَ مِنْ دُوْن سَيْلِهِ العَرِمَا

نسبها يونس للنابغة الجعدى ، ونسبها أبو عبيدة لأمية ، ثم سئل خلف الأحمر

---

(١) طبقات الشعراء : ٤٨ — ٤٩ .
(٢) الموشح : ٣٤ .
(٣) طبقات الشعراء : ١٣٤ .
(٤) المصدر السابق : ٧٦ — ٧٧ .

عنها فقال : « للنابغة ، وقد يقال لأمية »[١] .

ونحب أن نلحظ أن الشعر فى هذين المثلين — وفى كثير من الأمثلة غيرهما — نُسب إلى شعراء جاهليين ، وأن الخلاف فى نسبته لم يخرجه عن نطاق الشعر الجاهلى . فجاهلية هذا الشعر إذن ثابتة لا شك فيها عند هؤلاء الرواة العلماء ، وإن كانوا اختلفوا فى الشاعر الجاهلى نفسه — ربما لاختلاف المصادر التى استقى منها كل راوية منهم نسبة الشعر — وقد كان هؤلاء الرواة العلماء ، لطول تمرسهم بالشعر الجاهلى ومدارستهم إياه ، يعرفون الشعر الجاهلى ويميزونه من الإسلامى بمجرد سماعهم إياه — وإن كانوا يختلفون أحياناً فى نسبته ، بل إنهم أحياناً ليعرفون أنه شعر جاهلى ولكنهم يعجزون عن ذكر الشاعر نفسه ، ومثال ذلك ما رُوى من أن حماداً أنشد بلال بن أبى بُرْدَة شعراً مدحه به ، فقال بلال لذى الرمة : كيف ترى هذا الشعر؟ قال ذو الرمة : جيداً وليس له. قال بلال : فمن يقوله؟ قال : لا أدرى إلا أنه لم يقله . . . فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازه قال له : أنت قلت ذلك الشعر ؟ قال : لا . قال : فمن يقوله ؟ قال : بعض شعراء الجاهلية وهو شعر قديم وما يرويه غيرى . قال : فمن أين علم ذو الرمة أنه ليس من قولك ؟ قال : عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام[٢] .

وكانوا أحياناً — حينما يطمئنون إلى أن الشعر جاهلى — ينسبونه إلى شاعر بعينه ، وربما كان ذلك لأنهم عرفوا أن هذا الشعر أقرب إلى روح ذلك الشاعر لكثرة ما درسوه وعرفوه ؛ وعلى هذا الضوء نستطيع أن نفسر بعض الروايات التى قد يُفهم منها الاتهام بالوضع أو الرمى بالكذب ، فى حين لا وضعَ ولا كذب إذا فهمناها على ما قدمنا . فمن ذلك أن حماداً جاءه أعرابى فأنشده قصيدة لم يُدْرَ لمن هى . فقال حماد : اكتبوها ، فلما كتبوها وقام الأعرابى ، قال حماد : لمن ترون أن نجعلها ؟ فقالوا أقوالاً ، فقال حماد : اجعلوها لطرفة [٣] . وقال

(١) طبقات الشعراء : ١٠٦ .
(٢) الأغانى ٦ : ٨٨ .
(٣) مراتب النحويين ورقة : ١١٧ - ١١٨ .

الأصمعى : ما أروى للأغلب إلا اثنتين ونصفاً . . . قال أبو حاتم : طلب إسحق بن العباس الهاشمى من الأصمعى رجز الأغلب ، فطلبه منى ، فأعرته إياه ، فأخرج منه نحواً من عشرين قصيدة . فقلت للأصمعى : ألم تزعم أنك لم تعرف إلا اثنتين ونصفاً ؟ فقال : بلى ، ولكن انتقيت ما أعرف ، فإن لم يكن له فهو لغيره ممن هو ثبت أو ثقة [١] .

(د) وبعد ؛

فمنذ مطلع القرن الثانى الهجرى ، وبعده بقليل ، قامت طائفة من العلماء الرواة من أمثال أبى عمرو بن العلاء وحماد الراوية ثم المفضل وخلف الأحمر — وهم الطبقة الأولى من العلماء الذين عرفتهم العربية فى تاريخها الحافل ؛ فتلقوا تراث الجاهلية : شعرها وأخبارها وأنسابها ؛ وصلهم بعضه مدوناً فى دواوين كاملة ضمت تراث القبيلة كله أو شعر شاعر فرد من شعرائها ، ووصلهم بعضه مكتوباً فى صحف متفرقة ، ثم وصلهم بعضه عن طريق الرواية الشفهية التى كان يتناقلها الخلف عن السلف . فحملوا الأمانة ، ومضوا يجمعون ما تفرق من هذا التراث ، وينظمون منه ما تجمع ، يضيفون إليه ما لم يكن فيه مما ثبتت لهم صحته ، وينفون عنه ما ثبت لهم زيفه وفساده . ولم يألوا جهداً فى التثبت والتحقيق والتمحيص والمدارسة ، حتى استقام لكل منهم ما تيقن صحته ، فمضى يذيعه على تلامذته فى حلقات دروسه ، ويشيعه فى رواد مجالس علمه ، فخلف من بعدهم خلف هم الطبقة الثانية من العلماء الرواة تأسوا بشيوخهم واقتفوا سبيلهم ، يجمعون ويدرسون ويمحصون ويفحصون ، ثم يستقيم لكل منهم ما يتيقن صحته ، فيذيعه على تلاميذه من علماء الطبقة الثالثة .

ومع ذلك فقد كان لا بد لبعض هؤلاء العلماء من أن يختلفوا : فقد وقع لبعضهم من الصحف المكتوبة ، أو الدواوين المدونة ، أو الرواة من الشيوخ العلماء ومن الأعراب الفصحاء — ما لم يقع كله لغيره ، ثم كان لكل طائفة من

---

(١) المزهر : ٢١٣ .

هؤلاء العلماء منهج فى الأخذ والتلقى — على ما بيَّناه فى صفحات تقدمت . ولكن هذا الخلاف فى المصادر أولاً وفى المنهج ثانياً لم يمنع العلماء من أن يأخذ بعضهم عن بعض ، ومن أن يرحل علماء المصر إلى المصر المجاور ليأخذوا منهم ويرووا عنهم ، ثم ينقلوا ما تيقنوا صحته إلى تلاميذهم ويكتبوه فيما يجمعون من دواوين . فهذه الدواوين المنسوبة المسندة التى يرتفع إسنادها إلى الطبقة الأولى أو إلى تلاميذهم من علماء الطبقة الثانية — هى التى تحوى بين دفتيها الشعر الجاهلى الذى تيقنوا صحته بعد تحرٍّ واستقصاء وجمع وتمحيص ونقد . وسيكون كل ذلك موضوع حديثنا فى الباب التالى من هذا البحث .

* * *